جولة في تاريخ بيت لحم

من اقدم الازمنة حتى اليوم

الجزء الاول



تأليف

حنا عبدالله جقمان

سنـــة ١٩٨٤

مطبعة بطريركية الروم الارثوذكس ـ القدس

جولة في تاريخ بيت لحم

من اقدم الازمنة حتى اليوم

الجزء الاول

تأليف

حنا عبدالله جقمان

سنـــة ١٩٨٤

مطبعة بطريركية الروم الارثوذكس ـ القدس

الاهـــــــداء

اهـــدي كتابي هذا الى الجيـــــل الصاعـــد من بنات وابناء بلـــدي ، فهـــم نواة وعمـــاد مجتمعنـــا في المستقبل القريـــب ٠

فمـــن هذا الجيل الصاعد سيكـــون قادتنـــا وحملـــة مشاعل حضارتنا ، وفي طليعتهـــم القاضي والطبيب والمهنـــدس والمحامي والصحافي والاداري وصاحـــب الاعمال الحرة ومؤسس المشاريع التجارية والعمرانية ٠ وهم قبل كل شيء أمهـــات وآباء اجيـــال المستقبـــل ٠

رغم تهافتهـــم الكبير على التـــزود من مناهل العلم والمعرفـــة ، عليهـــم أن يبذلـــوا كل جهـــد مستطاع ليوسعـــــوا معلوماتهم ومعرفتهم بتاريخ بلادهــــــم وأجدادهم ليقتدوا بهم في كفاحهم وجهادهم لبناء بلدهم ، فيكونوا خير خلف لخـــير سلـــف ٠

فالى الجيل الصاعد من بنــــات وابناء بلـــدي ، أهـــدي هذا الكتــــاب المتواضع لعله يكون فاتحـــة الطريـــــق امامهم للبحث والتنقيب عن اخبار السلـــف الطيبيـــن الابـــرار ٠

بيت لحم في ١ــ١٠ــ١٩٨٤

حنـــــا عبد الله جقمـــــان

المقدمـــــــــــة

ان تاريخ بيت لحم مادة غزيره جداالكثرة ما كتب عنها الحجاج والزوار علـــى اختلاف شعوبهم ولغاتهم ، منذ العهـــــدالبيزنطي حتى يومنا هذا أي خلال عشرين قرنا . فيجدها مكتوبة بكل اللغات الحية ،بعضها شملته المؤلفات والكتب العديدة ، ولكن معظمهـــا لا يزال محبوســـا في الاف المخطوطات المكدسة الخاصــــة والعامـــة ومختلف الاديرة في الشرق وفي أوروبــــاوغيرها في انتظار من ينقب عنها ويخرجها للنـــــور .

ومما يؤسف له اشـــد الاســـف أن اخبار وتاريخ بيت لحم باللغة العربيـــة لا يجد لها الباحث أو الطالب الا القليل جدامن الاخبار المبعثرة هنا وهناك ، لا تعطي فائدة تذكر وعليه فاني منذ سنوات وأنـــا احاول أن أجد للمواطن والقارىء العربـــي مجملا مفيدا يغطي نوعا ما هذا النقص فيتاريخ بيت لحم ، فوجدت الكثيـــر مـــــن الصعوبات وعدم وجود مراجع تذكـــــرباللغة العربيـــة .

سمعت أن الكثيرين من ابائنا واجدادنا كان قد سجل بخطه سجلا خاصا لـــه يدون فيه ما يعرف أو سمع من اجـــداده او قرأ في بعض الكتب الاجنبية من أخبـــار بيت لحم . فكانت مخطوطات ثمينة جـــداولكن للاســـف الشديد ان مثـــل هــــذه المخطوطات انتقلت بعد وفاة كاتبها الـــى ابنائه ومنهم الى احفاده ، وأخيرا كــــان هناك طريقتان لمثل هـــذه المخطوطات :الاول ان الاحفاد وخاصة زوجاتهم اعتبروا هذه التسجيلات قمامة فالقينها مع مـــــاوجدنه معها من المجلات القديمة الـــى عامل التنظيفات ، لان وجودها في البيـــتيحول دون جماله وترتيبه على الطريقـــة العصرية ، وخصوصا عندما انتقل بعض الاحفاد الى بيـــوت جديـــدة بنوهـــا او استأجروها لسكناهم . اما الطريقة الثانيةلهذه المخطوطات فان بعض الابناء المهاجرين الى أميركا للعمل والاقامة هناك أخذوهـــامعهم وهناك لاقت من أولادهم ما لاقتـــه مثيلاتها من المخطوطات من الذين بقوا فيبيت لحم . وهكذا فقدت كنوز ثمينة فيهـــا الكثير جدا من أخبار بيت لحم واخبــــار ابنائها وما مر عليهم من الحوادث .

يستطيع الباحث في تاريخ بيت لحم ان يؤلف عشرات المجلدات اذا كان يتقـــن بعض اللغات الاجنبية مثل الافرنسيــــةوالايطالية والانكليزية والالمانية والاسبانية وغيرها ، فهناك الاف الكتب والمخطوطات التي تتحدث عن كل صغيرة وكبيرة فـــي تاريخ بيت لحم منذ عهد الملك داود حتـــىيومنـــا هــــذا .

فهذه البلدة الهادئـــة المتواضعـــةارتفعت شهرتها عاليا في انحاء المعمـــورة منذ ولادة المخلص في مغارتها فأخذت تجتذب اليها الشعوب من سائر انحاء المعمـــورة

خلال العشرين قرنا الماضية . فتهافت على زيارة بيت لحم من الاباطرة والملوك والامراء والاشراف والفرسان والنساك ومختلف طبقات الناس على تباين تفكيرهم ومهنهم وسنهم . وكان في طليعة الجميع الامبراطور قسطنطين البيزنطي وأمه الملكة هيلانه ، الذين اشادوا في سنة ٣٢٦ أول وابهى كنيسة في العالم في ذلك الحين الا وهي كنيسة المهد فى بيت لحم .

وكانت بيت لحم في عصر الرومان مدينة بسيطة محاطة بسور حجري حصين فوق هضبة صغيرة مرتفعة وحولها أودية سحيقة ، وكان قائما فوق السور برجان للحراسة والمراقبة ، واحد من الجهة الشرقية والاخر من الجهة الغربية ، وأول خراب لحق بأسوار بيت لحم وكنيستها كان في زمن ثورة السامريين المعروفة سنة ٥٣٩ بعد الميلاد . وبعدها قام الامبراطور الروماني جوستنيان « الذي حكم من سنة ٥٥٧ — ٥٦٥ م » ، قام هذا الامبراطور بمحاربة السامريين وبطش بهم واحتل فلسطين ثانية وضمها الى امبراطوريته .

وأول عمل قام به هذا الامبراطور بعد انتصاراته الساحقة على السامريين كان اعادة بناء كنيسة المهد ثانية فوق الكنيسة المهدمة بشكل أوسع وأفخم من سابقتها ، وهي الكنيسة التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا ولذلك يسميها بعض المؤرخين كنيسة جوستنيان ثم اعاد بناء السور حول بيت لحم بشكل اقوى واعلى من السابق وحصنه .

وفي سنة ٦١٤ كانت غزوة الفرس لفلسطين فدمروا الكنائس والمعابد ولما وصلوا الى كنيسة المهد وباشروا بتدميرها وقع نظر قائدهم على صورة كبيرة منقوشة بالفسيفساء على جدار الكنيسة تمثل المجوس الثلاثة وهم يقدمون هداياهم الى الطفل يسوع . فاستغرب القائد وجود مثل هذه النقوش في هذا المكان لمجوسهم الذين لهم فى قلوب ابناء فارس منزلة مقدسة . فأمر بايقاف الهدم واحترام المكان معتقدا أن لمجوسهم صلة مقدسة بهذه الكنيسة . ولكنهم اكتفوا بنهب الاواني والستائر الذهبية وكل شيء ذات قيمة . ولم يذكر أحد من المؤرخين والزوار عن مكان صورة المجوس هذه ، وان اكدها الكثيرون من الزوار والحجاج في مذكراتهم في ذلك الحين وبعده .

ثم كان احتلال الرومان ثانية لفلسطين فعمروا ما تهدم من الكنائس واصلحوا ورمموا التلف الذي لحق بكنيسة المهد حتى جاءت الفتوحات العربية وخرج الرومان من فلسطين واصبحت بيت لحم تابعة للحكم العربي .

ولما اتم الخليفة عمر بن الخطاب استلام القدس حضر الى بيت لحم لزيارة مكان ولادة سيدنا عيسى عليه السلام ، فزار كنيسة المهد وصلى داخلها في الحنية القبلية « الجنوبية » وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء ، فكتب عمر للبطريرك براءة أن لا يصلي في هذا الموضع من المسلمين الا رجل واحد بعد

واحد ، ولا يجمع فيه الصلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير فيه شيئا . ولكن بعد عصر خالف ولاة الامور براءة عمر بن الخطاب فخلعوا الفسيفساء وكتبوا فيها ما شاءوا .

وتوالى على المنطقة العهد الاموي « ٦٤١ م — ٧٥٠ م » وثم العهد العباسي « ٧٥٠ م — ٩٦٩ م » وثم العهد الفاطمي « ٩٦٩ — ١٠٩٩ م » حتى احتل الصليبيون بيت لحم في سنة « ١٠٩٩ — ١١٧٨ م » ودامت تحت حكمهم حوالي ٩٠ سنة .

ثم جاء دور الدويلات العربية المختلفة حتى احتلها الاتراك العثمانيون من سنة « ١٥١٧ — ١٩١٧ م » واحتلها ابراهيم باشا من عام « ١٨٣١ — ١٨٤١ » ثم عاد واحتلها العثمانيون حتى أواخر سنة ١٩١٧ م .

وجاء الانتداب البريطاني بعدهم حتى نهاية ١٩٤٨ فالحقت بالمملكة الاردنية الهاشمية . ثم في ٥—٦—١٩٦٧ أصبحت من ضمن الاراضي المدارة من قبل جيش اسرائيل حتى يومنا هذا .

نرى من مختلف الادوار التي مرت على بيت لحم وجوب التحدث عن كل دور في فصل منفصل لنتقدم عنه مفصلا قدر الامكان وقدر ما استطعنا من التوصل اليه من الاخبار والحوادث ، ليطلع عليها الجيل الناشىء من أبناء وطني . وبما أن بيت لحم قريبة من القدس ، فان ما مر على القدس من حوادث وحروب شمل بيت لحم ايضا .

ليس عملي هذا اكثر من منقب عن الاثار ، ولكن ليس في الارض وبقايا العمران ، بل باحثا منقبا عن الاثار في بطون الكتب والسجلات ، املا ان يتابع هذه الطريق الكثيرون من أبناء بلدي . وخصوصا الجيل الصاعد والجيل المثقف والله ولي التدبير .

وختاما أشكر كل من قدم لي اي مساعدة او معلومات او أعارني بعض الكتب . كذلك اشكر كل من بخل علي ببعض المعلومات او الكتب التي كانت لديه وانكرها وتهرب من طريقي ، ومعظمهم اصحاب اطلاع واسع ولكنهم يريدون كل شيء لهم ، وكأنهم خالدون على هذه الارض ، وان كان الكثيرون منهم قد انتقلوا الى رحمته تعالى قبل طباعة هذا الكتاب رحمهم الله .

هذا ولا يسعني في الختام الا ان اذكر القراء الاعزاء ، انني ما اتيت في كتابي هذا بشيء من عندي ، وان كل ما فيه اما سمعته من روايات جداتنا وأجدادنا من السلف الصالح ، طيب الله ثراهم واسكنهم فسيح جناته ، او قرأته في مختلف الكتب التي تيسرت لدي من مختلف المصادر والمكتبات .

فاذا كنت قد وفقت في عملي هذا فانه كان هذا ما ابغيه ، خدمة لابناء بلدي والجيل الصاعد ، أملا أن يتابع هذا الطريق من استطاع اليه سبيلا ، لتتم المعرفة وتعم الجميع ، فان كل حجر وكل شبر في بلدنا هذا له تاريخ مجيد ...

والحمد لله رب العالمين على ما وفقنا اليه ...

الفصل الاول

بيت لحم قبل الميلاد

ان اصدق تاريخ عن بيت لحم قبل الميلاد هو ما جاء في العهد القديم من التوراة ، ثم جاء ذكره في العهد الجديد فحدثنا باختصار عن بيت لحم منذ القدم حتى تاريخ ولادة المسيح عليه السلام ، اي حتى مطلع القرن الاول الميلادي . ثم جاء ذكر بيت لحم في أقوال ومذكرات الرحالة والحجاج الذين زاروها او اقاموا حولها في صومعات متنسكين متعبدين ، وهي كثيرة جدا تجدها مبعثرة هنا وهناك فى مختلف الكتب بشتى اللغات .

في حوالي الفي سنة قبل الميلاد كانت فلسطين مسكن الكنعانيين ، وقد اقاموا مكان عبادة على راس تلة في المكان الذي فيه مغارة المهد حاليا ، يقدمون فيه الذبائح قرابين لالهتهم ، وأطلقوا على هذا المكان بيت أيلي لحاما ، أي بيت الاله لحاما .

وكلمة ايلي جاء ذكرها في انجيل متى (٢٧:٤٥-٤٦) بمعنى الهي : « ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على الارض الى الساعة التاسعة . ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا ايلي ايلي لما شبقتني ، أي الهي الهي لماذا تركتني » .

وهكذا سمي هذا المكان بيت ايلي لحاما ، اي بيت الاله لحاما ، ثم عرف باسم بيت لحم وبقي مقدسا ومكرما لدى الشعوب على ممر الزمان منذ عهد الوثنيين حتى ظهور الديانة المسيحية . ودعيت بيت لحم أيضا باسم افراتا وهي كلمة كلدانية معناها الخصبة بسبب خصوبة ارضها ووفرة الزراعة والفاكهة فيها .

وبنى الكنعانيون في الجليل هيكلا اخر للاله ايلي لحاما على بعد احد عشر كيلومترا الى الشمال الغربي من مدينة الناصرة ، عرف باسم بيت لحم الناصرة وجاء ذكر هذا المكان فى العهد القديم (يشوع ١٩:١٥) و « قضاة ١٢:٨ » وعرفت باسم بيت لحم الجليل وبيت لحم الجنوبية باسم بيت لحم اليهودية ، ومنذ ظهور داود عرفت بيت لحم الجنوبية باسم مدينة داود وفاقت شهرتها بيت لحم الشمال في الجليل .

وبمرور الزمان دخلت فلسطين عدة قبائل بدوية رحالة طلبا للماء والكلا جاءت من الجزيرة العربية ومن ما بين النهرين في العراق ومن بلاد مصر في الجنوب وكان الاتصال يتم بواسطة البر حيث كانت قناة السويس لم تحفر في حينه بل حفرت قبل

قرنين من الزمن تقريبا . واخذت هـذه القبائل الوافدة الى فلسطين تطلب العيش والعمل والخدمة عند السكان الاصليين الذين تقدمت حضارتهم وزراعتهم . فاختلطوا بأهل البلاد وتزاوجوا معهم اي اعطوا بناتهم لبنيهم واخذوا من بناتهم ، ومع مرور الايام شاركوهم فى كل شيء حتى في عبادة الالهة والاصنام .

وكانت مدن الكنعانيين ذات حضارة قديمة قد نشأت منذ اكثر من الف سنـة . ومساكن متقنة حوت الكثير من اسبـاب الراحة ، وحكومة وصناعة وتجارة وثقافة فلما امتزجت القبائل العبرانية بأهل البلاد ترك معظمهم سكنى الخيام وبنوا لهـم البيوت مثل بيوت اهل البلاد . وخلعـوا عنهم الثياب التي كانت بدائية ومن الجلود واستبدلوها بالثياب الكنعانية المصنوعـة من خيوط الصوف . ومع كل ما تقـدم بقيت حياة البداوة منتشرة خارج المـدن وفوق الجبال والسهول ، فكان الرعـاة قائمين على رعاية مواشيهم يتنقلون بها من مكان لاخر طلبا للماء والعشب .

بيـت لحـم في التـوراة

وجاء ذكر بيت لحم في العهد القديم (سفر التكوين ١٩:٣٥ ـ ٢٠)
« ماتت راحيل ودفنت في طريق افراته التي هي بيت لحم ، فنصب يعقوب عمودا على قبرها وهو عمود قبر راحيل الى اليوم » .

وجاء ذكرها ايضا (ميخا ٣:٢:٥) « اما انت يا بيت لحم افراتـة وانـت صغيرة أن تكوني بين الوف يهوذا فمنـك يخرج لي الذي يكون متسلطا على أسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الازل » .

كذلك جاء ذكر بيت لحم فى العهـد القديم (راعوث الاصحاح ١١:٤ ـ ١٢)
« فقال جميع الشعب الذين في البـاب والشيوخ نحن شهود . فليجعل الـرب المراة الداخلة الى بيتك مثل راحيل وليئه بنتي بيت اسرائيل فاصنع ببأس في افراتا وكن ذا اسم في بيت لحم ، وليكن بيتـك كبيت فارص الذي ولدته تامار ليهـوذا من النسل الذي يعطيك الرب من هـذه الفتـاة » .

كذلك تذكر التوراة (صموئيل الاول ١٠:١٦ ـ ١٣) .
« وعبر يسى بنيه السبعة أمام صموئيـل فقال صموئيل ليسى الرب لم يختر هؤلاء وقال صموئيل ليسى هل كملوا الغلمان . فقال بقي بعد الصغير وهوذا يرعى الغنم فقال صموئيل ليسى ارسل وات به لاننـا لا نجلس حتى يأتي الى هنا ، فارسل واتى به . وكان اشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر . فقال الرب قم امسحه لان هـذا هو . اخذ صموئيل قرن الدهن ومسحـه في وسط اخوته . وحل روح الرب علـى داود من ذلك فصاعدا ثم قام صموئيـل وذهب الى الرامـة » .

كذلك يعتقد الكثيرون من قدامـى رجال الدين ان الملـك داود استوحـى المزامير المعروفة باسم مزامير داود وهو يرعى غنمه فى الجبال المحيطة في بيت لحم متاثرا بجمال الطبيعة التي حوله .

وجاء في العهد القديم (قضاة ٢ : ١١ — ٢٣) ما يلي :

« وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب اله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر . وساروا وراء الهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها واغاظوا الرب . تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث فحمي غضب الرب على اسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد اعدائهم حولهم ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام اعدائهم . حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر كما تكلم الرب وكما اقسم الرب لهم فضاق بهم الامر جدا وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم ولقضاتهم ايضا لم يسمعوا بل زنوا وراء الهة اخرى وسجدوا لها حادوا سريعا عن الطريق التي سار بها اباؤهم لسمع وصايا الرب . لم يفعلوا هكذا . وحينما أقام الرب لهم قضاة كان الرب مع القاضي وخلصهم من يد اعدائهم كل ايام القاضي لان الرب ندم من اجل أنينهم بسبب مضايقيهم وزاحميهم ، وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء الهة اخرى ليعبدوها ويسجدوا لها .

لم يكفوا عن افعالهم وطريقهم القاسية . فحمي غضب الرب على اسرائيل وقال من أجل هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي أوصيت به اباؤهم ولم يسمعوا لصوتي فأنا ايضا لا اعود أطرد انسانا من أمامهم من الامم الذين تركهم يشوع عند موته ، لكي امتحن بهم اسرائيل أيحفظون طريق الرب ليسلكوا بها كما حفظها اباؤهم أم لا . فترك الرب اولئك الامم ولم يطردهم سريعا ولم يدفعهم بيد يشوع » .

وجاء في العهد القديم (قضاة ٣ : ٥ — ٨)

« فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . واتخذوا بناتهم لانفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا البعليم والسواري . فحمي غضب الرب على اسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك ارام النهرين . فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين . وصرخ بنو اسرائيل الى الرب فأقام الرب مخلصا لبني اسرائيل فخلصهم عثنيئيل بن قناز أخو كالب الاصغر . فكان عليه روح الرب وقضى لاسرائيل وخرج للحرب فدفع الرب ليده كوشان رشعتايم ملك ارام واعتزت يده على كوشان رشعتايم . واستراحت الارض اربعين ومات عثنيئيل بن قناز » .

ولما استقر الامر بهذه القبائل الغازية وقويت شوكتها أخذت تهاجم أهل البلاد الاصليين وبقيت الحروب بينهم سنوات طويلة حتى أبادوا السكان الاصليين وسيطروا على البلاد واشتدت الحروب من سنة ١٠٠٥ — ٩٦٥ ق.م وكان على رأس المحاربين داود بن يسى البيتلحمي .

وبقي الملك داود ومن خلفه في حروب مستمرة مع الفلسطينيين فاستعادوا معظم

البلاد وقتلوا أول ملك لليهود شاول مع أولاده ، كما هزموا داود واتباعه من بيت لحم فاختبأ في الجبال .

وتذكر التوراة (صموئيل الثاني ٢٣: ١٤ — ١٧)
« ونزل الثلاثة من الثلاثين رئيسا واتوا في الحصاد الى داود الى مغارة عدلام وجيش الفلسطينيين نازل في وادي الرفائيين . وكان داود حينئذ في الحصن وحفظه الفلسطينيون حينئذ في بيت لحم فتأوه داود وقال من يسقيني ماء من بئر بيت لحم التي عند الباب ، وحملوه واتوا به الى داود فلم يشأ أن يشربه بل سكبه للرب وقال حاشا لي يا رب أن افعل ذلك . هذا دم الرجال الذين خاطروا بانفسهم . فلم يشأ أن يشربه . هذا ما فعله الثلاثة الابطال » .

وبئر بيت لحم التي يتحدث عنها داود هي المعروفة بيومنا هذا بأبار النبي داود مكان العمل الكاثوليكي حاليا . كذلك يستفاد من هذه الاقوال انه كان لبيت لحم أسوار تحيط بها شأنها شأن المدن في ذلك الحين ، لحماية السكان من الغزاة .

سليمان الحكيم

وتفيد التوراة (الملوك الاول الاصحاح الاول) ان الملك داود شاخ وتقدم في الايام وكانوا يدفئونه بالثياب فلم يدفأ . فاستدعى الملك داود رئيس الكهنة وطلب اليه ان يمسح ابنه سليمان ملكا ليحكم محله . فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن ومسح سليمان بن داود ملكا وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان .

ويفيد الاصحاح الثاني : « ولما قربت ايام وفاة داود أوصى ابنه سليمان قائلا : انا ذاهب في طريق الارض كلها فتشدد وكن رجلا . احفظ شعائر الرب الهك اذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه واحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى » .

والاصحاح الثالث يفيد أن سليمان صاهر فرعون ملك مصر ، وتزوج بنت فرعون واتى بها الى مدينة داود ، اي بيت لحم الى ان اكمل بناء بيته وبيت الرب « هيكل سليمان » وسور اورشليم حواليها وكان هذا السور قد باشر ببنائه ابوه الملك داود .

ويفيد الاصحاح الثالث ان تراءى الله لسليمان في الحلم ليلا ، وسأله ماذا اعطيك يا سليمان ، فاجاب اعط عبدك قلبا فهيما لاحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر ، فحسن هذا الكلام في عيني الرب ومنحه حكمة وافرة تجلت في سائر ايام ملكه ، وهكذا سماه المؤرخون بسليمان الحكيم .

وكان حيرام ملك صور الفينيقي على روابط وثيقة بالملك داود ، فلما علم أن ابنه سليمان مسح ملكا ارسل رسله مهنئين ، فانتهز سليمان هذه الفرصة

وطلب من ملك صور أن يمده بأخشاب الارز من لبنان وعمال مهرة ليساعدوه على بناء الهيكل في القدس ، فلبى طلبه .

ويفيد الاصحاح العاشر : ان بلقيس ملكة سبأ فى اليمن سمعت بحكمة الملك سليمان ، فرغبت أن تذهب اليه لتشاهد كل شيء بنفسها ، فأتت الى أورشليم بموكب عظيم جدا وبجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا هدية للملك سليمان فلما حضرت وعاينت ما سمعت عنه اندهشت كثيرا .

وجاء في الاصحاح الحادي عشر : وكانت الايام التي ملك فيها سليمان في أورشليم على كل اسرائيل اربعين سنة ثم توفي سليمان ودفن في مدينة داود ابيه وملك رعنان ابنه عوضا عنه .

وهكذا بنى الملك سليمان هيكلا فى القدس وأقام القصور في كل مكان ، وبنى برك سليمان قرب بيت لحم وأقام الجنائن الوراقة حولها امتدادا الى ارطاس والاودية التي بعدها الى الشرق حتى مدينة بيت لحم . وهذه الجنائن حافظ عليها من خلفه من الملوك والمحتلين مدة تسعة قرون وأكثر حتى أيام الملك هيرودس الذي ولد فى عهده السيد المسيح عليه السلام .

وخلف الملك سليمان ابنه رحبسام فكان مثل ابيه مولعا بالعمران فحصن المدن وبنى القلاع وقوى الجيش وأقام أماكن لخزن الغلال والمؤن في كل مدينة حتى تكفي نفسها بنفسها في زمن الحرب والسلم . وهذا يعكس مدى ذكاء وحكمة وبعد نظر هذا الحاكم .

وذكرت التوراة عن الملك رحبسام ما يلي (اخبار الايام الثاني ١١:٥ــ١٤)
« وأقام رحبام فى أورشليم وبنى مدنا للحصار في يهوذا . فبنى بيت لحم وعياطم وتقوع وبيت صور وسوكو وعدلام وجت ومريشة وزيف وادورايم ولخيش وعزيقة وصرعة وأيلون وحبرون التي في يهوذا وبنيامين مدنا حصينة . وشدد الحصون وجعل فيها قوادا وخزائن مأكل وزيت وخمر . وأتراسا في كل مدينة ورماحا وشددها كثيرا جدا وكان له يهوذا وبنيامين . والكهنة واللاويون الذين في كل اسرائيل مثلوا بين يديه من جميع تخومهم . لان اللاويين تركوا مسارحهم وأملاكهم وانطلقوا الى يهوذا وأورشليم لان يربعام وبنيه رفضوهم من أن يكهنوا للرب » .

ثم انحلت قوة المملكة اليهودية بعد رحبام شيئا فشيئا . ثم استولى عليها شيشاك ملك مصر في القرن الثامن قبل الميلاد ، وبقوا فى البلاد حتى منتصف القرن السابع قبل الميلاد .

وفي سنة ٧٣٢ ق.م احتل الاشوريون بقيادة ملكهم شلمنصر ، مملكة اسرائيل في الشمال ودمروا واحرقوا العاصمة السامرية « نابلس اليوم » وأسر السكان الى اشور في العراق ، واحضرت الى البلاد قبائل جديدة من بلاده لتسكن مملكة

اسرائيل وتستفيد من خيراتها . ثم جاءت موجة استعمارية جديدة من بابل بقيادة نبوخذ نصر فاحتل البلاد من الاشوريين واخرجهم منها في سنة ٥٩٩ ق.م . فنهب الاشوريون القدس ودكوا اسوارها ودمروا الهيكل الذي بناه الملك سليمان . وقتلوا من سكان القدس من قتلوا ، واستعبدوا من سلم وسبوهم الى بابل .

وكان يهوياكن ملكا على اليهود فلم يستطيع الوقوف في وجه نبوخذ نصر رغم المعونة من ملك مصر . فاكتسح نبوخذنصر البلاد واستولى على القدس في سنة ٥٩٩ ق.م. فأسر يهوياكن ونفاه مع علية القوم وشيوخهم الى بابل . وهكذا اصبحت بيت لحم محتلة من قبل جيوش نبوخذ نصر وتابعة لحكمه .

ونصب صدقيا بن يوشيا ، احد اقارب الملك يهوياكن ملكا على القدس وحولها ، تابعا الى بابل ، ولكن هذا الملك ما لبث أن نكث بالعهد وأعلن الثورة والعصيان على بابل بمساعدة ملك مصر واستطاع أن يبقى في عصيانه هذا تسع سنوات فجهزت بابل حملة قوية وجاءت في سنة ٥٩٠ ق.م الى القدس فحاصرت اسوارها مدة عام ونصف ودكتها واشعلت النيران في سائر المدينة بعد نهبها وقتل من صادفهم من سكانها واسر الملك المتمرد مع من بقي من السكان ، ولم يتركوا في المدينة الا كل عاجز ومريض ودمر هيكل سليمان وحرقه حتى اخره فكان ذلك في سنة ٥٨٦ ق.م. وقضى على مملكة يهودا باكملها .

وفي سنة ٥٣٨ ق.م زحفت جيوش الفرس من الشرق في زمن الملك كورش واستولت على بابل واشور واتجهت غربا فاحتلت سوريا وما حولها وفي سنة ٥٣٨ ق.م احتلت القدس . انتهز اليهود المسبيون هذه الفرصة فتوددوا الى الملك المنتصر كورش ، فتزوج من حسناء يهودية كانت في الاسر هي شقيقة زربابل بن شلائيل بن يهوياكن بن يهوياقيم ملك يهوذا . وبعد شهور قليلة توددت هذه الحسناء الى زوجها فطلبت منه السماح لقومها بالعودة لمدينة القدس فاجاب طلبها وعاد المسبيون الى بلادهم . وعادت الحياة الى مملكة يهوذا لكن بشكل مصغر اذ ضم الادوميون مدينة حبرون « الخليل حاليا » والجنوب الى مملكتهم كما انسلخ عن مملكتهم كل ما هو خارج حدود اليهودية . وكان العهد الفارسي عهد راحة ورخاء وحرية لليهود ، وعادوا يحكمون انفسهم بانفسهم من قبل رئيس كهنة ومجلس استشاري . وفي سني ٥٢٠ — ٥١٥ ق.م. اعادوا بناء الهيكل بتأثير الانبياء حجي وزكريا .

استمر حكم الفرس أكثر من قرنين في بلادنا حتى قام اسكندر المقدوني الملقب بالاسكندر ذي القرنين في سنة ٣٦٥ ق.م. فاجتاح سوريا ودحر الفرس ثم اتجه جنوبا فأخذ سوريا وفلسطين ومصر ثم عاد الى الشرق لتصفية ما تبقى

من جيوش فارس فدحرهم نهائيا حتى أوصلهم بلادهم وباحتلاله هذه الاقطار غير مجرى حياتها فأعطاها الدين والطابع الهيليني لعدة قرون .

ودخل الاسكندر القدس بدون مقاومة ، خلال عودته من مصر ، اذ خرج سكانها اليهود يتقدمهم الكهنة والشيوخ بحلل بيضاء يستقبلونه خارج القدس متضرعين اليه وطالبين العفو والرحمة ، فمنحهم الحرية واعفاهم من الجزية وسمح لهم بحكم ذاتي . وهكذا بسط الاسكندر سلطانه على مصر وفلسطين وسوريا فكانت بيت لحم مدينة داود ، تحت حكمه أكثر من قرن .

في سنة ٣٢٣ ق.م. مات الاسكندر فقسمت مملكته بين قائديه فكانت مصر وفلسطين تحت حكم بطليموس فانتهز اليهود هذه الفرصة وتمردوا عليه فدخل القدس وفرض عليها جزية باهظة وفرض قيودا ثقيلة على سكانها . وأما سوريا فكانت من نصيب قائده سلوقس .

في سنة ١٦٨ ق.م. قام انطوخيوس ابيفانوس حاكم سوريا السلوقي ، فأعلن الحرب على البطالسة وتغلب عليهم وخضعت سوريا وفلسطين لحكمه . وعرف انتيخوس بقساوته مع رعاياه فمنع اليهود من تقديس السبت واقامة شعائرهم الدينية الاخرى ونهب الاموال والغنائم من الهيكل وباقي المقدسات وحرق كتبهم الدينية ، وفرض عقاب الموت عن كل من يخالف أوامره . وأخذ منهم اكثر من مائة الف أسير الى مصر ، ثم عاد فلان في معاملتهم واستخدمهم في أعمال الحراسة والزراعة .

لم يكتف هذا الحاكم بما فرضه من عقوبات شديدة على سكان القدس ، فبنى هيكلا لزيوس اوليمبيوس مكان هيكل القدس ، واخر لزيوس كسينيوس في جبل جرزيم . وأجبر اليهود على عبادة الهته الوثنية فيها .

مما تقدم يتبين القارىء شدة وظلامة هذا الحاكم المتجبر ، فقام من بين اليهود من ثار على حكمه وبقيت الحرب عدة سنوات وجاء ذكر الكثير من هذه الحروب في التوراة . ثم قام من بين اليهود من قاوم اليونانيين ، ومن اشهرهم رجل من أصل بيت كاهن يدعى هشمون . ولما مات هشمون خلفه ابنه يهوذا الذي عرف بتعصبه وعناده حتى لقب بالمكابي اي المطرقة . وبقيت الحروب بينه وبين اليونانيين سجالا حتى قتل في سنة ١٦٠ ق.م. وخلفه ابناؤه ولكنهم تخاصموا فيما بينهم ، مما شجع القائد الروماني بومبي الذي كان في سوريا انذاك فاحتل فلسطين سنة ٦٣ ق.م. وهكذا اصبحت القدس وبيت لحم راضخة لحكم الرومان حتى احتلها الفرس سنة ٦١٤ م .

موقـــع مدينـــة بيت لحـــم

تقع مدينة بيت لحم فوق هضبتيـــن من سلسلة جبال يهودا التي تفصل بـــين البحر الابيض المتوسط من الغرب والبحر الميت او بحر لوط من الشرق ، على شكل حصن مرتفع شاهق على ارتفـــاع ٧٥٠مترا عن سطح البحر الابيض المتوسط .

وحاليا تقع المدينة فوق هضبتين تمتد الاولى في ارتفاع تدريجي من الشرق الـــى الغرب وعلى هذه الهضبة تقع المدينـــة القديمـــة وكنيســـة المهـــد . والهضبـــة الثانية تمتد من الشمال الى الجنوب فـــي تقاطع مع الهضبة الاولى ، من جهة الغرب وعلى الهضبة الثانية اقيمت بيت لحـــم الجديدة التي انشئت تدريجيا في مطلـــع القرن العشرين عندما باشر ابناء بيت لحم العائدون من المهجر باقامة بيوت سكـــن حديثة وواسعة لسكناهم مبتعدين تدريجيا عن المدينة القديمـــة .

وتنحدر هذه الهضاب تدريجيا الـــى الشرق حتى تصل الى البحر الميت الـــذي يعتبر اعمق منخفض عن سطح البحـــــر في الكرة الارضية ، حيث ينخفض الى عمق ٣٩٢ مترا عن سطح البحر . وكانـــت هذه المنحدرات الشرقية الواقعة بـــين بيت لحم والبحر الميت ملكا لاهالي بيت لحم لاجيال واجيال حتى مطلع القرن الحالي ، ولا يزال معظمها يحمل اســـماء عائـــلات من بيت لحم . فكانوا يزرعونها بمختلـــف اشـــجار الكرمـــة والفاكهـــة والحبـــوب والخضروات لما عرف عن المـــــزارع البيتلحمي من الجد والنشاط والهمـــــة الكبيرة منذ قديم الزمان حتى يومنا هذا .

وقد جاء في مختلف كتب الرحالـــــة الذين زاروا هذه المنطقة قادمين من اقطار الغرب والشرق ومن أوروبا في القـــرون السالفـــة ، الوصف الكثير عن نشـــاط البيتلحمي وكرمه ودماثة اخلاقه المزوجة بالبساطة وطيبة القلب وسلامة النيـــة . وذكروا أيضا أن هذه الجبال كانت عامرة بالكنائس وصوامع الرهبـــان والنســـاك وخصوصا كنيسة تقوع جنوبي الفرديســـ ولكن الحروب المتلاحقة على ممر القرون الماضية قضت على هـــذه الكنائســـــ والصوامع ، ولم يبق منها في يومنا هذا الا القليل مثل دير ابن عبيد وديري مار سابا البعيد والقريب ، رغم ما لحق بها مـــن سلب ونهب وتدمير .

يحيط بالمدينة من كل جوانبها تـــلال واودية مكسوة بأشجار الفاكهة علـــى انواعها ، وتغلب على الجميع في عددهـــا اشجار الزيتون منذ عهد ما قبل ميـــلاد السيد المسيح ، ثم تليها كروم العنـــب والتين واللوز والرمان والمشمش . وأمـــا من جهة الشرق والجنوب كلما ابتعـــــدت عن بيت لحم تواجهك اراضي صحراويـــة قاحلة حتى البحر الميت وجبال مؤاب من خلفـــــه .

وكلما ابتعد المرء عن بيت لحـــم الى الشرق تقل الارض خصوبة ويواجه منطقة تكاد تكون جدباء فاعتاد الاهالـــي منذ القدم أن يسموها البرية حتى شاطىء البحر الميت فى الشرق . فمدينة بيت لحم تقع الى الجنوب بعيدا عن منطقة الجليل الخصبة ، وقريبة نوعا ما من منطقـــة السامرة الخضراء ، ولكنها ليست في وسط الصحراء او البريـــة .

تشاهد بيت لحم من جميع الجهات قبل الوصول اليها ببضعة كيلومترات على شكل حصن كبير فوق مرتفع شاهـــق وتبدو للناظر بيوتها الحجرية المتراصة ، فبعضها وردي اللون وأخـــرى بيضـــاء وبعضها مبني بشكل هندسي جميـــل من الحجرين الوردي والابيض . ويعلـــو من بين هذه البيوت عدة ابراج يحمل كل منها اجراس كنيسة ومأذنة جامع عمر بن الخطاب الواقع امام كنيسة المهد تدعـــو المؤمنين بالله مراراً كـــل يوم للصـــلاة لتسبيح وتمجيد الخالق عز وجل .

فعندما تزور بيت لحم اليوم تـــرى مدينة صغيرة نسبيا ، كما هو حال معظم المدن المقدسة في العالم ، والقسم القديم من المدينة بدون اي تغيير يذكر ، تقريبـــا كما كان حالها في عهد ميلاد السيد المسيح قبل عشرين قرنا من الزمن . ومع انهـــا تظهر بهيئتها القديمة الا ان بيت لحـــم تطورت مع مرور الزمن بالفن والصناعة والثقافة ، مستعملين الالات الحديثة لتقديم وتطوير حياة سكانها بدون المساس بهيئتها القديمة . فالخبز والماء ورائحة الجـــو المعطرة بروائح الفواكـــه والزهـــور في البساتين والحقول المحيطة بالمدينة ، وحتى لباس المزارعين المحليين جميعها لا تكـــاد تختلف كثيرا عن حالتها فى عهد المسيـــح والرســـل .

وقد ذاقت مدينة بيت لحم الكثير من الامجاد والمتاعب على السواء منذ عهـــد الملك داود أي قبل الميلاد بألف عام وحتى يومنا هذا ، فقد احتلت مرارا وقاســـت كثيرا على أيدي حكام عديمي الشفقـــة والرحمة ، فكانت على الدوام مطمـــع الكثيرين من الحكام والغزاة على مـــر الدهور فهدمت مرارا واعيد بناؤها في كل مرة واعيدت اليها الحياة ، وقتل سكانها وشردوا مرارا ، فكانوا في كل مرة يعودون الى مدينتهم ويعيدون تعميرها وتطويرهـــا ثانيـــة .

ان القادم لزيارة مدينة بيت لحم في هذه الايام يرى أمامه مكانـــا فريـــدا في العالم ، يقدسه الاف الملايين من سكـــان المعمورة من أصحاب الديانات السماوية ، فمجرد ذكر اسمها تقترن بالقداسة ولكنها على كل حال هي مدينة مسكونة وقطعـــة طبيعية من الارض ، تجمع بين المشاعـــر السماوية والدنيوية بكل توافق ووئـــام . ومع كل ما تقدم فان السكان فى مدينـــة بيت لحم وما حولها يمارسون حياتهـــم اليومية بكل هدوء وتواضع ، وكأن منطقتهم ليست من أقدس بقاع العالم فيلمـــس الزائر والسائح جوا بديعا من الصفاء لاينساه مدى حياتـــه .

وفي طرف المدينة الشرقي تقـــوم كنيسة المهد حيث يحتفل فيها في كل عـــام

عند حلول عيد الميلاد باقامة قداس منتصف الليل على اعتبار ان ميلاد السيد المسيح كان في مثل هذه الساعة ، يحضره السياح والزوار والحجاج الوافدون لزيارة بيت لحم من شتى انحاء المعمورة . ففي النصف الاخير من شهر كانون اول « ديسمبر » من كل عام تظهر بيت لحم صغيرة في كل كنيسة وكل بيت عائلة مسيحية فى سائر انحاء العالم ، عبارة عن شكل مغارة وبداخلها العائلة المقدسة والطفل يسوع مضطجعا فى مذود وحوله مريم وماريوسف والرعاة واغنامهم ، والمجوس الثلاثة ساجدين للطفل ويقدمون له هداياهم أي صورة الميلاد كما جاء ذكرها في الانجيل .

شروق الشمس على بيت لحم

فاذا وقف المرء في بيت لحم في الصباح الباكر وأدار وجهه الى الشرق الى الافق خلف البحر الميت يشاهد جبال مؤاب تتالق باللون الارجواني تبزغ من خلفها شمس الصباح . وما أروعه من منظر خلاب يبهج النفس ويسر الخاطر كثيرا ، فنشاهد قرص الشمس وهو يرتفع تدريجيا من خلف هذه الجبال . فهذا الربع الاعلى من قرص الشمس قدبزغ يرتفع تدريجيا حتى يصل النصف ، ثم يستمر بالارتفاع حتى تظهر ثلاثة ارباعه ، ثم يرتفع قليلا قليلا حتى يخيل للناظر أن قرص الشمس يستقر على رؤوس تلك الجبال . ثم يتركها صاعدا الى أعلى حتى يصل عند الظهر الى كبد السماء فيميل قليلا للجنوب ، وهنا كان الناس منذ القدم حتى منتصف القرن العشرين يعتبرون بداية ميلان قرص الشمس للجنوب بمثابة منتصف النهار او الظهر . فيتوقفون عن العمل في حقولهم او أعمالهم الاخرى ويجلسون لتناول طعام الغداء ويستريحون قليلا ثم يتابعون عملهم اليومي . ومنذ قرن صارت أجراس كنيسة المهد عندما تقرع ساعة الظهر يعتبرها الاهالي منتصف النهار وساعة حلول وجبة الغداء . وكانوا لما يسمعون أجراس الكنيسة الساعة ١٢ ظهرا يقولون دق الظهر اي منتصف النهار .

وحتى منتصف القرن العشرين كان سكان بيت لحم يتنبأون عن طقس الغد هل هو ماطرا او صحو ، وذلك بأن ينظروا قبل الغروب بساعة الى جبال مؤاب . فاذا كانت بادية صافية فالجو غدا صحو ، واذا كان عليها غباش او ضباب فالغد سيكون ماطرا . وكان تقديرهم هذا مصيبا مائة بالمائة ، فاذا كان الجو صافيا فالغد صالح للغسيل لربات البيوت وللذهاب الى الكروم لحراثتها والعناية بها والعكس بالعكس .

نشاط المزارع البيتلحمي

والاراضي المحيطة ببيت لحم خصبة جدا اصلحها الاجداد وغرسوها باشجار الزيتون ومختلف أنواع الفاكهة كالعنب والتين والرمان واللوز والمشمش والتفاح والسفرجل وغيرها ، وقد أقاموا جدرانا خاصة لمنع انجراف التربة من المرتفعات فتحولت الجبال القاحلة الى مصاطب لزراعة الزيتون ومختلف أشجار الفاكهة والخضروات والحبوب كالقمح والشعير والعدس والحمص والفول وسائر الحبوب اللازمة لمعيشة السكان فتحولت الكروم الى مصدر رزق ومناطق اصطياف لاصحابها .

فهذه الاراضي المحيطة بالمدينة والمغروسة بمختلف أشجار الزيتون والفاكهة كانت مصدر خير وبركة لكل عائلة ، فيترك قسم من الكروم والبساتين لزراعة الخضروات الصيفية مثل الكوسا والبندورة ووالباذنجان والفلفل والبامية واللوبية وغيرها . وفى الشتاء تزرع بالبقول الشتوية مثل القرنبيط والملفوف والخس والسبانخ والفجل واللفت وغيرها . ومن كان لديه متسع من الارض يزرع الحبوب لمؤونة عائلته كالقمح والعدس والحمص والفول ومؤونة لدوابه وماشيته كالشعير والكرسنة والبرسيم والذرة وغيرها .

وفي الصيف لا يكاد يخلو محيط بئر الكرم من وجود شتلات من الفلفل الحلو والحار والباذنجان ونباتات اخرى كانت محببة للعائلة البيتلحمية مثل الريحان والبقدونس وحصالبات والزعتمانة . وفي الشتاء يجمع بعض الاعشاب والنباتات البرية وينشفها لتكون دواء العائلة اذا مرض أحد أفرادها ، وأهمها المريمية والجعدة والكمندرة والبابونج المعروف باسم القريعة ، ثم الزعتر لعمل الدقة منه كما هو معروف للجميع ، والذي كان يستعمل في الفطور والعصرونة ، يغمسه الجميع مع زيت الزيتون وبجانبها الزيتون الاخضر والاسود فى جرار لهذه الغاية فيعمل بعضه مدقوقا ويسمى رصيصا ،ويترك اخر على حاله ويسمى مجلسا ، وبعض العائلات تعمل من المجلس بعد أن تشرح كل حبة من الجانبين بالسكين وتكبسه في مرطبانات بالزيت ، وأما الزيتون الاسود فيسمونه مملحا .

وكانت نبتة الريحان محبوبة للجميع لطيب رائحتها فكانت تغرس في الكروم أمام العريش وحول البئر ، وتغرس في البيوت داخل قوارير الفخار او التنك وتوضع على حديد الشبابيك الذي كان يصنع بارزا ليتسع لهذه القوارير المغروسة بالريحان لتملأ أجواء البيت برائحتها العطرية . وقد بلغ حب البيتلحمي للريحان مبلغا حتى سمى الكثيرون بناتهم ريحانة للدلالة على جمال تلك الابنة وطيب اخلاقها ، وللاسف الشديد فانه بعد الخمسينات من هذا القرن

انعدمت هذه النباتات من البيوت ومـــن المنطقة ، ولم يعد من يسمي ابنته ريحانه كما لم يعد احد يسمي باسماء الجدات مثل نجمـــة ورحمـــة ووردة ونعمة وبركـــة وسلطانة وعفيفة وفكتوريا وغيرها مـــن الاسماء ، فقد مال معظمهم الى الاسمـــاء الغربية عن جهل وحب ظهور .

وقد عايشت الكثيرين من المعمرين والمعمرات من اهالي بيت لحم وكان مـــن يتوفى قبل ان يبلغ السبعين يقولون عنـــه مسكين لم يشبع من عمره ، ومن مـــات فوق الثمانين لا بأس عاش وشاف . ومن يعمر فوق المائة سنة يقول هذا ربه راض عليه « الله يرحمه ويطعمنا نعيش قده » فكثيرون شاهدوا أحفادهم وبعضهم حضر عرس ابناء أحفاده ، وبعضهم عاشـــ حتى جاوز سن ١٢٠ سنة وبعدهـــا وهو لا يزال بصفاء ذهني شديد ، فيذكر بكل دقة وتفصيل حوادث وقعت له فـــي سنين طفولته وصباه .

وقد كان البيتلحمي مغرما بأرضـــه وكرومه فكان يخرج في الصباح الى أرضه للعناية بها واعدادها للزراعة وتصليـــح ما تهدم من الجدران او تعلية بعضـــ الجدران لوقاية ارضه من سطو الماشية على الاشجار والمزروعات . فكثيرا مـــا كنت أرى في أيام الشتاء وانا ذاهب الـــى المدرسة ، أرى رجالا تجاوزوا الستـــين عاما واكثر ، وكل منهم يحمل فاســـــه على كتفه وزوادته تحت ابطه متوجها الى حقله ، ثم يلحق به بعض ابنائه وبناتـــه حاملين له معهم زاد الغداء ويساعدونـــه قدر الامكان في شؤون الحقل . فيقضـــي نهاره في حقله في الهواء الطلق ويعمـــل بجد من ساعات الصباح الباكر حتـــى غروب الشمس فيعود الى بيته في المدينة ممتلئا نشاطا وصحة . حتـــى في الايـــام الماطرة كان لا يتوانى عن الذهاب الـــى حقله للعمل فيه ، فاذا هطلت الامطـــار بغزارة التجأ الى المغارة التي لا يخلـــو منها حقل حتى ينقطع هطول الامطـــار فيعود لمزاولة عمله في حقله حتى تغـــرب الشمس فيعود الى بيته . اما الزوجـــة فتكون طوال النهار قد رعت بيتها بأحسن رعاية وعجنت الدقيق وعملت الخبز فـــي الطابون وغسلت ملابس اولادها وحضرت الطعـــام ، فيجلس الجميع سويـــــة يتناولون طعامهم ثم يجلسون مع بعضهم يتسامرون ، فتقص الام بعض القصص عن السلف ، ويقص الاب بدوره ما سمع من اجداده ، وينصح ابناءه بالتقوى والاعتماد على الله سبحانه وتعالـــى .

وكثير من العائلات ، يكون الاب له عدة ابناء يزوجهم الواحد تلو الاخر كلمـــا كبر وسمحت ظروف الاب المالية بتزويـــج ابنه ، ويسكنه مع العائلة في البيـــت . وهكذا تتكون عائلة واحدة كبيرة تتكون من عشرة الى عشرين نفرا يجلسون جميعا معا لتناول الطعـــام .

مثل هذه العائلات تكون الحماة اي الام ، هي محور النظام ، فتعطي لكل واحد من افراد العائلة الواجب المطلوب منـــه عمله ، ان كان الى زوجة الابن او الـــى

الابناء والبنات ، فيسير كل شيء فى وفاق ووئام ، والجميع سعيد وراض بما قسمه لهم من الارزاق ، والصغير يحترم الكبير والكبير يعطف بحنان على الصغير .

أما الجد والجدة فهم موضع احترام الجميع والكل من الاحفاد يسعى لخدمتهم ونيل رضاهم . وفي أيام الشتاء الماطـــرة يبقى الجميع في البيوت ، ويكون الجـــدان مصدر تسلية للجميع بما يسردونه على أهل البيت من سالف الحوادث والاخبار . فلم يكن في سالف الزمان جهـــاز راديـــو أو تلفزيون ، بل كان الجد والجدة يقوم كـــل منهم مقام هذه الالات فى وقتنا الحاضر .

أما الاحداث فقد توالت على بيت لحم منذ اقدم الازمنة حتى يومنا هذا ، كمـــا سنروي بعضها على الصفحات التالية ، محاولا بيان حسناتها وسيئاتها بقدر مـــا تيسر لي ذلك ليستفيد منها الجيل الصاعد فنطلب من آلله التوفيق ، ولجلاله جزيـــل الحمد والشكر على ما قدرنا عليه .

انتشار الاديرة والرهبنة في بيت لحم

وفي مطلع القرن الرابع بعد الميلاد امتلأت المنطقة المحيطة ببيت لحم بأديرة الرهبان والراهبات ، وخصوصا الى جهة الشرق من بيت لحم ، حيث عاش يوحنا المعمدان في البرية الواقعة الى الشرق من بيت لحم حتى شواطىء البحر الميت المعروف ببحيرة لوط . وبقيت الاديرة والصوامع تمتد عميقا فى هذه البرية حتى وصلت شواطىء البحر الميت والقسم الجنوبي من نهر الاردن ، حيث كان يوحنا المعمدان يعمد بالماء وكان يوحنا يقول للناس انا أعمدكم بالماء ولكن من سيجيء بعدي فيعمدكم بالروح القدس ويعني بـه السيد المسيح عليه السلام .

وفي صغري سمعت الكثير من اخبار هذه الاديرة والصوامع من كبار السن الجدات والاجداد . نقلا عما كان يحدثهم به أجدادهم وجداتهم . فقد كان أجدادنا دائما يقولون ان الصغار كتب الكبار ينقلون لابنائهم وأحفادهم أخبار اسلافهم . وقد كان معظم القوم أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، وكان الاجداد والجدات محدثين بارعين ينقلون لابنائهم واحفادهم في كل يوم وكل ليلة في مجالسهم اخبار السلف الطيبين ليقتدي بها الجيل الطالع . فكان الجدات والاجداد مصدر الوعي والفهم للجيل الناشىء ، يغرسون في نفوسهم حب القريب وعمل الخير وتقوى الله وحب الارض والنشاط والعمل والكفاح . اي كانوا مدرسة الاجيال الصاعدة ومدرسة الرجولة والثقة بالنفس وهكذا كان الولد او البنت في فهم وذكاء شديدين ناضجين ابعد بكثير من سنهم اي أن ابن الثامنة كان مستوى فهمه في مستوى فهم من هم اليوم فى سن العشرين وربما اكثر رغم انهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، بل كانوا شعلة من الذكاء الطبيعي وصفاء الذهن يرافقهم حتى سن الكهولة .

ويروي الاجداد نقلا عن اجدادهم ان عدد الكنائس التي كانت قائمة من القدس حتى مدينة الكرك كان على عدد أيام السنة اي ٣٦٥ كنيسة . ففي يوم سبت النور الذي يسبق احد الفصح عندما تقرع أجراس كنيسة القيامة في القدس معلنة ظهور النور وقيامة السيد المسيح من بين الاموات ، كانت تتناقل اصداءه هذه الاجراس ، أجراس كنيسة أم طوبى وكنيسة صور باهر ودير مار الياس فكنيسة المهد وكنيسة حقل الرعاة في بيت ساحور وكنيسة تقوع ومنها تتلقى البشرى أجراس الكنائس التي تليها حتى توصلها الى اجراس كنائس الكرك وما يحيط بها . فيحتفل الجميع بسبت النور ، فيسارع كل منهم الى اقرب كنيسة ليحتفل بحلول عيد الفصح ويقدم صلوات الشكر للباري عز وجل ونهار العيد يتزاور الاهل والاقارب فيخرج الابناء لمعايدة اجدادهم وجداتهم ووالديهم واخوانهم واخواتهم واعمامهم وعماتهم وباقي الاقرباء والاصدقاء والجيران .

الفصل الثاني

بيت لحم في الكتب السماوية

النبي زكريا

جاء ذكره في انجيل لوقا الاصحاح الاول (٥ — ٢٥) كما يلي : —

« كان في ايام هيرودوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة ابيا وامرأته من بنات هرون واسمها اليصابات ، وكاناكلاهما بارين امام الله سالكين فى جميع وصايا الرب واحكامه بلا لوم . ولم يكن لهما ولد اذ كانت اليصابات عاقرا وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما .

فبينما هو يكهن في نوبة فرقته امام الله حسب عادة الكهنوت اصابته القرعة ان يدخل الى هيكل الرب ويبخر ، وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور . فلما راه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لان طلبتك قد سمعت وامراتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا . ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته . لانه يكون عظيما امام الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب ومن بطن امه يمتلىء من الروح القدس ويرد كثيرين من بني اسرائيل الى الرب الههم . ويتقدم امامه بروح ايليا وقوته ليرد قلوب الاباء الى الابناء والعصاة الى فكر الابرار لكي يهيىء للرب شعبا مستعدا . فقال زكريا للملاك كيف اعلم هذا لاني انا شيخ وامراتي متقدمة في ايامها . فأجاب الملاك وقال له انا جبرائيل الواقف قدام الله وارسلت لاكلمك وابشرك بهذا وها انت تكون صامتا ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لانك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته . وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من ابطائه في الهيكل ، فلما خرج لم يستطع ان يكلمهم ففهموا انه قد راى رؤيا فى الهيكل فكان يومىء اليهم وبقي صامتا ولما كملت ايام خدمته مضى الى بيته . وبعد تلك الايام حبلت اليصابات امرأته واخفت نفسها خمسة شهور قائلة هكذا قد فعل بي الرب في الايام التي فيها نظر الي لينزع عاري بين الناس » .

ثم جاء ذكره في انجيل لوقا الاصحاح الاول (٥٧ — ٨٠) بما يلي : —

« وأما اليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابنا . وسمع جيرانها واقرباؤها ان الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها . وفي اليوم الثامن جاؤا ليختنوا الصبي

وسموه باسم ابيه زكريا . فأجابت أمـه وقالت لا بل يسمى يوحنا . فقالوا لهـا ليس احد في عشيرتك سمي بهذا الاسـم ثم أومأوا الى ابيه ماذا يريد ان يسمـى فطلب لوحا وكتب قائلا اسمه يوحنـا فتعجب الجميع . وفى الحال انفتح فمـه ولسانه وتكلم وبارك الله . فوقع خوف على كل جيرانهم وتحدث بهذه الامـور جميعها في كل جبال اليهودية ، فأودعهـا جميع السامعين في قلوبهم قائلين أرني ماذا يكون هذا الصبى . وكانت يد الرب معه .

وامتلا زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلا مبارك الرب اله اسرائيل لانه افتقد وصنع فداء لشعبه . وقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاه . كما تكلـم بفم انبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر خلاص من اعدائنا ومن أيدي جميـع مبغضينا ليصنع رحمة مع ابائنا ويذكـر عهده المقدس القسم الذي حلف لابراهيـم ابينا ان يعطينا اننا بلا خوف منقذين مـن أيدي أعدائنا نعبده بقداسة وبر قدامـه جميع أيام حياتنا . وانت ايها الصبي نبي العلي تدعى لانك تتقدم امام وجه الـرب لتعد طرقه . لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم باحشاء رحمة الهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكـي يهدي اقدامنا فى طريق السلام . امـا الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان في البراري الى يوم ظهوره لاسرائيل » .

وقد جاء ذكر النبي زكريا عليـه السلام ، في القرآن الكريم ، في سـورة مريم بالايات الكريمة التالية : —

سوره مريم : ذكر رحمـة ربك عبـده زكريا «٢» اذ نادى ربه نداء خفيا «٣» قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا «٤» واني خفت الموالى من ورائي وكانت امراتـي عاقرا فهب لي من لدنك وليا «٥» يرثني ويرث من ال يعقوب واجعله رب رضيا «٦» يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا «٧» قـال رب أنى يكون لي غلام وكانت امراتي عاقـرا وقد بلغت من الكبر عتيا «٨» قال ربـك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا «٩» قال رب اجعـل لي اية قـال ايتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويـا «١٠» فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا «١١» يـا يحيى خذ الكتاب بقوة واتيناه الحكم صبيا «١٢» وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيـا «١٣» وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا «١٤» وسلام عليه يوم ولد ويوم يمـوت ويوم يبعـث حيـا «١٥» .

يوحنا المعمدان

تفيد التقاليد المتوارثة ان يوحنا بن زكريا الذي عرف فيما بعد باسم يوحنا المعمدان منذ أن باشر يعمد الناس في نهر الاردن في المكان الذي يعرف فى يومنا هذا باسم المغطس . ومنذ ذلك الحين عرف نهر الاردن باسم نهر الشريعة .

جاء فى انجيل مرقس الاصحاح الاول (٢ — ١٨) بخصوص يوحنا المعمدان ما يلي : —

« كما هو مكتوب في الانبياء ها انا ارسل امام وجهك ملاكي الذي يهيىء طريقك قدامك صوت صارخ في البرية اعدوا طريق الرب اصنعوا سبلة مستقيمة . كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا . وخرج اليه جميع كورة اليهودية وأهل اورشليم واعتمدوا جميعهم منه في نهر الاردن معترفين بخطاياهم . وكان يوحنا يلبس وبر الابل ومعطفه من جلد على حقوية ويأكل جرادا وعسلا بريا . وكان يكرز قائلا ياتي بعدي من هو اقوى مني الذي لست اهلا ان انحني واحل سيور حذائه . انا اعمدكم بالماء واما هو فسيعمدكم بالروح القدس » .

وجاء في انجيل متى الاصحاح الثالث (١ — ١٧) ما يلي : —
« وفي تلك الايام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية . قائلا توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات . فان هذا هو الذي قيل عنه بأشعيا النبي القائل صوت صارخ في البرية اعدوا طريق الرب اصنعوا سبلة مستقيمة . ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد . وكان طعامه جرادا وعسلا بريا . حينئذ خرج اليه اورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالاردن واعتمدوا منه في الاردن معترفين بخطاياهم

فلما راى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم يا اولاد الافاعي من اراكم ان تهربوا من الغضب الاتي . فاصنعوا اثمارا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا ان تقولوا في انفسكم لنا ابراهيم ابا لاني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولادا لابراهيم . والان قد وضعت الفأس على اصل الشجرة . فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار . انا اعمدكم بماء التوبة . ولكن الذي يأتي بعدي هو اقوى مني الذي لست اهلا ان احل حذاءه هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه الى المخزن واما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ .

حينئذ جاء يسوع من الجليل الى الاردن الى يوحنا ليعتمد منه . ولكن

يوحنا منعه قائلا أنا محتاج ان اعتمد منك وانت تأتي الي . فأجاب يسوع وقال له اسمح الان لانه هكذا يليق بنا ان نكمل كل بر . حينئذ سمح له فلما اعتمد يسوع وصعد للوقت من الماء . واذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وأتيا عليه وصوت من السموات قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت » .

وجاء ذكر يوحنا المعمدان في انجيل يوحنا الاصحاح الاول (٦ — ١٣) و (١٩ — ٢٨) ما يلي : —

« كان انسان مرسل من الله اسمه يوحنا هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته . لم يكن هو النور بل ليشهد للنور . كان النور الحقيقي الذي ينير كل انسان اتيا الى العالم ، كان في العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله . وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله .

وهذه هي شهادة يوحنا حين ارسل اليهود من اورشليم كهنة ولاويين ليسالوه من انت ؟ فاعترف ولم ينكر وأقر اني لست انا المسيح . فسالوه اذا ماذا ايليا انت ؟ فقال لست انا . النبي انت ؟ فأجاب لا ، فقالوا له من انت لنعطي جوابا للذين ارسلونا . ماذا تقول عن نفسك قال انا صوت صارخ فى البرية قوموا طريق الرب كما قال اشعياء النبي .

وكان المرسلون من الفريسيين . فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي . أجابهم يوحنا قائلا انا أعمد بماء ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه . هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق ان أحل سير حذائه . هذا كان في بيت عبرة في عبر الاردن حيث كان يوحنا يعمد » .

وقد جاء ذكر يوحنا المعمدان في انجيل لوقا الاصحاح الثالث (١ — ٢٢) بما يلي :

« وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر اذ كان بيلاطس النبطي واليا على اليهودية وهيرودوس رئيس ربع على الجليل وفيلبس أخوه رئيس ربع على أيطورية وكورة تراخونيتس وليسانيوس رئيس ربع على الابلية في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية . فجاء الى جميع الكورة المحيطة بالاردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا كما هو مكتوب في سفر أقوال اشعياء النبي القائل صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة . كل واد يمتلىء وكل جبل واكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقا سهلة . ويبصر كل بشر خلاص الله .

وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا أولاد الافاعي من أراكم ان تهربوا من الغضب الاتي . فاصنعوا اثمارا تليق بالتوبة ، ولا تبتدئوا تقولون فى انفسكم لنا ابراهيم أبا لاني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولادا لابراهيم . والان قد وضعت الفأس على أصل هذه الشجرة فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار . وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له فليفعل هكذا . وجاء عشارون أيضا ليعتمدوا فقالوا له يا معلم ماذا نفعل فقال لهم لا تستوفوا اكثر مما فرض لكم . وسأله جنود أيضا قائلين وماذا نفعل نحن . فقال لهم لا تظلموا احدا ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائفكم .

واذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح اجاب يوحنا الجميع قائلا انا اعمدكم بماء ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلا أن أحل سيور حذائه . هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذي رفشه فى يده وسينقي بيدره ويجمع القمح الى مخزنه واما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ . وباشياء اخرى كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم . أما هيرودوس رئيس الربع فاذ توبخ منه لسبب هيروديا امرأة فيلبس اخيه ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودوس يفعلها . زاد هذا أيضا على الجميع انه حبس يوحنا في السجن .

ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضا واذ كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلا انت ابني الحبيب بك سررت » .

أما انجيل مرقس الاصحاح السادس (١٧ — ٢٩) فقد ذكر تفصيلات أوفى عن نهاية حياة يوحنا المعمدان على يد الطاغية هيرودوس بما يلي : —

« لان هيرودوس نفسه كان قد أرسل وامسك يوحنا واوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس اخيه اذ كان قد تزوج بها . لان يوحنا كان يقول لهيرودوس لا يحل ان تكون لك امرأة اخيك . فحنقت هيروديا عليه وارادت ان تقتله ولم تقدر لان هيرودوس كان يهاب يوحنا عالما انه رجل بار وقديس وكان يحفظه . واذ سمعه فعل كثيرا وسمعه بسرور . واذا كان يوم موافق لما صنع هيرودوس في مولده عشاء لعظمائه وقواد الالوف ووجوه الجليل ، دخلت ابنة هيروديا ورقصت . فسرت هيرودوس والمتكئين معه . فقال الملك للصبية مهما اردت اطلبي مني فأعطيك واقسم لها ن مهما طلبت مني لاعطينك حتى نصف مملكتي ، فخرجت وقالت لامها ماذا اطلب ، فقالت رأس يوحنا المعمدان . فدخلت للوقت بسرعة الى الملك وطلبت قائلة اريد أن تعطيني حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق ، فحزن الملك جدا لاجل الاقسام والمتكئين لم يردان يردها ، فللوقت ارسل الملك سيافا وأمر أن يؤتى برأسه ، فمضى وقطع رأسه فى السجن وأتى برأسه على طبق واعطاه للصبية والصبية أعطته لامها ، ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبر » .

الملك هيرودوس

ذكرنا في الفصل السابق ان فلسطين دخلت في حكم الرومان على يد الامبراطور بومبي في سنة ٦٣ ق.م. الذي استغل الحرب الاهلية التي كانت قائمة بين المكابين فى ذلك الحين . وكانت هذه الحرب الاهلية قد نشبت بعد وفاة الملك الكسندر بانوس سنة ٧٠ ق.م. بين ولديه هركانوس واريسطوبولس وبقيت الحرب بينهما سجالا اكثر من سبع سنوات .

وزاد الحرب فتنة وفسادا احد الوزراء المدعو انتيباتر ، وكان هذا الاخير من الادوميين الذين اجبرهم هركانس على دخول الديانة اليهودية فتهودوا فكان هذا يهودي المذهب ادومي الاصل روماني التابعية . وقد رزق هذا القائد ابنا سمي هيرودس عرف فيما بعد باسم الملك هيرودس .

وقد زاد حدة النيران الحرب الاهلية بين اليهود ، تلك الاختلافات المزمنة التي تأصلت بين فئة المتدينين الذين كانوا يدعون « الحسيديم » ، وبين الفئة الثانية التي كانت تدعى « الحشمونيين » تلك الاختلافات التي بدأت منذ سنين طويلة .

ولما اتم بومبي احتلال اورشليم واستتب له الامر ، اقام عليها حاكما مواليا للرومان اسمه « اسكاريوس » وخوله أن يحكم باسم روما جميع البلاد السورية والفرات ومصر .

في سنة ٤٩ ق.م. توفي بومبي وجلس على العرش مكانه (يوليوس قيصر) ، فولى (انتيباتر) الحكم في سنة ٤٦ ق.م. على فلسطين وما حولها حاكما عاما عن الرومان فى الشرق .

وبعد سنوات قليلة توفي انتيباتر وتسلم الحكم خلفه ابنه (فصايل) وكان أخوه هيرودس واليا في الجليل .

وفي سنة ٣٧ ق.م. عين الرومان هيرودس هذا حاكما على فلسطين وسوريا ولقبوه ملك اليهود ، واعطوه صلاحيات واسعة حتى اصبحت فلسطين على عهده مستقلة استقلالا داخليا تحت السيادة الرومانية .

وكان اليهود يكرهونه رغم كل محاولة من طرفه لارضائهم ، فقد كانوا يعتبرونه أجنبيا يحب التقاليد الرومانية . وفي سنة ٢٢ ق.م. اصيبت فلسطين وما حولها بوباء جارف وقحط شديد لانحباس المطر . فأرسل هيرودس الى مصر ما لديه من ذهب وفضة ، فابتاع بها كمية كبيرة من الحنطة وزعها على المحتاجين ، واعطى الزراع قروضا من الحنطة لاستعمالها بذارا ، على أن يردوا له حنطة بمقدار ما أخذ كل مزارع .

ولكي لا يجوع العمال اوجد لهم اشغالا ، فقام ببناء المدن والقلاع والقصور والحصون فى سائر انحاء البلاد ، فبنى القلعة في القدس الكائنة بباب الخليل ، واقام له بجانب القلعة قصرا كبيرا اشتهر في التاريخ بقصر انطونيا . وشيد أيضا عددا اخرا من الابراج والقلاع والهياكل والحمامات العمومية . ولما رأى هيرودس ان الشعب لا يحبه ، عمد الى ارضائهم فقام باصلاح بناء الهيكل واضاف اليه بعض الاروقة وغيرها . وقد تم هذا العمل في سنة ١١ ق.م.

شخصية هيرودس

كان هيرودس ذكيا جدا قوي الارادة ، رجل حرب وكفاح صاحب شخصية شجاعة ومقدامة ... فظا جدا وشديد الغيرة ، ولا يتوانى في التخلص من كل شخص يشك في اخلاصه له ، ولو كان من عائلته أو اقرب الناس اليه . وكلما شعر أن ملكه معرض للخطر من اي جهة كانت ، صب عليها غضبه الشديد ونكل بها شر تنكيل . فكان اول ضحايا ظلمه رئيس الكهنة ارسطوبولس شقيق زوجته (مريمنا) التي يحبها كثيرا لدرجة العبادة . ثم قتل والدة زوجته واخيرا جهز على مريمنا نفسها ، ثم بعد سنوات قتل اولادها الثلاثة منها ، حيث ساوره الشك في اخلاصهم له وتآمرهم ضده .

كان هيرودس طاغية كبيرة لدرجة أن المؤرخين لعهده اعتبروا قتله لاطفال بيت لحم وتخومها عندما جاء المجوس من الشرق يسألونه اين ولد ملك اليهود اعتبروا هذه المجزرة لا تذكر اذا قورنت بما قام به من اعمال أنتقام فظيعة لمن شك فى اخلاصهم له من نسائه وأولاده وقادة جنده ، وحتى لو كانوا من أعز الناس واقربهم اليه .

وكان اسلاف هيرودس قد خلفوا له مكانين ذاتي اهمية ، وهما حصن باريس اقيم في الزاوية الشمالية الغربية من ساحة الهيكل ، ثم اصبح هذا الحصن فيما بعد له هيبة ووقار كبيرين ، والمكان الثاني عرف باسم قصر هاسمونيين . وكان هيرودس قد وسعه وادخل عليه تحسينات كثيرة ، وزخرف جدرانه بالرسوم البديعة ورصف ارضيته بالموزاييك الجميل . وفي هذا القصر جرت محاكمة السيد المسيح عليه السلام امام الوالي بيلاطس البنطي .

اما في سنة ٢٢ ق.م. قام هيرودس ببناء قصر اخر واسع جدا ، في الجهة الشمالية الغربية من مدينة القدس ليسكنه هو وزوجاته العديدات مع أطفالهن . وفي هذا القصر استقبل اعدادا لا تحصى من عظماء الضيوف الذين وفدوا لزيارته من سائر الممالك والدول التي عاصرت عهده . وفي هذا القصر استقبل المجوس الثلاثة القادمين من المشرق ليسألوه عن مكان وجود الطفل المولود حديثا الذي سيكون ملك اليهود . فانزعج هيرودس من هذا الخبر ، لكن دهاءه

اوحى اليه أن يظهر للمجوس عن رغبتـــهللسجود لذلك ألطفل اذا عرفوا مكانــــه فيذهب فيقتله . فقال المجوس اذهبـــوا وابحثوا عن مكانه ، فاذا وجدتموه اخبروني لكي اذهب انا واسجد له ، كما سيجـــيءذكر ذلك عند ذكرنا عن وصول المجوس الى بيت لحم .

وقد تولى هيرودس الحكم مـــــدة اربعين سنة وتوفي في سنة ٤ ب.م. وبعد وفاة هيرودس اقام الرومان ملكا مكانـــه ابنه ارشيلاوس فحكم من سنة ٤ ب.م. الى سنة ٦ ب.م. ولكن هذا الملك عجزعن ادارة البلاد فقامت فى عهده عـــــدة ثورات وقلاقل فانتشرت الفوضى فـــــي البلاد ، مما اضطر الامبراطور الروماني اغسطس أن يبقي فلسطين وسوريـــــاتحت حكمه المباشر ، وجعلها ولاية رومانية وابقى جيشه فيهـــا . فاتخذ قيصريـــــة عاصمة لهذه الولاية ، لقربها من البحـــر من ناحية وللحط من قيمة اورشليم مـــن ناحية اخرى ، وراح الحكام الرومانيون يتعاقبون الحكم حسب رغبة واوامـــــر الامبراطور الروماني .

العذراء مريم

كان والد مريم رجلا تقيا وعظيما بين العلماء في بني أسرائيل . وقد حملت زوجته فنذرت ان تجعل ما في بطنها من الحمل مكرسا لخدمة الهيكل . فلما وضعت وتبين ان الجنين كان أنثى وكانت ترجو ان يكون ذكرا ليخدم في بيت الله خلفا لابيه ، توجهت الى الله تعالى قائلة :

« رب اني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم » ، وهذا الاسم العبراني يعني بالعربية نجمة البحر . وتقبل الله تعالى المولودة بقبول حسن وانعم عليها من الفضائل بما لم يمنحه لبشر من قبل .

وقد توفي والد مريم وهي صغيرة وتحتاج الى من يكلفها ويقوم بتنشئتها فلما قدمتها أمها الى كهنة الهيكل اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها والقوا على ذلك قرعة فكانت من نصيب زكريا والد يوحنا المعمدان . وكان زكريا زوجا لخالة مريم فتكفلها ورعاها خير رعاية ابوية . وهكذا نشأت مريم على الطهارة والبعد عن الدنس تقضي ساعات طويلة كل يوم في الصلاة والعبادة لله سبحانه وتعالى .

وكانت عادة اليهود في ذلك الحين ان تخطب الفتاة اذا بلغت الثالثة عشر لمدة معينة ليتعرف الواحد على اخلاق رفيق حياته . فاذا اقتنع كل منهما بالاخر يعقد الزواج واذا لم يتفقا تفصل الخطوبة التي بينهما .

فلما بلغت مريم سن الرابعة عشر تقدم لخطبتها من أهلها رجل من عشيرتها لكي تكون زوجة لابنه يوسف . وكان يوسف هذا رجلا بارا متقيا الله كثيرا ، يتقرب اليه بالصلاة والصيام ويرتزق بعمل يديه وعرق جبينه حيث كان نجارا ماهرا صادقا في عمله لدرجة اكتسب احترام ومحبة كل من عرفه . وهكذا اصبحت مريم مخطوبة حتى يتم يوسف تحضير بيته ولوازم عرسه .

وجاء ذكر مريم في القرآن الكريم في سورة ال عمران كما يلي :ـ
سورة ال عمران : « ان الله اصطفى آدم ونوحا وال ابراهيم وال عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليهم (٣٤) اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك انت السميع العليم (٣٥) فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (٣٦) فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله أن الله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٧) » .

ومنها أيضا : « واذ قالت الملائكه يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين (٤٣) ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون (٤٤) » .

ويقدر بعض علماء اللاهوت ان سيدتنا مريم العذراء قد عاشت حوالي ٥٩ عاما ، قدروها كما يلي :

كان عمرها ٣ سنوات عندما دخلت الهيكل وبقيت فيه ١٢ سنة . وعاشت مع السيد المسيح ٣٣ عاما . وعاشت بعد قيامته من بين الاموات ١١ عاما فيصبح مجموع ما عاشته ٥٩ عاما .

وتوفيت السيدة العذراء في القدس ودفنت بالقرب من بستان الجسمانية واقيم فوق القبر الكنيسة التي نعرف حاليا باسم كنيسة ستنا مريم .. ولقب ستنا مريم يطلقه في بلادنا منذ القدم المسيحيون والمسلمون على السواء عندما يجيء ذكر مريم العذراء في أحاديثهم .

بشارة العذراء

وهكذا نشأت مريم على الطهارة والبعد عن الدنس ودامت على ذلك وتعلمت الصلاة والعبادة منذ نعومة طفولتها ، وكانت تقضي ساعات طويلة في الصلاة والتأمل في خلوة لوحدها .

وبينما كانت مريم ذات يوم في صلاتها ظهر لها ملاك الرب وبشرها بالحبل الالهي . وكان ذلك في الشهر السادس من حبل خالتها اليصابات بيوحنا المعمدان كما ذكر لوقا الانجيلي في الاصحاح الاول (٢٦ — ٥٦) : —

« وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها الناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم ، فدخل اليها الملاك وقال سلام لك ايتها المنعم عليها ، الرب معك مباركة انت في النساء . فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية . فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لانك قد وجدت نعمة عند الله . وها انت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع هذا يكون عظيما وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الاله كرسي داود ابيه . ويملك على بيت يعقوب الى الابد ولا يكون لملكه نهاية .

فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وانا لست أعرف رجلا ، فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله . وهوذا اليصابات نسيبتك هي أيضا حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا . لانه ليس شيء

غير ممكن لدى الله . فقالت مريم هوذا انا امة الرب ليكن لي كقولك فمضى من عندها الملاك .

فقامت مريم في تلك الايام وذهبت مسرعة الى الجبال في مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا وسلمت على اليصابات ، فلما سمعت اليصابات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها ، وامتلات اليصابات من الروح القدس ، وصرخت بصوت عظيم وقالت مباركة انت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك . فمن اين لي هذا ان تأتي أم ربي الي . فهوذا حين صار صوت سلامك في اذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني . فطوبى للتي آمنت ان يتم ما قيل لها من قبل الرب .

فقالت مريم :

تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي . لانه نظر الى اتضاع أمته

فهوذا منذ الان جميع الاجيال تطوبني لان القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس ورحمته الى جيل الاجيال للذين يتقونه .

صنع قوة بذراعه ، شتت المتكبرين بفكر قلوبهم . انزل الاعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين .

اشبع الجياع خيرات وصرف الاغنياء فارغين . عضد اسرائيل فتاة ليذكر رحمة كما كلم ابائنا لابراهيم ونسله الى الابد » .

ومكثت مريم عند خالتها نحو ثلاثة اشهر ثم رجعت الى بيتها .

ويذكر انجيل متى الاصحاح الاول (١٨ــ٢٤) ما يلي :ــ

« لما كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل ان يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس فيوسف رجلها اذ كان بارا ولم يشأ ان يشهرها أراد تخليتها سرا . ولكن فيما هو متفكر في هذه الامور اذا بملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلا : يا يوسف ابن داود لا تخف ان تأخذ مريم امراتك لان الذي حبل به فيها هو من الروح القدس . فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لانه يخلص شعبه من خطاياهم . وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل . هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا » .

فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما امره ملاك الرب واخذ امراته . ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع » . واقام يوسف مع مريم كل حياته حريصا كل الحرص على خدمة وراحة عائلته ، ويسميها المسيحيون بالعائلة المقدسة ، واتخذ هذا الاسم عنوانا للرهبانيات وكنائس وجمعيات خيرية قامت في سائر انحاء العالم خلال القرون الماضية حتى يومنا هذا .

أما بشارة مريم فجاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة آل عمران بما يلي :

سورة آل عمران : « اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح بن مريم وجيها في الدنيا والاخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين (٤٦) قالت رب انى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون (٤٧) ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل (٤٨) » .

وجاء في سورة مريم :

« واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا (١٧) قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا (١٨) قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغيا (٢٠) قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله اية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا (٢١) » .

قصـــة الميـــلاد

سبق وذكرنا انه لما بلغت مريــــم سن الرابعة عشر خطبت الــى شخصــ فاضل من عشيرتها يدعى يوسف ، وكانت مهنته نجارا . وكانت العادة السائــدة في ذلك الزمان أن كل فتاة تبلغ الرابعــــة عشر تخطب لرجل فاضل ينال ثقة واحترام اهلها . فلما تقدم اهل يوسف لخطبـــة مريم لابنهم لاقى استحسان الجميع حيث كان بارأ متقيا الله يتقرب اليه بالصـــلاة والصيام ، ويرتزق بعمل يديه وعـــرق جبينه من مهنته نجارا ماهرا وصادقــا في عملــــه .

وبما ان فلسطين في تلك الايـــام كانت من ضمن البلاد التابعة للامبراطورية الرومانية ، فقد شملها أمر قيصر بعمــل احصاء عام في كل ولاية تابعة له لكـــي يزيد مدخوله من الضرائب المفروضة على عموم رعاياه فلا يفلت احد من هــــذه الضرائب . ويعتبر معظم المؤرخـين ان هذا الاحصاء يرجح انه كان الاول مـــن نوعه في المعمورة حتى ذلك الحين .

وعليه سافر يوسف النجار وخطيبته مريم من الناصرة قاصدين بيت لحـــم ، متحملين مشاق السفر ، وخطيبته حامــل في ايامها الاخيرة ، رغم برودة جو البلاد الفلسطينية في شهري كانون اول وكانون ثاني . واخيرا وصلا القدس ومرا مـــن امام قصر هيرودوس الفخم حيث كانـــت الطريق من امامه ، فالقوا بنظرة عابــرة على هذا القصــر . ولكن لم يخطـــر ببالهما الخطر الشديد والاذى الكبير الذي سيلحق بهما من هذا الظالم المستبد القابع خلف جدران هذا القصر المحرم دخولـــه لاي انسان من غير اهله وخدم هذا الحاكم الدكتاتــور .

وتابعا طريقهما فوصلا مكانا يدعى بيت هاكرم (والذي اقيم عليه حاليـــا كيبوتس رامات راحيل) ، ومن التقليــد المتوارث منذ القدم ان يوسف ومريـــم جلسا ليستريحا قرب هذا المكان بجانــب بئر لا تزال قائمة حتى يومنا هذا تسمــى بئر قادسمو ، والتي اندرست في سنـــة ١٩٦٨ حين مدت الانابيب الموصلة الماء من القدس الى مستعمرة جيلو قـــرب دير الطنطــور . وهكذا اندثر هذا الاثر التاريخي الذي بقي قائما منذ ثلاثين قرنا .

ومثل هذه البئر ابار كثيرة كانـــت توجد على طريق قوافل التجارة بـــين القدس والشام ومصر ليستقي منهـــا التجار ودوابهم . وفي حديث اخر متداول منذ القدم ، ان مريم العذراء قد شاهدت رؤيا في هذا المكان : بأن شخصين كانـــا يتجادلان ، احدهما كان في غاية السرور لميلاد المسيح والاخر يرفض أن يتقبـــل المسيـــح .

وبعد أن استراحا تابعا المسير الى بيت لحم ، وعندما وصلا الى حافة التلة شاهدا القرية الصغيرة بيت لحم منبسطة امامهما ، وهي التي يسمونها أفراتا بيت اجدادهم . وبعد مسيرة قليلة مرا بقبر راحيل حتى دخلا اخيرا بيت لحم ، فبحثا عن مكان ينزلان فيه فلم يجدا من يقبلهما حيث كان الفندق ممتلئا بالقادمين الى بيت لحم للتسجيل . ولم يقبلهما أحد في بيته لفقرهما . وكأن مشيئة الله كانت تريد ذلك ، حتى يولد المخلص في مغارة اختارتها العناية الالهية لهذا الغرض .

ويقول بعض المؤرخين بما أن قرية بيت لحم لم تكن غريبة على يوسف ، حيث قضى معظم سني طفولته فيها ، وكان يعرف بعض المغاور التي تأوي اليها الاغنام ، فأخذ مريم الى أقربها وهناك تمت الولادة . وذكر آخرون انه كان في بيت لحم خان وحيد لصاحبه كيفام . لم يكن لديه مكان لايواء يوسف وخطيبته فسمح لهما بالالتجاء الى المغارة التابعة للخان والقريبة منه ، اذ كانت تستعمل اصطبلا لدواب نزلاء الخان وهناك تمت الولادة .

وقد جاء ذكر قصة الميلاد في انجيل لوقا الاصحاح الثاني (١ ــ ٢٥) ما يلي :

« وفي تلك الايام صدر أمر من اغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة ، وهذا الاكتتاب الاول جرى اذ كان كيرينوس والي سوريا ، فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد في مدينته . فصعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى ، وبينما هما هناك تمت ايامها لتلد ، فولدت ابنها البكر وقمطته واضجعته في المذود اذ لم يكن لهما موضع في المنزل .

وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم واذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب اضاء حولهم فخافوا خوفا عظيما ، فقال لهم الملاك لا تخافوا فها انا ابشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . انه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب . وهذه العلامة تجدون طفلا مقمطا مضجعا في مذود . وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوي مسبحين الله وقائلين « المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وبالناس المسرة » .

ولما مضت عنهم الملائكة الى السماء قال الرجال الرعاة بعضهم لبعض لنذهب الان الى بيت لحم وننظر هذا الامر الواقع الذي أعلمنا به الرب . فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعا في المذود . فلما رأوه أخبروا بالكلام الذي قيل لهم عن هذا الصبي وكل الذين سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرعاة . وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها ، ثم رجع الرعاة وهم يمجدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم .

ولما تمت ثمانية ايام ليختنوا الصبي سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن (وفي شريعة اليهود ان الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته كما أمر الله ابراهيم بذلك) .

ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعةموسى صعدوا به الى أورشليم ليقدموه للرب كما هو مكتوب في ناموس الرب ان كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسا للرب ، ولكي يقدموا ذبيحة كما قيل في ناموس الرب زوج يمام اوفرخي حمام .

وكان رجل في اورشليم اسمه سمعان وهذا الرجل كان بارا تقيا ينتظر تعزية اسرائيل والروح القدس كان عليه . وكان قد اوحي اليه بالروح القدس انه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب . فأتى بالروح الى الهيكل . وعندما دخل بالصبي يسوع ابواه ليصنعا له حسب عادة الناموس . اخذه على ذراعيه وبارك الله وقال الان تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام . لان عيني قد ابصرتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب نور اعلان للامم ومجدا لشعبك اسرائيل .

وكان يوسف ومريم يتعجبان مما قيل فيه . وباركهما سمعان وقال لمريم امه ها آن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى اسرائيل ولعلامة تقاوم وانت ايضا يجوز في نفسك سيف لتعلن افكار من قلوب كثيرة » .

حضور المجوس الثلاث الى بيت لحم

في زمن الميلاد كانت بلاد فارس من عبدة النار ولها كهنة خاصة بهم يسمون مجوسا ، وكل واحد منهم يصل هذه المرتبة بعد سنين طوال يثبت خلالها انه من اهل العلم والفهم ورجاحة العقل ، ويلبس الواحد منهم زيا خاصا فاخرا من الحرير ، ولكل منهم مرتبة خاصة رفيعة عن العامة والخاصة وحتى الملك وجنوده وقادته ووزرائه ، اي أن الواحد منهم كان فـي منتهى رتبة الكهنوت لديهم .

وقد جاء في انجيل متى الاصحاح الثاني (١ ــ ٢٣) ما يلي :

« ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية فى ايام هيرودس الملك اذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى أورشليم قائلين اين هو المولود ملك اليهود ، فاننا رأينا نجمة في المشرق واتينا نسجد له . فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع اورشليم . فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم اين يولد المسيح ، فقالوا له في بيت لحم اليهودية ، لانه هكذا مكتوب بالنبي وانت يا بيت لحم ارض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لان منك يخرج مدبر يرعى شعبي اسرائيل .

حينئذ دعا هيرودس المجوس سرا وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر ، ثم ارسلهم الى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي ومتى وجدتموه فاخبروني لكي اتي انا ايضا واسجد له . فلما سمعوا من الملك ذهبوا واذا النجم الذي راوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبي ، فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا . واتوا الى البيت وراوا الصبي مع مريم امه فخروا وسجدوا له ، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبا ولبانا ومرا . ثم اذ اوحي اليهم في حلم ان لا يرجعوا الى هيرودس انصرفوا فى طريق اخرى الى كورتهم .

وبعدما انصرفوا اذا ملاك الـــرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا قم وخـــذ الصبي وأمه واهرب الى مصر وكن هناك حتى أقول لك لان هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه . فقام واخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف الى مصر ، وكان هناك الى وفاة هيرودس لكي يتم ما قيل من الـــرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني .

حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جدا ، فأرسل وقتـــل جميـــع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمـــان الذي تحققه من المجوس حينئذ تم ما قيل بارميا النبي القائل : صوت سمع فـــي الرامة نوح وبكاء وعويل كثير ، راحيـــل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى لانهم ليسوا بموجودين .

فلما مات هيرودس اذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلا : قم وخـــذ الصبـــي وامه واذهب الى أرض اسرائيل ، لانـــه قد مـــات الذين كانـــوا يطلبون نفس الصبي ، فقام واخذ الصبي وأمه وجاء الى أرض اسرائيل ، ولكـــن لما سمع أن ارخيلاوس يملك على أرضـــ اليهودية عوضا عن هيرودس ابيه خـــاف ان يذهب الى هناك . واذ اوحي اليه في حلم انصرف الى نواحي الجليل ، وأتـــى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة لكي يتـــم ما قيل بالانبياء انه سيدعى ناصريا » .

وحسب التقليد المتوارث منذ القدم ان المجوس لم يرجعوا الى بلادهم عـــن طريق القدس بل رجعوا عن طريـــــق بيت ساحور . واختبأوا في طريقهم فـــي مغارة اقيم فوقها حاليا دير القديســـ ثيوذوسيوس المعروف باسم دير ابن عبيد الواقع على بعد بضعة كيلومترات شرقي بيت ساحور ، على الطريق الروماني القديم المؤدي من بيت لحم الى نهر الاردن .

واتخذ بعض المفسرين للانجيـــل كلمة « واتوا الى البيت » أن يوســـف النجار اتخذ له بيتا وسكن مدة مـــــن الزمن في بيت لحم حتى ظهر لـه المـــلاك ، وقال له قم خذ الصبي وأمه واذهب الـــى مصر ، لان هيرودس الملك يطلب الطفـــل لقتله . كذلك يتضـــح من استفســـارات هيرودس من المجوس انهم رأوا النجـــم قبل سنتين من مجيئهم الـــى اورشليم ، لذلك أمر بقتل جميع اطفال بيت لحـــم وتخومها ممن بلغ السنتين فدون .

وجاء ذكر ميلاد السيد المسيح في القران الكريم بما يلي :

سورة مريم : فحملته فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فأجاءها المخاض الـــى جـــذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنـــت نسيا منسيا (٢٣) فناداها من تحتهـــا الا تحزني قد جعل ربك تحتـــك ســـريا (٢٤) وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليـــك رطبا جنيا (٢٥) فكلي واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر احدا فقولي انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا (٢٦)

سورة الانبياء : والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها اية للعالمين (٩) .

سورة التحريم : ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (١٢) .

وذكر اسمه في القرآن الكريم بلفظ المسيح تارة وهو لقب له . وتارة بلفظ عيسى وهو اسمه العلمي ، وبالعبرية يشوع أي المخلص ، رمزا الى تخليص بني آلبشر من خطيئة ادم الاصلية ، وتارة الفادي حيث يفدي الجنس البشري وبكنيته « ابن مريم » تارة اخرى . ونشأ الطفل يسوع (عيسى) واشتهر بين قومه باسم ابن يوسف النجار .

ومما لم يذكر في الاناجيل ، وجاء ذكره في القرآن الكريم ، ان يتكلم الطفل في مهده بما يلي :

سورة مريم : « فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا (٢٧) يا اخت هارون ما كان ابوك امرىء سوء وماكانت امك بغيا (٢٨) فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال اني عبد الله اتاني الكتاب وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا (٣١) وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا (٣٣) » .

فلما قربت أيام الولادة اخذت الهواجس تنتاب العذراء مريم ، وتحسب كل حساب لما سيقوله الناس عنها .وكانت تريد الجواب الذي تجيب به عذالها والمعيرين لها من اهلها وعشيرتها.

فلما أتت قومها وتحمل طفلها على يديها ، ارتاعوا لهذا الحدث النازل والخطب العظيم ، وزاد في ارتياعهم ماكانوا يعرفونه عنها من طهارة المنبت وطيب البيئة ونشأة التقوى والطهارة التي نشأتها ، فانهالوا عليها بالتوبيخ واللوم الشديدين ، وقالوا لها يا اخت هارون ما كان أبوك امرىء سوء وما كانت أمك بغيا .

فأجابت قومها انى نذرت لربي صوما فلم اكلم احدا . وكان الصوم عن الكلام ضربا من العبادة . فأشارت الى طفلها وهو في المهد طالبة اليهم ان يوجهوا اليه كلامهم .

استغرب قوم مريم من هذا الجواب فاعتبروه غريبا وقالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا . فلم يمهلهم الطفل فأجابهم الجواب الشافي الدال على براءة أمه ، وان الله سيجعله نبيا مباركا ، واوصاه بالصلاة والزكاة والبر بوالدته ، كما جاء في الايات الكريمة المذكورة اعلاه .

كذلك جاء ذكر عيسى بن مريم في سورة آلمائدة بما يلي :
سورة المائدة : « اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك

اذ ايدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وتبرىء الاكمة والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين (١١٠) » .

احتفالات عيد الميلاد في بيت لحم

في يوم ٢٤ كانون اول (ديسمبر) من كل عام ، يجتمع الكهنة ورجال الدين المسيحي والجمعيات والهيئات الرسمية ووجهاء مدينة بيت لحم وقضائها ، لاستقبال غبطة البطريرك قادما من مقره في القدس ، لاقامة الاحتفالات الدينية فى بيت لحم بمناسبة حلول عيد الميلاد المجيد .

عند الظهر يتحرك المستقبلون بسياراتهم من ساحة المهد الى مدخل المدينة قرب قبر راحيل ، فيصل غبطته الى هناك في تمام الساعة الواحدة ظهرا ، يحرس سيارته اربعة خيالة من الشرطة على صهوة خيولهم ، اثنان من الجانب الايمن واثنان من الجانب الايسر . وهذا التقليد منبع منذ زمن العهد العثماني من سنة ١٨٥٠ م . وبقي هذا التقليد معمولا به في عهد الانتداب البريطاني والحكومة الاردنية حتى يومنا هذا .

ومنذ سنة ١٩٣٢ م ، تأسست فرقة كشافة المهد من قبل الجمعية الانطونية الخيرية البيتلحمية ، صارت الكشافة تشترك في استقبال غبطة البطريرك في عيد الميلاد . فقبل العيد بأسبوع تقوم فرقة كشافة المهد بدعوة جميع الفرق الكشفية في منطقة بيت لحم والقدس لمشاركتها فى هذا الاستقبال . فيجتمع عدد كبير من الجوالة والكشافة والاشبال وفرق المرشدات من البنات ، في ظهر يوم ٢٤ كانون اول من كل عام في مقر فرقة كشافة المهد . وعند الساعة الثانية عشرة ظهرا يخرج جميعهم في استعراض رائع ، كل فرقة ترافقها موسيقاها بطبولها وأبواقها ، من ساحة المهد مارين بشارع النجمة حتى ابار الملك داود ، المعروفة حاليا بنادي العمل الكاثوليكي . ومن هناك يستقبلون موكب غبطته القادم من القدس ، فيتقدمون في مسيرة رائعة حتى ساحة المهد حيث يكون رئيس وأعضاء بلدية بيت لحم وممثلو الحكومة والاهالي في انتظار وصول الموكب .

وعند وصول الموكب امام دار الحكومة فى ساحة المهد ، يترجل غبطته ومن معه من سياراتهم ويصافح مستقبليه ثم يرتدي غبطته بزة دينية خاصة بهذه المناسبة ، ويتابع الجمع مسيرتهم في موكب ديني الى داخل كنيسة المهد ، يتقدمهم الموكب الذي كان مصطفا على جانبي الساحة من كهنة ورهبان وراهبات وطلاب وطالبات المدارس .

ويشق الموكب طريقه بين الالاف منجمهور الحشد الكبير من الاهالي والسياح والوافدين الى بيت لحم ، وقد امتـــلات اسطحة وشرفات البنايات المطلة علـى ساحة المهد بأهالي بيت لحم وجوارها . وتكون اعداد كبيرة من مصوري التلفزيون والصحافة العالمية يلتقطون الصـــــور التذكارية لارسالها الى سائر انحاء العالم .

ويدخل موكب الرهبان والراهبـات وغيرهم داخل الكنيسة والبطريرك فـي المؤخرة ويسير بجانبه رئيس وأعضـــاء بلدية بيت لحم وممثلو الحكومة ووجهـاء بيت لحم ومنطقتها ، وعندما يصل غبطـة البطريرك مدخل كنيسة المهد ، يقـــف غبطته ويدير وجهه نحو مدينة بيت لحـم ويباركها . ثم يشكر مستقبليه من ممثلـي الحكومة وضباط الشرطة ويصافحهـــم فيعودون الى دوائرهم ، ويدخل غبطتـه مع مرافقيه الى الكنيســـة .

ويكون في استقبال غبطته في داخل باب كنيسة المهد ، رئيس دير الفرنسيسكان في بيت لحم فيرحب بغبطته ، وبعدهـــا يتابع الموكب سيره الى كنيسة المهـد ، ثم يعرج الى المدخل الشمالي المؤدي الى رواق القديس جيروم ، وثم الى كنيسـة القديسة كاترينا حيث تقام صلوات خاصة بعيد الميلاد تستمر أكثـر من ساعتـين . وبعدها يحل البطريرك ضيفا على ديـــر الفرنسيسكان المحاذي لكنيسة القديســة كاترينــــا .

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا ، يدخل غبطته الى كنيسة القديســة كاترينا وتبدأ صلوات قداس منتصـــف ليلة عيد الميلاد . وفى هذا الوقت يدخـل الى الكنيسة رئيس بلدية بيت لحـــم ومندوبو الحكومة وقناصل الدول اللاتينية في القدس ، وهم قناصل فرنسا وايطاليا واسبانيا والنمسا ، ليحضروا قداســـ منتصف ليلة عيد الميـلاد .

وعند انتهاء القداس تجري الدورة التقليدية من كنيسة القديسة كاترينا الى مغارة المهد ، يترأسها غبطة البطريرك . ثم يعود الموكب ثانية الى كنيسة القديسة كاترينا ، وتنتهي بذلك الاحتفالات الدينية بعيد الميلاد ، ويكون الوقـت قد قـارب الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ويعود الجميع الى بيوتهـم .

اما في احتفالات عيد الميلاد فـــي سنة ١٩٤٩ ، كانت بيت لحـم تحـــت رعاية السلطات الاردنية والسلطـــات المصرية ، وعليه جاء موكب غبطـــة البطريرك من القدس تحرسه الخيالـــة الاردنية . وعند قبر راحيل استقبله مـع المستقبلين ستة من الشرطة العسكريـــة للجيش المصري على دراجاتهم البخاريـة فكانت طليعة الموكب اكثر من مائة جـوال من الكشافة على دراجاتهم ، ثم الشرطة العسكرية المصرية على دراجاتهـــم البخارية ، ثلاثة منهم على الجانب الايمن ، وثلاثة على الجانب الايســر .

وجرت العادة منذ ســنة ١٩٣٥ م أن يخرج أكبر عدد ممكن من الكشافــة الجوالة على دراجاتهم الهوائية لاستقبال غبطة البطريرك عند قبر راحيل ، ويبقـى

باقي الكشافة مع عصيهم في ساحة المهد يساعدون الشرطة في حفظ النظام . ويكون فريق الجوالة في طليعة موكب المستقبلين حتى مدخل مدينة بيت لحم عند قبر راحيل في الذهاب والاياب . وعندما يصل الجوالة الى ساحة المهد في طليعة الموكب وخلفهم رتل طويل من سيارات المستقبلين والرسميين ، ينزل الجوالة بدراجاتهم الى الشارع الفرعي على اليمين ويسندون دراجاتهم أمام دار سليم ناصر ودار حنا فليفل ، ثم يعودون مسرعين الى ساحة المهد ليساعدوا في حفظ النظام مع باقي الكشافة .

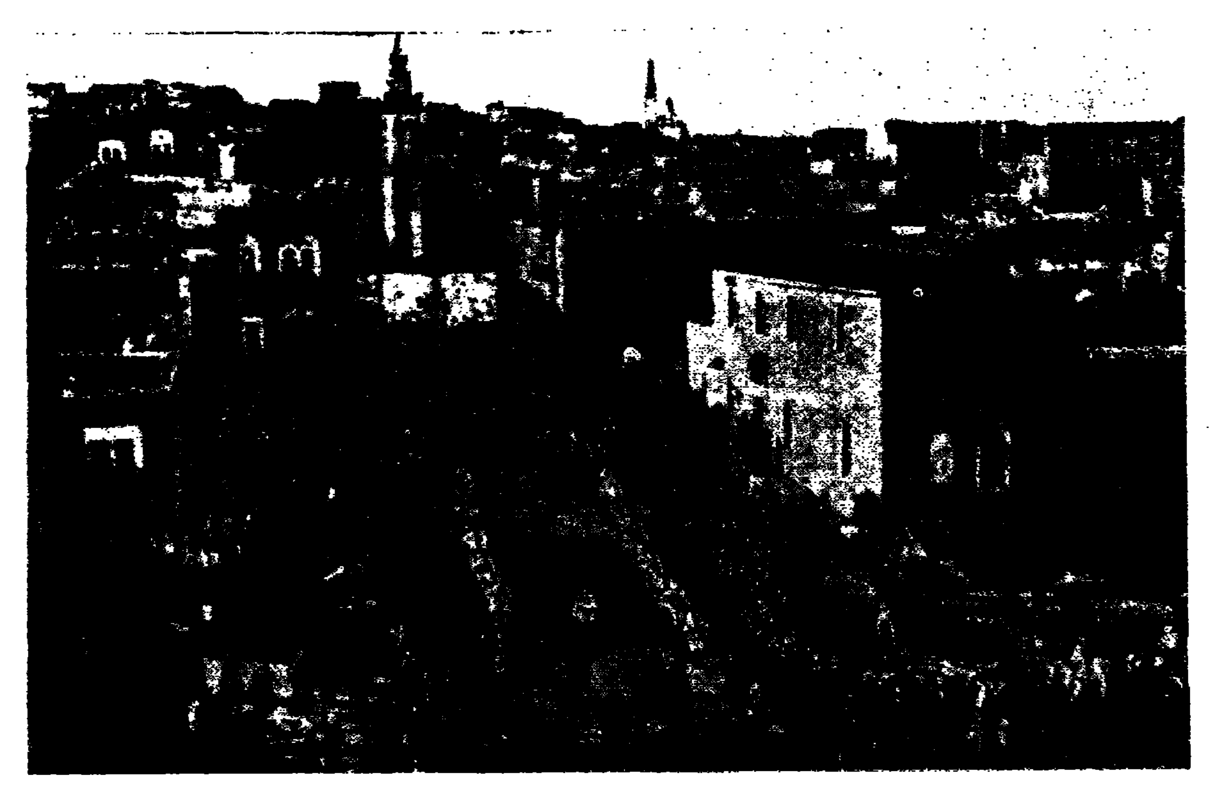
وفي سنة ١٩٤٩ م كنت منضما الى فرقة كشافة المهد وكنت رئيس الجوالة فيها ، فكان لي الشرف ان اكون في طليعة الموكب الكشفي ومعي اكثر من مائة جوال من مختلف الفرق على الدراجات العادية ، خرجنا على رأس موكب استقبال غبطة البطريرك في هذا العام . وبعد استقبال غبطته عند قبر راحيل حسب العادة المتبعة تابع الموكب مسيرته الى بيت لحم من شارع النجمة حتى ساحة المهد ، فوضعنا دراجاتنا جانبا امام دار ناصر وأسرعنا الى ساحة المهد ، وكان البطريرك قد ترجل من سيارته وصافح مستقبليه ، فتشابكت أيدي الجوالة مع بعضهم مكونين طوقا حول البطريرك ومستقبليه ، كما هي العادة في كل عام .

في عام ١٩٤٩ م كانت القدس العربية ومناطق بيت لحم ورام الله ونابلس وطولكرم وقلقيلية وجنين تحت اشراف الجيش الاردني ، وقد عينوا السيد جمال طوقان حاكما عسكريا أردنيا لهذه المناطق . فحضر بنفسه الى بيت لحم للاشراف على الاحتفالات بعيد الميلاد ، تمشيا مع عادة كانت متبعة في عهد الانتداب البريطاني ، حيث كان يحضر الى بيت لحم من القدس للاشراف على احتفالات عيد الميلاد بالنيابة عن الحكومة ضابط الشرطة فايز بك الادريسي ، رئيس شرطة القرى في منطقة القدس ، الذي بقي في وظيفته هذه سنوات طويلة حتى نهاية الانتداب سنة ١٩٤٨ م .

وسار موكب عام ١٩٤٩ م ، من ساحة المهد الى كنيسة المهد كالمعتاد ، تطوق الموكب الشرطة وخلفهم طوق الجوالة والكشافة حتى وصلوا الى اول بلاط ساحة الكنيسة . وهنا التفت السيد جمال طوقان الذي كان يرافق غبطة البطريرك ، التفت عفوا خلفه الى جهة المدينة فشاهد ان الكشافة هي الحارس الحقيقي للموكب والشرطة . فانتفض بانفعال وصاح في الشرطة كيف تسمحون للكشافة ان تكون خلفكم . وكنت بقربه فقلت له يا سيدي هذه هي العادة في كل عام منذ سنوات طويلة ، فحملق في بغضب ليرى من هذا الذي يرد عليه ، ولكنه لم يتكلم وربما كبح غيظه عندما رآني أمامه بلباس الكشافة ، وقد شاهدني مرارا خلال الساعة الماضية على رأس موكب الكشافة بالدراجات عند قبر راحيل وعلى امتداد الطريق الى ساحة المهد . المهم امر الشرطة بعصبية ان تفك طوقها ، وان تعيد طوقها خلف الكشافة ، ففعلت الشرطة كما أمرت .

استقبال البطريرك في بيت لحم

في زمن الاتراك



أخذت هذه الصورة لاستقبال البطريرك في بيت لحم في أواخر القرن المضي بدليل :

١ـ تمثل اسفل الزاوية اليمنى من الصورة مكان مقبرة الروم الارثوذكس في بيت لحم الواقعة أمام كنيسة المهد ، وتظهر المقبرة بدون سور . فقد اقيم سور المقبرة سنة ١٩٠٥م .

٢ـ يظهر في أعلى الزاوية اليمنى دير الاباء السالزيان ، ويظهر في طرفه بناء كنيسة قلب يسوع الاقدس فقط ، وبدون بناء دير الراهبات الذي يحاذي الكنيسة . وهذا القسم من دير الراهبات بني حوالي سنة ١٨٩٠م .

اما البناية التي تظهر في وسط الجانب الايمن من الصورة فهي السرايا القديمة في بيت لحم ، وقد بنيت بعد سنة ١٨٧٣م ، بأمر السلطان العثماني كما جاء ذكره في فصلنا عن حريق مغارة المهد في سنة ١٨٧٣م . فالطابق الاول كان القسم الامامي منه يستعمل مركز للشرطة وخلفه السجن . والقسم الذي الى جهة المدينة كان محكمة الصلح . والطابق الاعلى كان يشغل نصفه لدار البلدية والنصف الاخر لدائرة الصحة وخلف البناية كانت تسوية تستعمل اصطبلا لخيل البوليس الراكب الذي كان يسمى الفرسان .

المأذنة الظاهرة في وسط الصورة هي المأذنة القديمة لجامع عمر بن الخطاب في بيت لحم ، الذي بنى سنة ١٨٦٢م فوق قطعة من الارض قدمها دير الروم هدية للسلطان العثماني لكسب وده وتلبية مطالبهم في اعمار كنيسة المهد . وقد هدم هذا الجامع القديم واقيم مكانه في سنة ١٩٥٤م بناية جامع عمر الجديدة التي نراها في يومنا هذا .

اما الدار ذات الطابقين المحاذية لجامع عمر هي دار فريد مسلم واخوانه هدمت عند توسيع ساحة المهد الحالية في سنة ١٩٦٥م . ويقول اصحاب هذه الدار انه يوجد تحت دارهم كنيسة قديمة ينزل اليها بدرجات الى قاعة مقامة على عمدان . ورغم احتجاج اصحاب الدار ، فقد هدمت بالقوة بدون أي مراعاة لما تحتها من أثار قديمة .

الفصل الثالث

الاماكن المقدسة في بيت لحم

المباني حول كنيسة المهد

لم يستطع الباحثون ان يعينوا بالضبط أماكن اديرة القديسين جيروم وبولا لعدم تيسر ادلة او كتابات تبين هذه الاماكن ، ولكن تيسر للباحثين ان يثبتوا هؤلاء النساك . يعتقد بعض المؤرخين ان هذه الاديره كانت مكان دير الارمن الحالي واخرون يرجحون انها كانت مكان كنيسة القديسة كاترينا حاليا ودير الفرنسيسكان .

واتضح للباحثين ان هذه الاديرة تدبنيت خلال سنوات ٣٨٦ و ٣٨٨ ، بأموال بولا . فالدير الخاص بالرهبان كان واقعا شمال الكنيسة ، ولاحقا في سنة ٣٩٨ م ، نظرا لازدياد وصول اللاجئين الى بيت لحم ، اضطر القديس جيروم أن يبيع البيت الصغير الذي كان يملكه في دالماتيا ، ليواجه المتطلبات الملقاة على عاتقه . فبعد ان استولى الاغريق على روما سنة ٤١٠ م تدفقت منها اعداد كبيرة من اللاجئين الى بيت لحم ، بسبب اضطهاد الامبراطور الروماني للمسيحيين في بلاده .

كان الدير حصينا جدا وله برج للمراقبة ، وفي هذا البرج احتمى القديس جيروم في سنة ٤١٦ م ، عندما هاجم قوم من الرهبان المنشقين دير جيروم في بيت لحم ، محاولين احراقه بالنار وارتكبوا الكثير من الاعمال العنيفة وقتلوا الشماس . وكان الهجوم عنيفا جدا لدرجة ان القديس جيروم ذكر في كتاباته بعد سنتين من هذا الحادث ان الخراب لا يزال يعم نواحي كثيرة من ديره في بيت لحم ، وأضاف قائلا انه أفضل الف مرة للمرء ان يأكل خبزا جافا من أن يفقد ايمانه .

وفي سنة ٤٢٠ م توفي القديس جيروم ومن ذلك الحين لم يجد الباحثون اي ذكر لاديرة جيروم في بيت لحم . اما دير الراهبات الذي كان بجانب كنيسة المهد لم يتأكد احد من مكانه بالضبط . لكنه كان يحوي خمسين راهبة ، وكان تحت اشراف استوكيوم ، وتبعها في الادارة بولا الصغيرة حفيدة بولا الام المؤسسة ، وهي ثالثة واخر رئيسة لدير الراهبات في بيت لحم .

وبعد سنة ٤٣٩ م لم يذكر التاريخ شيئا عن رهبان وراهبات اللاتين في بيت لحم . ربما قد تلاشت حياة الرهبنة في بيت لحم لسنوات طويلة . في سنة ٨٠٠ م . اقيم دير للرهبان البندكتيين ، لكن بنسبة اخف من السابق اي بأعداد قليلة ، اما مكان دار الضيافة التي بنيت لايواء الحجاج والزوار فلم يذكر احد عن مكان وجودها بالضبط . ويرجح انها كانت مكان دير الارمن الحالي . كذلك

تدل بعض الكتابات أن بعض الرهبان والنساك سكنوا في بيت لحم قبل مجيء القديس جيروم اليها ، وكانت أماكنهم حول كنيسة الميلاد .

في عهد البيزنطيين أضيفت عدة غرف في شمال الكنيسة مكان دير الارمن الحالي ، واستعملت احداها مكانا للمعمودية ، كذلك كانت مقبرة بيزنطية على اول طريق بيت ساحور ، مكان ملعب مدرسة تراسنطا القديم . وفى سنة ١٩٣٨م وجد بالصدفة اثناء بعض الحفريات في هذا المكان حجر قبر مكسور نقش عليه اسم بوعاز وراعوث وبجانبه اربعة قبور اخرى .

ولما احتل الصليبيون بيت لحم أقاموا عدة مباني حول الكنيسة في بيت لحم ولا نزال نشاهد بعضها حتى يومنا هذا في دير الروم . وهذه المباني المختلفة لها ميزات مشتركة ، المنظر الخارجي الفخم والمنسق بالجدران السميكة لمقاومة الهجوم وعوامل الزمن ، وحجارتها من مختلف الاحجام ، وأحيانا مربعة الحجم وضخمة .

وفي القرون الوسطى كانت المباني حول الكنيسة محاطة بسور طوله اقل من الف متر ، ولا يزال بعض هذه المباني قائما بشكل جيد حتى يومنا هذا . وشمال كنيسة المهد اقيم دير القديس اغسطين والذي أصبح منذ سنة ١٣٤٧م ، اي سنة سكن رهبان الفرنسيسكان في بيت لحم ، ديرا للرهبان الفرنسيسكان وفى جنوب الكنيسة يقع برج الجرس ، الذي حول فيما بعد مسكنا للرهبان اليونان وعرف باسم دير الروم في بيت لحم . وفي الجهة الجنوبية الغربية اقيمت غرف كبيرة ، وكانت تستعمل مسكنا لاسقف بيت لحم ودار الحكم فيها لكنها مع مرور الايام تحولت الى طائفة الارمن واصبحت تعرف باسم دير الارمن في بيت لحم .

كان دير القديس اغسطين واسعا ، مبنيا على تلة تحاذي كنيسة المهد من جهة الشمال ، بشكل يتعذر الوصول اليه من ثلاث جهات ، اي حصينا جدا بطبيعة موقعه وبنائه ، ومحميا بسور وأبراج حراسة . واضيف الى هذا الدير ضمن السور الخارجي عدة غرف وبعضها ذات طابقين ، اما غرف النوم بحسب العادة السائدة في ذلك الحين فقد كانت مشتركة وتتسع كل غرفة واسعة لنوم عدة اشخاص .

ومنذ سنة ١٣٤٧ م بعد استقرار الاباء الفرنسيسكان في بيت لحم ، اجروا عدة تغييرات أو تحسينات على ديرهم حسب الحاجة وحسب متطلبات كل وقت. ولكن كان يتم كل شيء ضمن حدود الدير القديم ، اي بدون توسيع مساحته . وكان للدير كنيسة للصلاة باسم القديسة كاترينا الاسكندرية ، لكن هذه الكنيسة أعيد بناؤها وأصبحت فى وقتنا الحاضر كنيسة رعية اللاتين في بيت لحم . تجري فيها مراسيم العماد والزواج والصلاة على الموتى قبل دفنهم والجنائز والاحتفالات الدينية للرعية في مختلف الاعياد والمناسبات الدينية .

كنيسة المهد عبر التاريخ

دعنا ننظر الى كنيسة المهد من خلال عيون الذين عاشوا في بيت لحم ، او زاروها خلال القرون الماضية ، فكل واحد منهم يصف الاماكن المقدسة بأسلوب يغاير الاخرين ، ونستنتج منهم جميعا تاريخا شاملا لمدينة بيت لحم وكنيستها .

من القرن الرابع حتى القرن الحادي عشر

في سنة ٣٣٠ م ذكر زائر للاماكن المقدسة جاء من بوردو ما يلي :

« هناك ، حيث ولد السيد المسيح اقيمت كنيسة بأمر الامبراطور قسطنطين كانت من أبهى الكنائس واروعها » .

في سنة ٣٣٥ م جاء تأكيد اخر من ايوسيبيوس من قيصرية . ان الكنيسة في بيت لحم قد اقيمت فوق مغارة غامضة . تشبه اخرى في جبل الزيتون وثالثة في القدس اقيم فوق كل منها كنيسة بأمر الامبراطور قسطنطين . كان شرف كبير لبلاد فلسطين ان احتوت على ثلاث مغاور زين الامبراطور قسطنطين كلا منها ببناء فخم مزدان بأبهى زخرف . وفي سنة ٣٣٧ م عاد ايوسيبيوس فذكر ، ان الامبراطورة هيلانة كانت ورعة جدا ، فقدمت كل ما استطاعت اليه من زينة وستائر مزخرفة لتزيين كنيسة بيت لحم ، اكراما لذكرى ولادة مريم العذراء للمخلص في ذلك المكان . ثم قال أما ابنها الامبراطور فجعل مغارة الميلاد تتلالا بما قدمه من جواهر وزينة ، بالاضافة الى كرم والدته الامبراطورة التي قدمت مجموعة من افخر الستائر الملوكية مزركشة بالفضة والذهب .

في سنة ٣٩٠ م تركت اوثيريا ، اول امراة حجت الى الاماكن المقدسة ، تركت دفتر مذكرات يومية لرحلتها جاء فيه عن بيت لحم ما يلي :

« يعجز الانسان ان يصف الزينة الباهرة التي شاهدناها في كنائس الصعود ، ومكان وجود الصليب ومغارة مولد المسيح في بيت لحم في ذلك اليوم ، اثناء الاحتفال بعيد الغطاس . فلا نشاهد اي شيء اخر سوى الذهب والحجارة الثمينة والحرير ، فنشاهد ملابس الكهنة الثمينة وقد حيكت من الحرير ووشيت بالذهب . وكذلك الحال بالنسبة للستائر التي تكسو جدران الكنيسة من الداخل . كذلك الاوعية المقدسة بكل انواعها التي استعملت في ذلك اليوم ، كانت مصنوعة من الذهب ومرصعة بالحجارة الثمينة . ولا ادري ماذا اقول عن زينة مباني هذه الكنائس التي اقامها الامبراطور قسطنطين تحت اشراف والدته ومصادر ثروة مملكته ، فكانت مزدانة بالذهب والموزاييك والرخام الثمين » .

أن الوصف كان مقتضبا ولكنه كاف للاستنتاج الكثير عن حالة هذه الكنائس . فالبناء الذي أقامه الامبراطور قسطنطين فوق المغارة مباشرة ، فانه وأمه قد انفقوا عليه مالا كثيرا وبالتالي كانت الزينات باهظة التكاليف ، والارض مبلطة بالموزاييك ، والهيكل وما حوله ملبسا بالرخام الفاخر ، والقناديل مصنوعة من الذهب الخالص .

ان كنيسة الميلاد التي بناها الامبراطور قسطنطين بقيت قائمة حوالي قرنين . وذكر افتيخيوس Eutychius بطريرك الاسكندرية في سنة ٨٧٦ م ، أنه في سنة ٢١ من حكم الامبراطور جوستنيان ثار السامريون في فلسطين ، فنهبوا الكنائس ، ودمروها ، وأشعلوا فيها النيران ، وأحرقوا ، وقتلوا أعدادا كبيرة من المسيحيين ، وساموا من بقي حيا منهم بعد ذلك أنواع العذاب ، حتى قتلوا اسقف نابلس ومن كان معه من الرهبان . وصلت اخبار ثورة السامريين وما جرى على أيديهم من تخريب وقتل ، الى مسامع الامبراطور جوستنيان ، فأرسل جيشا كبيرا ، أخمد ثورة السامريين بعد ان قتل منهم اعدادا كبيرة ، واستعاد البلاد من ايديهم ، وفرضت عليه عقوبات صارمة .

فلما استقرت الامور طلب بطرس بطريرك القدس من مار سابا ان يذهب الى القسطنطينية ، ويطلب من الامبراطور أن يعفي سكان فلسطين من الضرائب لسوء حالتهم ، فلبى الامبراطور طلبه . وزاد عليه مكرمة فوقها ، فانتدب مندوبا خاصا عنه ، وزوده بأموال طائلة ، وطلب من نائبه في فلسطين أن يسلم مندوبه جميع عائدات الضرائب في فلسطين حتى يتمكن من تنفيذ البناء الذي أمره به الامبراطور ، وزوده بالمهندسين والبنائين والعمال المهرة وكل ما يلزمه ، وأوصاه بأن تكون كنيسة المهد اوسع وأفخم من الكنيسة التي هدمت ، وحتى أفخم من كنيسة القدس . وبعد مرور عام من العمل فان الامبراطور شك في أمانة مندوبه واتهمه باختلاس بعض الاموال فأمر باعدامه وتم تنفيذ الامر .

ويستدل مما ذكره بطريرك الاسكندرية افتيخيوس أن تدمير الكنيسة لم يكن شاملا في ثورة السامريين ، ولكن الامبراطور شاء أن يهدم كنيسة قسطنطين ويبني غيرها في مكانها تكون أطول من الاولى وذات ثلاث حنيات لتكون على شكل صليب كبير . ومنذ ذلك العهد ، أخذت كنيسة المهد شكلها الحالي .

ويؤكد بطريرك الاسكندرية في مخطوط جمال الكنيسة من الخارج ومن الداخل ووجود أرضية موزاييك مطعمة بالذهب وبلاط الرخام الجميل يزين أرضية وجدران الكنيسة ، ولم يكن ، في العالم أجمع ، مثيل لجمال كنيسة المهد في ذلك العهد .

في سنة ١١٠٦م زار الاسقف الروسي دانيال كنيسة المهد فوصفها بما يلي :

« انها كنيسة واسعة ، شيدت على شكل صليب فوق مغارة المهد ، يغطيها سطح خشبي وفوقه طبقة من المعدن جدرانها مزدانة بالصور والموزاييك ، وفيها

خمسون عامودا ، كل واحد منها مكـــــون من قطعة حجرية واحدة ، ويرتكز علــــى قاعدة صخرية كبيرة ، ويعلوه تاج حجري مزخرف . لها ثلاثة ابـــواب طولهــا عند الهيكل الكبير ٥٠ خطوة وعرضها ٢٠ خطوة وتحت الهيكل الكبير توجد مغارة المهـــد حيث ولد السيد المسيح ، وهي كهف واسع جميـــل » .

من القرن الثاني عشر حتى وقتنا الحاضر

خلال هذه المدة لم يجر أي تغيـــير لشكل البناء الحالي لكن اجريت تصليحات مختلفة من الداخل بسبب التلف مع مـــرور الزمن ، او العبث بأيدي الحكام من وقـــت لاخر حسب اهوائهم وميولهم ، وفي سنـــة ١٩٥٦ م قام الاب برنارد اميكو Amico بوضع رسومات للاماكن المقدسة فـــي بيت لحم ، تبين شكلها مع مقاساتها بدقة .

لقد ذكر بعض الزوار للاماكـــــن المقدسة بوجود ابراج أجراس مقامة فوق الكنيسة لكن لم يذكر احد منهم مكانها ، في سنة ١٣٢٢ م ذكر دي مندفيل J. Maundville ان الكنيسة مقام عليها أجراس بديعـــــة عليها نقوش جميلة . وقد ذكر الاب فيلكس Filex Faber في ســــــنة ١٤٨٠م ، ان الشركس عندما حكموا فلسطين أمــــروا بازالة الاجراس من فوق الكنائس بصـرف النظر ان كانت كبيرة او صغيرة ، وحتـــى انهم امروا بازالة الاجراس من فوق كنيسة القبر المقدس في القدس . وقد ذكر بعضــــ المؤرخين أن أجراس الكنائس قد ازيلـــت في سنة ١٤٥٢م بأمر السلطـــان محمـــــد الثاني وربما قبل ذلك بقرن .

في سنة ١٨٦٣م ، عثر اثناء بعضـــ الحفريات التي جرت قـــرب مطبـــخ دير الفرنسيسكان في بيت لحم ، على ثلاثـــــة اجراس ومعها بعض الاوانـــي المقدســـــة مدفونة في الارض هناك . وفي سنة ١٩٠٦ اثناء الحفريات لاقامة مبنى الكازانوفا بجانب المهد ، عثر على ثلاثة عشر جرسا مدفونة هناك ، من مختلف الاحجـــام والرنـــات « صوت رنين الجرس » ، وكان منقوشـــا باللاتينية على أصغر جرس ما معنـــــــاه بالعربية « صوت الرب » .

منذ عهد ما قبل الصليبيين كـــــــان السقف من خشب الارز مدعوما بعوارضــــ متعاكسة لتحمل السقف . وبقي شكـــــل السقف على ما هو عليه حتى يومنا هــــذا . وتشير بعض مذكرات الرهبان انه جـــرى تبديل سقف كنيسة المهد مرتين : الاولـــى في سنة ١٤٨٠م والثانية في سنة ١٦٧١م ، قام به اليونانيون . وبالاضافة الى ما تقدم فقد قام الاباء الفرنسيسكان بصيانة جذرية للسقف سنة ١٦٠٧ وسنة ١٦١٧م .

في سنة ١٤٦١م ذكر روتشورت L. de Rochechourt وعبر عن أسفه الشديد للتلف الكبير الذي اصاب سقف كنيسة المهـــد . فذكر أن الشراكسة مانعوا في اي اعــــــادة بناء او تصليح مهما كان نوعه ، وانهــــا الاعجوبة ، ببركة الطفل الذي ولد هناك ، أن السقف لا يزال متماسكا فلا يسقـــــط على رؤوس المصلين .

في سنة ١٤٨٠م ذكر الاب فابر وصفاالكنيسة المهد فقال عنها انها كنيسة واسعة تشبه مخزنا واسعا بلا قش ، وصيدلية بدون اوعية ، ومكتبة بلا كتب ، فان طيور الحمام والسنونو تطير بكل حرية داخلة الى الكنيسة وخارجة منها من خلال الثقوب الموجودة في السقف .

في سنة ١٤٨٥م كتب الاب سوريانو Suriano عن اعادة بناء السقف الذي جرى فى سنة ١٤٨٠م . فقال لقد استعمل في بناء السقف الجديد اعمدة كبيرة من الخشب استوردت من الخارج ووضعت فوقها صفائح الرصاص . وفي سنة ١٥٩٦م ذكر الاب اميكو انه بسبب صفائح الرصاص التي تغطي سقف الكنيسة فأن الاباء الفرنسيسكان عانوا كثيرا ، فلم يكد يمر احد جنود الاتراك حتى يحاول ان يقطع او يقتلع شيئا من صفائح الرصاص هذه ليصنع منها رصاصات صغيرة يحشو بها بندقيته البدائية ، وكلما حاول احد الرهبان أن يمنعهم من ذلك كان يلاقي الضرب والاهانة والشتائم .

وفي سنة ١٦٧٤م ذكر الاب نو Nau ان اليونانيين اضطروا أن يقوموا باصلاح سقف كنيسة المهد بسبب فقدان صفائح الرصاص من فوق السطح بواسطة اعداء الدين ، مما سبب تلف العوارض الخشبية لتعرضها للامطار على مرور السنين ، واصبح كل شيء معفنا واسود اللون .

في سنة ١١٧٢م ذكر ثيودريك Theodrich ان الصليبيين قد نصبوا فوق سطح الكنيسة صليبا كبيرا من النحاس مزدانا بنقوش جميلة . وبالنسبة لارضية الكنيسة ذكر دانيال انها قد غطت ببلاط جميل من الرخام الابيض . وفى سنة ١٥٥٣م ذكر راهب اسباني ان كل ارضية الكنيسة كانت مغطاة بأبهى بلاط الرخام الابيض ، ولكن الاتراك خلعوه واخذوه وبلطوا به ارضية المسجد الاقصى .

في سنة ١٦٢٨م ذكر الاب قورازمي Quaresmi ان ارضية الكنيسة والمكان العلوي مكان الهيكل قد بلط بالبلاط المرمري الجميل ، ولكن جاء من دمر ارضية الكنيسة وانتزع هذا البلاط الجميل . فوضع محله مزيجا من كسر الفخار المدقوق والكلس ، واصبحت ارضية الكنيسة حمراء (أي عملوا مدة كما يسميها العامة وغطوا ارضية الكنيسة) . وهذا النوع من الطين كان يستعمل حتى مطلع القرن العشرين في فلسطين في قصارة آبار مياه الشرب المحفورة في الصحراء او الغور . أما بلاط ارضية الكنيسة الحالي (أي ما بين الاعمدة) فقد وضع في سنة ١٨٤٢ م عندما قام اليونانيون بتصليح اثر الخراب الذي لحق بالكنيسة من زلزال سنة ١٨٣٤م ، وقد اخذ البلاط من منطقة بيت لحم من المحاجر المعروفة بالموردة قرب مكاتب التربية والتعليم الحالية فى بيت لحم .

وقد ذكر المرحوم الاب البيرتو ريشاني خوري طائفة اللاتين في بيت لحم من سنة ١٩٣٥ — ١٩٥٢م ، في كتاب تاريخ الاباء الفرنسيسكان في بيت لحم من سنة ١٣٤٧ — ١٩٤٧م ما يلي :—

« دخل الاباء الفرنسيسيون بيت لحم سنة ١٣٤٧م . ومع ان التاريخ لم يحفظ لنا اليوم والشهر اللذين دخلوا فيهما هذه المدينة المحبوبة ، لكنه حفظ لنا السنة . ومنذ حل الاباء الفرنسيسيون في بيت لحم تولوا كنيسة المهد بعنايتهم واحيوا المراسيم الدينية فى مهد الخلاص ، وردوا للكنيسة والمهد بهاءهما ورونقهما الديني . وكانت هذه اولى اعمالهم ، بعد أن حصلوا على مأوى التجأوا اليه ، ليستريحوا من عناء النهار واتعاب الليل .

ففى سنة ١٣٩٥م خابر رئيس ديربيت لحم حضرة الرئيس العام في القدس في امر ترميم كنيسة المهد لان سقفها كان متداعيا ، ورصاصه أكل عليه الدهر وشرب . فاقتنع حضرته بلزوم ترميم ما يجب ترميمه ، والعمل على تجديد الخشب والرصاص ، فالتجأ الى السلطان (برقوق) وحصل منه على فرمان مؤرخ في ٢٠ شوال سنة ٧٩٧ هجرية الموافق للثامن من شهر اب سنة ١٣٩٥م . ومن ثم خابر حضرة الرئيس العام ملوك الافرنج ومسيحيي اوروبا طالبا المساعدة ، وقد حصل على ما يلزم من حسنات ومساعدات ، لدفع اجرة العمال وثمن الرصاص والخشب اللازم لسقف كنيسة المهد . ولكن ذلك لم يتم في زمن الملك المذكور بل في زمن ولاية ابنه (فرج) ، بعد ان تجسم الاباء الفرنسيسيون اتعابا جمة والاما شتى ، كالضرب والحبس والاهانات . ولولا ان الرب لطف بعباده ،وحنن قلب نائب السلطنة في الشام المدعو (ثغري بردي) لما تم لهم ما تمنوا وابتغوا فنالوا منه خمسة مراسيم متتالية ، تاريخها: السادس عشر والثامن من ربيع الاول ، والرابع والعشرون مكرر من ربيع الاخر ، والسادس عشر من جمادى الاولى . وكلها في سنة ٨١٤ هـ . الموافقة لسنة ١٤١١م . فامتثلت السلطة الفلسطينية لاوامر السلطان برقوق وأوامر كافل المملكة الشريفة الشامية وصدرت الفتاوي الشرعية ، باجازة الترميم وابدال اخشاب ورصاص سقف الكنيسة .

كان على الاباء الفرنسيسيين ان يهيئوا الطرق ويعبدوها لسير العربات وجلب الاخشاب عليها من اسكلة غزة الى بيت لحم . فاستأذنوا السلطة بذلك حسب منطوق الفرمانات . فصدر الامر باعداد الطريق ، وكتبت بذلك حجة شرعية تاريخها الثالث عشر من جمادي الاخر سنة ٨١٤هـ الموافق في ٢٢ ايلول سنة ١٤١١م . وبعد اتمام معدات الترميم باشر الاباء الفرنسيسيون العمل ، واعادوا لكنيسة المهد رونقها بعد أن صانوها من التداعي .

وقد رمموا كنيسة المهد فبنوا العضادة التي تدعم بناء الكنيسة ، كما انهم سنة ٩٧٢ هـ . اعادوا ترميم الكنيسة وظل شأنهم كذلك على توالي الايام الى زمن السلطان مراد الرابع ، الذي بأمر منه سلبت حقوق الاباء الفرنسيسيين من اماكن مقدسة كثيرة ومن ضمنها كنيسة المهد .

ولا يظن القارىء ان الاباء الفرنسيسيين كانوا يحصلون بسهولة على الاوامر السلطانية ، فما سجله التاريخ ، وما تقر به الفرمانات السلطانية

العديدة . كاف ليؤكد ان ما لاقاه الابـــاءالفرنسيسيون في بيت لحم من متاعـــب والام كان فوق طاقـــة الانســـان . وان الاضطهادات المتوالية التي ذاقوهـــا ، والسجون التي دخلوهـــا ، وانـــواع العذابات والجلد حتى الموت التي تحملوها ، لم يتحملها الرهبان المذكورون الا رغبة في حفظ حقوق ابناء الكنيسة الكاثوليكية في المقامات المقدسة ، لتظل لهـم حريـــة الزيارة والتعبد فيها وخصوصا في المحل الذي ولد فيه المخلص .

ولم تقتصر عناية الاباء الفرنسيسيين في بيت لحم على الاماكن المقدسة فقــط ، بل تعدتها الى العناية بالزوار الذين كانوا يؤمون بيت لحم فحموهـم من ظلـــم السلطات المحلية ، ودافعـوا عنهــم وتوسطوا لدى السلاطين وحصلوا منهـم على فرامانات عديدة ، يأمرون بها أرباب الحكم في فلسطين ان يرفعوا عن الزوار المظالم والمغارم التي يلحقونها بهــم . ولاجل راحة الزوار في بيت لحم بنى الاباء الفرنسيسيون دارا قرب ديرهـــــم (كازانوفا) لينزل فيها الزوار على الرحب والسعة . وكثيرا ما كانوا يدفعون عنهـم الحقوق الديوانية ورسم دخول وأمثال ذلك وهكذا يرجع كل زائر الى بلاده بعـد أن يكون قد أتم زيارته واشبع نفسه مـــن التعبد ، مشيعا باللطف والحنو والعنايـــة التي استقبل بها عند دخوله مدينـــة الســـلام .

وكان الاباء الفرنسيسيون يقيمـون المراسيم الدينية في كنيسة المهد فيتقاطـر المسيحيون لحضورها . ولكن تلـــك الكنيسة التي امتلكوها الى سنة ١٧٥٧م اغتصبها منهم الروم بفرمان من (مـراد الرابع) . ولكنهم استعاضوا عنهـــا بالكنيسة المشادة على اسم القديســـة كاترينا البتول الشهيدة بعد أن رمموها ، وبدأوا يقيمون الحفلات الدينية فيها » .

كنيسة المهد في الوقت الحاضر

عندما يلقي الزائر أول نظرة على كنيسة المهد من الخارج قبل دخوله اياها ، يلفت نظره شكل الكنيسة الذي هو أقرب الى الحصن المنيع منه الى الكنيسة ، فواجهة الكنيسة الاصلية كان لها ثلاثة مداخل ، الرئيسي في الوسط وهو أعلاها ومدخلان على جانبيه الايسر والايمن سدا بالحجارة في العصور السابقة . وقد بنيت هذه المداخل في عهد الامبراطور جوستنيان عندما أعاد بناء كنيسة المهد في مكان كنيسة قسطنطين .

والمدخل الاوسط اذا تأمل الزائر بناءه ، يجده قد صغر حجمه ثلاث مرات . فقوس الباب الاعلى هو ما كان عليه في عهد الامبراطور جوستنيان . ثم صغر الباب بقوس أصغر من السابق في عهد الصليبيين في القرن الثاني عشر . ثم صغر الباب الى حالته الحالية في سنة ١٥٠٠ م في زمن المماليك ، لمنع دخول الجمال والخيول الى الكنيسة ، تاركا مدخلا صغيرا وضيقا مما يضطر الداخل الى الكنيسة أن يحني رأسه ويثني ركبتيه ان كان طويل القامة ، وكأن هذا الباب يقول للداخل : احن قامتك أيها المتكبر اذا كنت محبا للرب . فكانت الكنيسة على ممر العصور تستعمل حصنا يلتجيء اليه سكان بيت لحم في أيام الضيق كلما تعرضوا لغزو او حرب . وآخر مرة التجأ اهالي بيت لحم الى كنيسة المهد كان يوم الاربعاء الموافق ٧–٦–١٩٦٧ .

أما البابان الجانبيان فالايمن قد اختفى خلف جدار دير الارمن ولا زال طرف قوسه الاعلى بارزا قليلا منه عند هذه الزاوية . والباب الايسر الذي هو من جهة دير اللاتين يمكن مشاهدة أعلاه بعد الدعامة المقامة قرب الباب الصغير . وأقيمت الدعامة هذه في العصور السابقة لدعم جدار الكنيسة عندما تعرضت لبعض الزلازل عدة مرات . وكان بين الابواب شباكان سد أحدهما بالحجارة ولا يزال ذلك بارزا للعيان ، والشباك الثاني بقي مفتوحا في وسط الدعامة .

وبعد أن ندخل من هذا الباب الصغير الى داخل كنيسة المهد ، نقف في ايوان معتم ، كانت له ثلاثة أبواب عالية واسعة ، تقابل المداخل الثلاثة الاصيلة للكنيسة . وقد سد البابان الجانبيان بالحجارة لدعم البناء ، وبقي الباب الاوسط فقط ، يدخل منه مباشرة الى الكنيسة ذات البهاء والجلال . وقد اعتاد اهالي بيت لحم منذ القدم أن يسموا داخل الكنيسة (بين العمدان) لوجود اربعة صفوف من الاعمدة تقوم عليها الكنيسة .

وهذا الايوان او الرواق معتم وبسيط التركيب وقد بقي على قدمه .

ويوجد الى يمين هذا الايوان باب صغير يصعد منه الى دير الارمن المحاذي للكنيسة . وفي اليسار من هذا الايوان باب اخر يؤدي الى حجرة كانت في السابق تستعمل مدرسة لتدريس الاحداث من الروم الوطنيين ثم استعملت في عهد الانتداب البريطاني مقرا لشرطي الحراسة المناوب في الكنيسة ، منذ مطلع القرن الحالي حتى يومنا هذا .

وتدخل من هذا الايوان الى داخل كنيسة المهد من خلال باب خشبي عليه نقوش تمثل فن القرن العاشر حتى الثالث عشر . وهذا الباب تبرع به شخصان ارمنيان في سنة ١٢٢٧ . وقد نقش على الباب باللغة الارمنية ما يلي :

صنع باب كنيسة أم الاله المباركة عام ٦٧٦ بايدي ابراهيم والاب اراكل زمن هيثوم بن قسطندي ملك ارمينيا ، ليرحم الرب أرواحهم ، والتاريخ الارمني ٦٧٦ يقابل سنة ١٢٢٧ ميلادي . أما الكتابة بالعربية فتقرأ (انتهى العمل بصنع هذا الباب بعون الله تعالى في أيام سيدنا السلطان المالك المعظم في شهر رمضان عام ٦٢٤ هـ) .

وعندما ندخل من هذا الباب الخشبي الى داخل الكنيسة التي تبلغ مساحتها حوالي ١٢٠٠٠ر مترا مربعا مقسمة الى ثلاثة اقسام ، صدر واسع وجناحين من الجهة اليمنى وجناحين من الجهة اليسرى يقسم بينها اربعة صفوف من الاعمدة الحجرية الوردية اللون ، قطعت من محاجر بيت لحم من المكان المعروف في يومنا هذا بارض الصليب (تصغير كلمة الصلب) خلف دير الطنطور من جهة الغرب ، قطعها ونحتها مهندسو الامبراطور جوستنيان ، ومن هذا المكان قطعوا ونحتوا الاعمدة التي بنوا عليها كنيسة العذراء مريم في القدس .

وفي كل صف احد عشر عامودا ، وكل عامود مؤلف من قطعة واحدة مرتكز على قاعدة حجرية ، وفوقه تاج من الحجر كورنثي النقشة له صليب بارز . وطول العامود مع القاعدة والتاج ٧٠ر٥ مترا . وتمتد على رؤوس هذه الاعمدة عوارض خشبية ضخمة منقوشة من اسفلها . ويقوم فوق صفي الاعمدة على جانبي الصدر الشمالي والجنوبي جدار من كل جانب ارتفاعه (٦٠ر٩ مترا) ويتخلل كل جدار عشر نوافذ متوسطة الحجم اعلاها قوسي الشكل ، تضيء داخل الكنيسة . ويرتكز على اعلى الجدار من كل جانب العوارض الخشبية الضخمة السائدة لسقف الكنيسة الخشبي .

وكانت شبابيك في جوانب الكنيسة الجنوبي والشمالي حتى عهد الصليبيين ، ثم سدت بالحجارة لدعم جدران الكنيسة، ولا تزال هذه الشبابيك ظاهرة للعيان في جدران الكنيسة من الخارج . وربما سدت لاسباب امنية او لتقوية جدران الكنيسة .

وكانت جميع جدران الكنيسة منقوشة بابدع الصور ، يمثل كل منها حدثا مما جاء

ذكره في الانجيل . فهذه الصورة تمثل ميلاد السيد المسيح والمجوس يقدمون له الهدايا ، واخرى تمثل يوحنا المعمدان وهو يعمد المسيح في نهر الاردن ، واخرى تمثل العشاء الاخير للمسيح وتلاميذه ، وصور اخرى غيرها تلفت مع مرور الزمن ، ولا تكاد تميز في وقتنا الحاضر . والموزاييك في ارضية الكنيسة يشهد بجمال وفخامة هذه الكنيسة خلال العصور الماضية .

وفي الجناح الجنوبي من الكنيسة ، على يمين الداخل ، يوجد جرن للمعمودية ، مثمن الاضلاع ، منحوت من حجر وردي احمر من نفس حجارة الاعمدة . وفي العصور السالفة كانت تجري طقوس عماد في هذا الموقع للحجاج والزوار ، ومعظمهم كان ينذر ان يعمد ابناءه في كنيسة المهد في بيت لحم .

والى يمين هذا الجرن يوجد باب يؤدي الى دير الروم . وهذا الباب يفتح فقط في الاعياد الاحتفالية لتخرج منه المطران والاكليروس والشعب الى دير الروم بعد انتهاء صلوات العيد ، ليتقدم الشعب بتهانيه الى المطران والاكليروس .

في سنة ١٩٣٤ قامت دائرة الاثار العامة لحكومة الانتداب في فلسطين باجراء حفريات حول قواعد الاعمدة في كنيسة المهد لتتأكد من سلامة هذه القواعد وقوة احتمالها فاكتشفوا آن الاساسات قوية وعميقة ، تنخفض حوالي مترا عن ارضية الكنيسة مما يدل على وجود أرضية اخرى أعمق من الارضية الحالية . فباشروا فى حفر ارضية الكنيسة فوجدوا على عمق ٧٥ سنتمترا أرضية اخرى مفروشة بالموزاييك ولكن معظمه كان تالفا . فعملوا جدران جانبية حول الاقسام الغير التالفة وعملوا لها غطاء خشبيا واعادوا طمر أرضية الكنيسة . وعليه يجد الداخل لزيارة كنيسة المهد في يومنا هذا ، بعض الاقسام المغطاة بأبواب خشبية ، ويشاهد تحتها ابدع اشغال الموزاييك .

كذلك شملت الحفريات في سنة ١٩٣٤ الساحة امام الكنيسة فوجدت اساسات جدران مختلفة لم تكن ذات قيمة تذكر ، فردمت الساحة ثانية وجرى تبليطها ببلاط جديد نشاهده اليوم في وقتنا الحاضر . وكان القسم الجنوبي من الساحة الذي يحاذي دير الارمن اعلى بنصف متر تقريبا عن باقي الساحة ولكن بعد الحفريات جعلت جميع اقسام الساحة متساوية في ساحة واحدة رحبية كما نشاهدها اليوم .

أما القسم الامامي من الكنيسة يتكون من ثلاث حنيات : أوسطها وهي اعلاها ارضا ، فتقع فوق ظهر مغارة المهد ، ويصعد اليه من الامام من صدر قائمة الاعمدة باربع درجات ، وينزل منه بمثلها من جهة اليمين الى الحنية الجنوبية ، وبأربعة درجات اخرى ينزل منها الى جهة اليسار الى الحنية الشمالية . وهذه الحنيات الثلاث مع صدر الكنيسة يكون شكل بناء الكنسة الذي يشبه شكل الصليب . وفي هذا القسم الامامي فان السقف يستند على ستة اعمدة حجرية

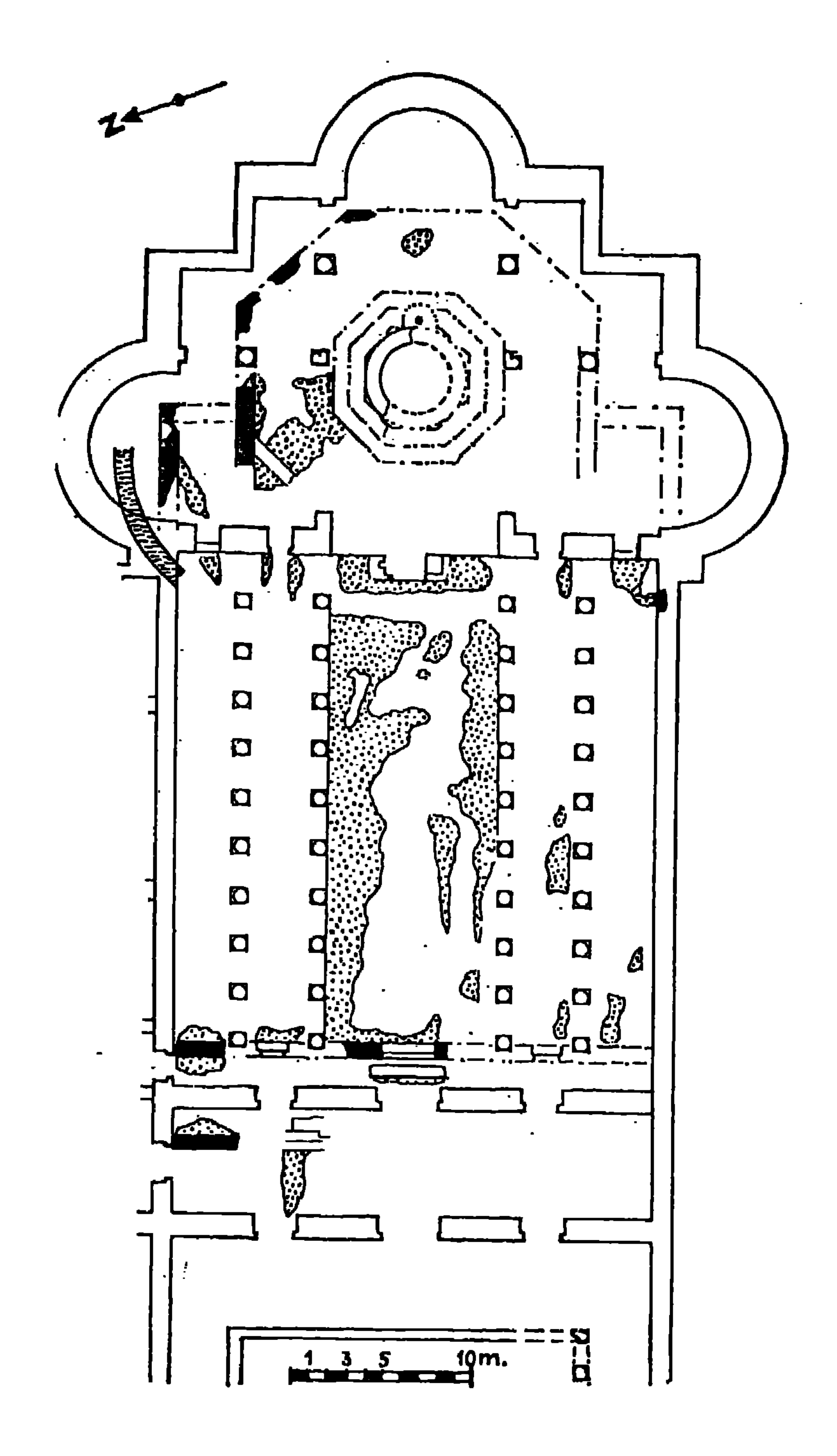
اكبر حجما من الـ ٤٤ عامودا الاخرى في القسم الامامي من الكنيسة . وأرض الكنيسة في هذا المكان لا تزال مبلطة ببلاط الرخام الابيض منذ العهد القديم .

فالحنية التي في الوسط في اتجاه الشرق ، تكون نهاية الكنيسة وفيها يقع الهيكل . والحنية الثانية في اتجاه الشمال ، وهو المكان الذي يعود للارمن فى كنيسة المهد ، ولهم فيه هيكلان حيث يقيمون فوقهما صلواتهم ، فالاول مكرس لاسم السيدة العذراء ، والثاني ويقع بقرب مدخل المهد الشمالي ، فمكرس للمجوس . وفي أقصى هذه الحنية الشمالية يوجد باب يؤدي آلى كنيسة القديسة كاترينا ودير الاباء الفرنسيسكان . وتحت هذه الحنية مباشرة تقع مغارة القديس جيروم ومجموعة مغاور اخرى سيجيء ذكرها في هذا الفصل . وأما الشبابيك في هذه الحنية فقد جرى اقفالها بالحجارة في القرون الماضية .

وأما الحنية الجنوبية فلها ثلاثة شبابيك لا تزال على حالها تضيء داخل الكنيسة . وأما الشباك الاوسط فقد وسع حتى أصبح بابا يصعد اليه بدرج مزدوج على جانبي الحنية يؤدي الى ساحة فى وسط دير الروم . وعلى الجانب الشرقي من هذه الساحة تقع كنيسة صغيرة باسم مار جريس وفيها بئر ماء . ويليها برج المراقبة الذي بناه الصليبيون في القرن الثاني عشر . وقد سقط القسم الاعلى من هذا البرج في حوالي سنة ١٥٩٦ م .

وفي هذه الحنية الجنوبية صلى الخليفة عمر بن الخطاب لما زار كنيسة المهد برفقة البطريرك صفرونيوس ، بعد ان تسلم القدس . وقد أعطى الخليفة صكا للبطريرك بأن لا يصلي احد من المسلمين في هذا المكان الا افرادا وان لا يؤذن فيه ، كما سيأتي ذكر هذا فى فصل لاحق من هذا الكتاب عن الفتوحات العربية .

وفي حفريات سنة ١٩٣٤م ، اكتشفت تحت آلحنية الجنوبية كهوف ، وفيها مجموعة جماجم بشرية ، يغلب على الظن انها كانت تستعمل مقبرة في أيام الصليبيين وما قبلهم . وقد أقام دير الروم بناية خاصة عند مدخل هذه الكهوف . وفي هذه الساحة تقع جرسية دير الروم التي بنيت سنة ١٨٣٢م .



خريطـة كنيسـة المهـد

خريطة كنيسة المهد

تمتد هذه الكنيسة من الغرب الى اتجاه الشرق . فواجهة المدخل تقع تجاه مدينة بيت لحم ، وكان لها ثلاث ابواب سد منها الطرفان وبقي الباب الاوسط .

ثم يدخل من الباب الاوسط الى ايوان معتم نوعا ما كان له ايضا ثلاث أبواب تقابل ابواب جدار الواجهة . وقد سد أيضا البابان الجانبيان بعد بنيان الكنيسة بعدة قرون لتقوية الجدارين وبقي المدخل من البنب الاوسط .

من هذا الباب يدخل الزائر الى قاعة فسحة مقامة على أربعة صفوف من الاعمدة الحجرية وكل صف مؤلف من احد عشر عامودا . وبذلك يقسم هذا المكان الى قاعة في الصدر وجناحين على اليمين وجناحين على الشمال .

والقسم الامامي مكون من ثلاث حنيات على شكل صليب . فالحنيه التي على اليين هي المعروفة باسم الحنيه الشمالية .

وبين الثلاث حنيات تقع الحنيه الامامية للكنيسة وتشمل مغارة المهد تحتها ، وفوق المغارة مقام الهيكل ، ويعرف بظهر المهد . وفوق ظهر المهد تقام الاكاليل والعماد ويصلى على الموتى قبل دفنهم .

والحنيات الثلاث مقام سقفها على ستة اعمدة ضخمة ، اربعة آعمدة امامية وعامودان بعدهما .

الهيكل فوق ظهر المهــد



القسم الاوسط من الكنيسة ، اي الحنية الامامية فهي أعلى بمتر واحد عن
ـيسة ، ويقع تحت هذا القســم مغارة المهد . واعتاد العامة أن يسمــوا
ن بظهر المهد . وفوق هذا المكان اي ظهر المهد يقيم الروم الارثوذكســـ
في مختلف الاعياد والمناسبات . وفي هذا المكان تجري الاكاليل والصــلاة
ى قبل دفنهم .

اما الهيكل المقام في هذا المكان فيرجع عهده الى سنة ١٧٦٤م وقد جرى نزيينه في سنة ١٨٥٣م . ومصنوع من الخشب المحفور وله ثلاثة أبواب للطقوس الدينية . ومقسم طوليا الى ثلاثة أقسام ، ويعلوها ١٤ صورة للرسل والقديسين ، مرسومة بالطريقة البيزنطية وهذه الايقونات هدية من العائلة القيصرية الروسية انذاك . وقد قام بهذا الحفر عدد من اهالي بيت لحم اشتهروا منذ القدم بهذا الفن ، فجاء عملهم صورة جميلة لبدائع الفن المحلى . وأمام حاجز الهيكل يوجد عدة شمعدانات كبيرة ، ومنهما اثنان بطول مترين ، صنعا في نورمبرج في المانيا فى سنة ١٦٦٧م . بطلب من رئيس الدير انذاك المدعو بنيامين .

يمثل النصف الايمن من هذه الصورة ظهر المهد ، وهو يرتفع قليلا عن ارضية الكنيسة ويصعد اليه بثلاث درجات من اليمين وثلاث من الشمال ، وثلاث من وسطه . وتقع تحت هذا المكان مغارة المهد حيث ولد السيد المسيح عليه السلام

والجانب الايسر من الصورة هو قسم من الحينية الشمالية لكنيسة المهد ويظهر في وسط هذا القسم المدخل الشمالي لمغارة الميلاد . وهذا القسم مع الباب مبلطا بالرخام منذ زمن القرن الثاني عشر للميلاد في عهد الصليبيين .

وفى احتفالات عيد الميلاد بعد صلاة منتصف الليل ، تقام دورة احتفالية من كنيسة القديسة كاترينا المجاورة ، وينزل الى مغارة المهد من هذا الباب . وتقع كنيسة القديسة كاترينا ملاصقة للحينية الشمالية لكنيسة المهد ويربط بينهما مدخلا ، وكان الارمن قد حصلوا على اذن من السلطان العثماني باغلاق هذا الباب سنة ١٨١٩م ، واعيد فتحه بمجهود القنصل الافرنسي سنة ١٨٣٦م .

وتحت هذه الحنيه تقع مغاور القديس جيروم التي جاء ذكرها في هذا الكتاب وينزل الى هذه المغاور بدرجات من مؤخرة كنيسة القديسة كاترينا الملاصقة .

الحائط الفاصل على ظهر المهـــد



اقام الرهبان اليونان هذا الحائـط حول ظهر المهد اثر خلافات استمـــرت سنوات بينهم وبين الرهبان الفرنسيسكان وكان ذلك فى سنة ١٨٤٢م . وقد أزيـــل هذا الحائط في سنة ١٩١٩م بواسطـــة ممثل الانتداب البريطاني في فلسطين سير رونالد ستورس ، بموافقة الجهـــات الدينية المختصة ، حيث كان هذا الجدار يشوه منظر كنيسة المهــد .

مغارة المهد عبر التاريخ

هذا المكان الذي يعرفه الناس حاليا باسم المهد ، هو عبارة عن المغارة التي ولد فيها السيد المسيح . فقد اشار الى هذا المكان لوقا الانجيلي ، الاصحاح الثاني (١ ــ ٦) بما يلي :

« ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك اذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين اين هو المولود ملك اليهود . فاننا رأينا نجمة في المشرق واتينا لنسجد له . فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه ، فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسالهم أين يولد المسيح . فقالوا له في بيت لحم اليهودية . لانه هكذا مكتوب بالنبي : وانت يا بيت لحم ارض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا . لان منك يخرج مدبر يرعى شعبي اسرائيل » .

وقد ذكر القديس الشهيد جوستين St. Justine Martyr عن هذا المكان في سنة ١٥٥م التفسير التالي : « وبما ان القديس يوسف لم يستطع ان يجد له مأوى في قرية بيت لحم حيث كان الخان الوحيد فيها ممتلئا بالقادمين ليسجلوا اسماءهم بموجب امر الامبراطور الروماني التجأ الى اقرب مغارة من القرية . وبما انه من ابناء بيت لحم كان يعرف الكثير من هذه المغاور الطبيعية المنتشرة حول بيت لحم ، والتي كان الرعاة يسكنونها مع مواشيهم في فصل الشتاء . وجاء المخاض فولدت مريم طفلها فلفته ووضعته في مذود للبهائم كان في تلك المغارة ، طلبا للدفء والوقاية من البرد الشديد » .

وذكر القديس جيروم في احد رسائله في سنة ٣٩٥م . « ان الامبراطور هارديان كان قد دنس هذا المكان في السابق عندما اقام معبدا لالهة الرومان فوق هذا المكان . أما الان فقد طهر هذا المكان واصبح مكان عبادة » .

واشار القديس جيروم في رسالة ثانية الى التغييرات التي طرأت على هذه المغارة بقوله : « انه كم يتمنى لو يستطيع ان يشاهد المذود الحقيقي الذي اضطجع فيه المخلص . أما الان فقد أزيل المذود الحقيقي البسيط ، واستبدل بمذود مصنوع من الفضة الخالصة اكراما للمسيح » .

ويتابع القديس جيروم رسالته فيقول : « على كل الاحوال بالنسبة لي فالمذود الذي ازيل هو اغلى ما في الكون ، اما الذهب فقد وجد للبشر ، وان المذود الحقير هو اكثر لياقة ليضطجع فيه الفادي . اني أمجد الرب العلي ، فقد

اختار ان يأتي المخلص للنور ليس في القصور وبين الذهب والفضة ، بل بين الفقر » .

ذكر بعض الحجاج في سنة ٥٧٠م . « ان مغارة المهد صغيره جداً ولا تزال مزينة بالذهب والفضة . وان مدخل المغارة صغير وينزل اليه بدرج يبدا من وسط الكنيسة ويتجه من الشمال الى الجنوب . ثم ينحني من الجنوب الى الشرق . وهذا يؤكد انه كان للمغارة باب واحد فقط » .

ويرجح معظم المؤرخين ان المدخلين الحاليين لمغارة المهد ، اقيما فى عهد الامبراطور جوستنيان عندما اعاد بناء كنيسة المهد الحالية ، في مكان كنيسة القديس قسطنطين . فقد راى المهندسون ان يجعلوا للمغارة مدخلين ليسهلوا على الحجاج والزوار النزول الى المغارة من باب والخروج من الباب الاخر فلا يحصل اي ازدحام ، وخصوصا في ايام الاحتفالات الدينية .

في سنة ١٩٣٤م ، قامت دائرة الاثار العامة في القدس فى عهد الانتداب البريطاني ، قامت بعمل حفريات حول اعمدة كنيسة المهد ، للتأكد من أن هذه القواعد قوية لدرجة تتحمل ثقل العامود وما يحمل فوقه من بناء . فوجدوا ان هذه القواعد قوية ومرتكزة على الصخر مباشرة ، وان اساسها ينخفض حوالى مترا واحدا عن سطح بلاط الكنيسة . كذلك وجدوا عدة دلائل تشير الى وجود اشياء اخرى مدفونة تحت بلاط الارضية الحالية للكنيسة . فأصدر مدير الاثار العامة امره بخلع جميع بلاط الكنيسة والتوسع في الحفريات ، فاكتشفوا أن الارضية الاصلية للكنيسة اوطأ من الارضية الحالية بحوالي ٧٥ سنتمترا ، وانها كانت مبلطة بالموزاييك . لكن معظمها قد اصابها التلف وبقيت اقسام قليلة سالمة ، فأقاموا حولها جدرانا وفوقها غطاء من الابواب الخشبية التي نشاهدها اليوم . وبعد انتهاء الحفريات أعيد البلاط الحجري فوق الاقسام التالفة .

وفي تلك السنة كنت في كل يوم عند الخروج من المدرسة ، اذهب مع رفاقي الطلاب لنتفرج على الحفريات ، وقد تسنى لي فى ذلك الحين مشاهدة الباب الاصلي لمغارة المهد . ويقع هذا الباب في صدر الكنيسة ، وتحت الدرجات التي يصعد عليها الى ظهر المهد من وسط الكنيسة من بين الاعمدة . وينزل الى هذا الباب بدرجات حجرية عرضها حوالي المتر تبدا من الشمال الى الجنوب ، ثم تتجه الى الشرق ببضعة درجات اخرى فتدخل مغارة المهد . لكن دائرة الاثار اعادت اقفال هذا الباب مع الدرجات وتبليطها فوقها . ومن شاء التوسع في الاطلاع على هذه الحفريات يمكنه مراجعة كتاب وضعه بالانكليزية ، المهندس المعماري البريطاني الذي كلفته حكومة الانتداب في فلسطين بالاشراف على هذه الحفريات وتقديم تقرير عن حالة كنيسة المهد المعمارية ولوازم صيانتها . وقد زاد من قيمة هذا الكتاب ما تضمنه من صور فوتوغرافية تمثل مختلف مراحل الحفر والاقسام الاخرى من الكنيسة واسم هذا الكتاب كما يلي : —

Structural survey of the Holy Land Church of Nativity - Bethlehem 1935. University press, London - Hamphecy - Milford.

وذكر الحاج برنارد الحكيم Bernardo the wise في سنة ٨٧٠م ما يلي :

يوجد فى بيت لحم كنيسة واسعة مكرسة باسم العذراء مريم . وتحت صدر الكنيسة يوجد مغارة محفورة في الصخرة ، مكان ولادة السيد المسيح . ولهذه المغارة باب من جهة الجنوب يستعمل للنزول وباب اخر من جهة الشمال يستعمل للصعود . وفي الجهة الشرقية من هذه المغارة يوجد المكان الذي ولد فيه الطفل يسوع ، وأقيم فوقه هيكل تقام فيه القداديس ، وتوجد مقابل هذا الهيكل تجويفة في الصخر ، هي المكان الذي وضع فيه الطفل في المذود بعد الولادة .

فالقديس جيروم ذكر عن وجود هذا الهيكل فى مغارة المهد . كذلك اشارت بعض الكتب الارمنية التي تصف مغارة المهد في القرن السابع الميلادي ، الى وجود هذا الهيكل هناك .

أما ويليبلد Wilibald فقد ذكر في سنة ٧٢٣م . أن مغارة المهد تقع تحت الكنيسة ، ويوجد هيكل فوق مكان ولادة المسيح . كذلك يوجد هيكل صغير ، صنع بحيث يمكن حمله ونقله . فعندما يريدون ان يحتفلوا باقامة قداس في مغارة المهد ، يحملون الهيكل الصغير الى المغارة فيقيمون عليه القداديس ، ويبقى فيها حسب الحاجة ، ثم يعاد ثانية الى الكنيسة .

في سنة ١١٧٢م . ذكر دانيال وثيوديريك Danial and Theodrich انه يوجد هيكل واحد فى مغارة المهد ، يتالف من بلاطة من الرخام ترتكز على اربعة اعمدة صغيرة ، وهذا الهيكل مقدس جدا ، ويوجد تحته نجمة محفورة في الرخام ، ومكتوب عليها : « في هذا المكان ، ولدت العذراء مريم الطفل يسوع المسيح » .

ما تقدم أمثلة بسيطة عما ذكره الكثيرون عن مشاهداتهم في زيارتهم لكنيسة المهد في بيت لحم خلال العصور الغابرة . فقد ذكروا أيضا أن مغارة الميلاد والكنيسة كانت أرضيتهما مبلطة بالرخام الفاخر والموزاييك ، كذلك الجدران كانت مغطاة بألواح الرخام . ولكن هذه البلاطات أخذت تقل وتختفي بالاعتداء على الكنيسة ممن كان يحكم البلاد من الغزاة .

اما عن الموزاييك البديع الصنع ورسومات العذراء والقديسين داخل مغارة المهد والكنيسة ، فقد تغنى به الكثيرون ، مشيرين الى جماله ودقة صنعه والايدي الماهرة التي حققته . مئات الحالات يجدها الباحث فى كتب التاريخ تتحدث عن رسومات المجوس ساجدين للطفل يسوع وهم يقدمون هداياهم وغيرها من حوادث الانجيل ، وقد صورت بابدع نصوص وتصوير .

منظر مغارة المهد كما كان في حوالي سنة ١٦٠٠ م ٠

عن صورة محفوظة في أحد الاديرة في ايطاليا

مغارة المهد في الوقت الحاضر

كما راينا مما تقدم ان مغارة المهد تقع تحت هيكل الكنيسة مباشرة ، وقد كانت في اول عهدها يدخل اليها من باب يقع تحت الدرجات الحالية التي يصعد منها الى ظهر المهد . ولما أعاد الامبراطور جوستنيان بناء هذه الكنيسة أقفل مهندسون هذا الباب وجعلوا للمغارة بابين أحدهما للنزول والاخر للخروج ، وينزل منهما الى المغارة بعده درجات .

اما البابان اللذان نشاهدهما في الوقت الحاضر فيرجع عهدهما الى القرن الثاني عشر الميلادي ، أي الى زمن الصليبيين . فكل باب وما حوله مبني من الرخام الابيض المصقول . وكل باب عبارة عن قوس اكبر ويليه قوس أصغر منه ، وكل قوس له عامودان على جانبيه . فالباب الشمالي ينزل اليه بستة درجات من الحجر الوردي على شكل نصف دائرة ، ثم ينزل من الباب الى الداخل عشر درجات . وكل مدخل له باب حديدي من زمن الصليبيين ايضا . والباب الجنوبي نفس نموذج الباب الشمالي وينزل منه الى داخل المغارة ، بست درجات فقط .

وعندما تنتهي من نزول الدرجات ،تواجهك أرضية مستطيلة الشكل ، بمساحة ١٢ر٣٠ x ٣ر٥٠ مترا والمغارة تقريبا معتمة مضاءة بـ ٤٨ قنديلا . وفي القرن السادس رممت جدران المغارة الجانبية ، لتصلح لتلبيسها ببلاط الرخام من الارضية حتى السقف . أما الجدران الصخرية الطبيعية فيمكن مشاهدتها فوق مكان المذود .

واول ما يواجه الداخل الى مغارة المهد هيكلا اقيم منذ القدم ، ويوجد تحته نجمة محفورة في الارضية تشير الى مكان ولادة السيد المسيح . وعلى هذا الهيكل يقيم الروم والارمن صلواتهم في أوقات محددة لكل منهم .

ويقابل هذا المذود تجويفة في الصخر ينزل اليها بثلاث درجات ، ويسند سقفها عامود من الحجر الوردي من نفس حجر اعمدة الكنيسة ، طوله حوالي مترين يرجح انه من عمل مهندسي جوستنيان ليكون دعامة قوية يحمل ما فوقه من بناء . وفي زوايا هذه التجويف يوجد عامودان من الرخام الابيض حفر عليهما الحجاج عدة صلبان صغيرة .

وفي هذا المكان وضع مذود من الرخام الابيض ، لان المذود الاصلي قد تلاشى حيث كان الحجاج في الماضي يقطعون قطعا منه ويأخذونها الى بلادهم

بركة من الاراضي المقدسة . وسند السقف أمام المذود عامود من الرخام الاخضر .

أما ارضية مكان المذود فقد ادخلت عليها عدة تصليحات لتعوض التلف الحاصل من وطء اقدام ملايين الحجاج والزوار الذين زاروا هذا المكان . أما أرضية المغارة فانها حاليا مبلطة ببلاط الرخام ، الذي كان يوما ما ناصع البياض ،

فأصبح في الوقت الحاضر داكنا من دخان القناديل ومن وطأة اقدام ملايين الاشخاص الذين داسوا فوقه على مرور الزمن .

وأمام المذود أقيم هيكل كرس باسم المجوس ، وعليه يقيم اللاتين قداديسهم في مغارة المهد . وفوق مذبح المجوس وخلف مكان المذود نشاهد صورتين بديعتين من رسم الفنان الايطالي جون فافليولي ، رسمت في القدس في سنة ١٨٧٥م ، ووضعت في مكانها الحالي سنة ١٨٨٥م . واحدة تمثل منظر المجوس والاخرى تمثل منظر الرعاة الساجدين للطفل . ورسم الفنان نفسه لوحة الجلوريا المعلقة على الحائط العلوي فوق المذود . وجلوريا هو الاسم اللاتيني للنشيد السماوي الذي جاء ذكره في الانجيل ، بأن الملائكة انشدنه عند ميلاد السيد المسيح قائلين : « المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وللناس الصالحين المحبة » .

وقد تعرضت مغارة المهد على مرور الزمن لعدة زلازل ونشوب حريق وقد جاء في كتاب حياة الاب انطون بلوني ، قانوني القبر المقدس ومؤسس مدارس الايتام في فلسطين ، تأليف الاب المرحوم يوحنا النحاس السالسي ، والمطبوع بالمطبعة الشرقية بالاسكندرية في سنة ١٩٠٩م . اشارة الى الحريق الذي نشب في مغارة المهد في ٢٥ نيسان ١٨٧٣م . ما يلي :

« وهنا اذكر ان الاب بلوني تلقى في ١٩ نيسان سنة ١٨٧٣م ، تلغرافا من احدى المحسنات ترجوه ان يقدم على نيتها قداسا في المهد لاجل شفاء ابنها الذي كان له من العمر ٣ سنين وقد سقط في بركة ماء فكاد يختنق فيها ، وحيث ان مطالب كثيرة سابقة كان ينبغي وفاؤها اولا اجل هذا القداس الى ٢٥ من الشهر عينه . ففي هذا اليوم ذاته شفي الولد ورزقت المرأة ولدا اخر دعته باسم يوسف اكراما لهذا القديس الذي خدم الطفل يسوع وتبناه على الارض . فلم تمض ساعتان من تقدمته الذبيحة الالهية واذا بمنازعة عظيمة حدثت بين الروم والاباء الفرنسيسيين فكان عدد الاولين لا يقل عن المائتين وهم مسلحون بالخناجر والعصي وغير ذلك فدمروا الهيكل الذي كان يخص الاباء الفرنسيسيين ، وحرقوا طنافس المغارة المقدسة والستائر التي كانت فرنسا قد أهدتها بعد استئذان الدولة العثمانية ، وجرحوا ثمانية رهبان وكانت جراح اثنين منهم خطرة . ولولا توسط

تنصل فرنسا ارنست كربون وحزمــــه في اخماد نيران الثورة لكانت قد جلبـــت اضرارا فادحـــة .

وأما قناصل اسـبانيا وايطاليـــا والنمسا وأنكلترا وروسيا فاحتجوا ضـد مثيري الثورة ، وطلبوا من دولتهم معاقبتهم او مطاردتهم بقوة الجنود مع حفـــظ حقوق فرنسا فى حماية الشرق ، فتلافى جلالة السلطان الامر واصدر ارادة سنية في تشييد ثكنة لمائة جندي ودار للحكومة في بيت لحم . واما متصرف أورشليم فألف لجنة تصدرها قنصل فرنسا فحكمت على الروم بغرامة ١١٠٥٠٠ فرنك تعويضــا للاباء الفرنسيسيين ثم تجديد الهيكـــل المنقوض . وعزل اسقف الروم افتيميوس مع راهبين اخرين وأمرت الدولة بوضـــع سجف على نفقتها لا تزال حتـــى الان تستر جدران المغارة المقدسة » .

وفي الوقت الحاضر تغطى ثلاثـــة جدران من المغارة بستائـــر من مـــادة الاسبسنوس قدمها في ســـــنة ١٨٧٤م مارشال مكماهون رئيس جمهورية فرنسا في ذلك الحين ، يتخللها ثقوب تربط فيهـــا حبال القناديل لرفعها او خفضها عنـــد تزييتها واشعالها . وخلف هذه الستـــار لا يزال بلاط رخام القرن الثاني عشـر يغطي الجدران . وعلى هذا الستـــار توجد بعض الصور ، ولكنها ليست ذات أهمية فنيــــة .

وحول حنية مكان الولادة ومكـــان المذود توجد ستائر ثمينة تزين المكـــان ، ولكنها فى حرب دائم مع دخان القناديـــل وايادي الزوار . وضعت هذه الستائـــر البديعة في مكان الستائر الثمينة جـــدا وذات الشكل الباذخ ، والتي احترقـــت في حريق سنة ١٨٧٣م . والجانب الغربي من مغارة المهد مغلق بحائط يوجد خلفـــه ممر يؤدي الى مغارة القديس جـــيروم ، ارضيته أوطأ من أرضية المغارة وسقفـــه اعلى قليلا من سقف المغارة . ويوجـــد على هذا الحائط بضعة رسومات مـــن الدهان تمثل قديسين تشبه قاعة بـــرج اجراس كنيســـة .

ومن الصلبان المحفورة في قصـــارة الجدران يمكننا ان نستنتج ، انه منـــذ قديم الزمان وهذا المكان مكرس ومكـــرم من قبل ملايين البشر . وأن وجود هذا الحائط منذ القرن السادس يقلل مـــن مساحة المغارة ، ولكنه يقرب المسافـــة الى المغاور المجاورة التي يسكنها الكثيرون مثل القديس جيروم وبولا واستوكيـــا ورفاقهم من المسيحيين الاولين .

مغـــاور جيروم فى بيـــت لحـــم

لم يمض وقت طويل على بناء كنيسة الميلاد حتى اصبحت بيت لحم أهم مركـــز لحياة الرهبنة والتنسك للديانة المسيحية . فجاء اليها الكثيرون من الرهبان والراهبات واقاموا فيها وحولها امتدادا الى الشرق في برية يوحنا المعمدان حتى شـواطـــىء البحر الميـــت .

في سنة ٣٨٢ بعد الميلاد قدم الـــى بيت لحم للاقامة فيها الكاهن صفرونيوس وسيبيوس جيرونيموس من بلدة ستريدون من مقاطعة دالماسيا وكان قصده ان يدرس الانجيل ويتعمق في تفهم معانيه ، فاستقر فى كهف يقع تحت الحنية الشمالية لكنيسة الميلاد . وكان هذا الكاهن يقيم في رومـــا حيث كان يقوم بمهام سكرتير البابـــــا داماسوس (٣٢٦ — ٣٨٤م) ولكن مهام عمله هذا لم تترك له اي وقت لتحقيـــق امنيته بالقيام بدراسة عميقة للانجيـــل ،لذلك فكر بالذهاب الى بيت لحم لينقطـــع عن العالم ويتفرغ كليا لتحقيق طموحه هذا وتحقيق هذه الامنية التـــي طالـــما راودت مخيلته منذ سنوات طويلة .

وقد درس جيروم اللغة العبرية على يد الحاخام بارحنينا الذي كان قد اعتنـــق الديانة المسيحية ، والذي كان يدرسهـــا ليليا وخفية في صومعتـــه حتى أتقنهـــا . فأقام في كهفه تحت الكنيسة مدة ٣٦ سنة باستمرار ، وعاش فى حالة تقشف شديد وصلوات وعبادة . وكان جيروم نشيطا جدا في البحث في علم اللاهـــوت ، ودحضـــــ ادعاءات معارضي العقيدة المسيحيـــــة بالبراهين القوية والحجج الدامغة التـــي لا تدحض ، فأثار هذا انتباه البابا القديس داماسوس ، فكلفه بمشروع ضخـــــم بأن يراجع التراجم اللاتينية للانجيل ، وان يضع نسخة جديدة للانجيل مأخوذة مـــن النسخ الموجودة باللغتين العبرانيـــــة واليونانية فكان ناتج عمله هذا خلال عدة سنوات ، النسخة اللاتينية للانجيل التي عرفت فيما بعد باسم الفولجاتا Vulgata ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا بقيـــت هذه الترجمة هي النسخـــة الرسميـــــة للانجيل في الكنيسة الكاثوليكية .

وبعد مرور سنوات قليلـــة مـــــن استقرار القديس جيروم فى بيت لحـــم لحق به كثيرون بعد تنصرهم ، ومــــن بينهم امراة نبيلة سليلة أشرف العائـــلات الرومانية في ذلك الحين وهي من عائلات كراتشي Gracchi وسيبيوس Scipios وهي النبيلة بولا Paula ، وثم لحقت بهـــا ابنتهـــا استوكيـــوم Estochium ثم لحقت بهما مجموعة كبيرة من السيدات من انبل العائلات الرومانية في ذلك الحين ، فقدمت النبيلة بولا كل ثروتها لبناء ديـــر القديس جيروم ورفاقه من الرهبان ، ودير اخر لها وللراهبات اللواتي تبعنها ، ومنزل اخر خاص لاستقبال الحجاج والـــــزوار

الوافدين الى بيت لحم للزيارة وللتبرك من الاماكن المقدسة ، فكان دير جيروم مكان مدخل كنيسه القديسة كاترينا حاليا ودير الراهبات في الجهة الشمالية من الكنيسة فى مكان دير الارمن الحالي . وهكذا اصبح القديس جيروم الاب الروحي الاعلى لهؤلاء الذين عاشوا بكل تواضع وخشوع وتقوى تملأ نفوسهم حرارة الايمان الوافر ، لدرجة كانت تلفت انتباه كل من زار بيت لحم في أيام حياتهم ، وكتب الكثيرون منهم عن حياة جيروم ورفاقه المنقطعين عن الدنيا والمتفرغين للعبادة .

وبالاضافة الى ترجمة الانجيل من النسخ العبرانية واليونانية ، فان القديس جيروم كتب الكثير من الشروح والتفسيرات لما جاء في الانجيل ، فكانت تدرس وتفحص بكل دقة من قبل بولا وابنتها اسنوكيوم . وهكذا تكون فريق ثلاثي من المتعبدين لازموا بيت لحم مدى حياتهم ، وكانت بولا قد قالت عند وصولها الى بيت لحم : « هذا مكان آخرتي ما دام المخلص قد اختار بنفسه هذا المكان لولادته ولذلك فأنا أيضا أرغب في البقاء فى هذه البقعة وأرغب ان أدفن فيها » . وقد تحققت امنيتها هذه ، فدفنت هي وابنتها والقديس جيروم في نفس المغاور . ولذلك يجد الزائر لتلك المغاور ثلاثة قبور ، وينزل الى هذه المغاور بدرجات من المؤخرة الشمالية لكنيسة القديسة كاترينا الراعوية في بيت لحم .

وجاء فى رسائل جيروم بعد وفاة بولا ما يلي : —

« لقد حفرت ذكراك على حجر قبرك ، حتى عندما تنتهي أيامي يستطيع الزائر ان يعلم بأنك من قبلي قد شرفت (اي أكرمتك ونلت شرفا) وانك في بيت لحم دفنت » .

في سنة ٣٩٥م . قسمت الامبراطورية الى امبراطورية شرقية وعاصمتها القسطنطينية واخرى غربية وعاصمتها روما ، كما هو معروف في التاريخ ، واصبحت الامبراطورية الرومانية الشرقية تسمى بيزنطية Byzantium نسبة الى بيزنطة ، وهي مدينة يونانية قديمة تقع على مضيق البوسفور . وقد بنى الامبراطور قسطنطين في موقعها عام ٣٣٠م مدينة كبيرة فخمة كبيرة سماها القسطنطينية تخليدا لاسمه . وقد بقيت هذه المدينة تحمل هذا الاسم قرونا طويلة حتى جاء العهد العثماني وسماها الاستانة وتعرف اليوم باسم استانبول ، وهكذا منذ سنة ٣٩٥م اصبحت فلسطين من نصيب الامبراطورية البيزنطية .

فلما حكم روما الامبراطور الاريكس فيزوكس Alarics Visogoths فى سنة ٤١٠م ، اضطهد اصحاب العقيدة المسيحية من اتباع القديس بطرس اضطهادا شديدا ، مما حملهم على القيام بهجرة جماعية ضخمة الى اقطار الامبراطورية الشرقية البيزنطية طلبا للامان . وقد لجأ عدد كبير منهم الى بيت لحم ، لدرجة أن القديس جيروم عجز عن تقديم المأوى لجميعهم ، حتى اضطر ان يبيع بيتا له في بلدته سيرون ، وينفق ثمنه على مساعدة اللاجئين الى بيت لحم ، حتى نفذ كل ما تملك يداه .

وفي عام ٤٠٤م توفيت بولا ودفنت في القبر المعد لها في مغارة جيروم ، وفى عام ٤١٩م توفيت ابنتها استوكيوم ودفنت في القبر المعد لها بالقرب من قبر أمها في مغارة جيروم ، الا أن رفاتها نقلت فيمابعد الى روما . وفى عام ٤٢٠م توفي جيروم عن عمر يناهز الثانية والتسعين ، ودفن في نفس المغارة ، تنفيذا لرغبته وتوصيته لاتباعه بأن يدفن في هذا المكان . وقدذكر الحاج بياسيزا في سنة ٥٧٠م بأن الكاهن المتعبد جيروم قام بحفر لحد لهقرب مدخل مغارة الميلاد قبر فيه . وقد قيل ان رفات هذا الانجيلي قد نقلت الى كنيسة ثانية ، ربما الى القسطنطينية او روما . وفي القرون الوسطى كان القبر خاليا من الجثة ، وبقي لذكرى القديس جيروم .

فى سنة ١١٧٢م ذكر ثيودريك Theodrich ، ليس بعيدا من مهد سيدنا يسوع المسيح يوجد قبر القديس جيروم المبارك ويقال ان رفاته قد نقلت الى القسطنطينية بأمر الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius الصغير مما جاء في رسالته يثبت ان القبر قد اعتدى عليه قبل مجيء الصليبيين الى بيت لحم .
وذكر اميكو B. Amico الذي كان رئيسا لدير الفرنسيسكان في بيت لحم في سنة ١٥٩٠م ، ذكر بأن قبر جيروم حول الى هيكل تقام عليه القداديس وأن قبره يرتفع عن الارض خمسة اشبار ، وبطول عشرة اشبار من الزاوية الى الزاوية ، وبعرض ثلاثة اشبار ونصف ، والقسم العلوي من القبر وكذلك جوانبه مبنية ببلاط الرخام الجميل . وذكر اخرون انه في المغارة المجاورة قبر ايسوبيوس .

وبعد وفاة القديس جيروم انتخب مساعده ايسوبيوس خلفا له ، ولكن هذا الخلف ما لبث ان توفى بعد ذلك بسنتين ، فانفرط من بعده عقد الرهبنة في بيت لحم . واما دير الراهبات فقد استلمت ادارته بولا الصغيرة حفيدة بولا المؤسسة .

في سنة ١٩٤٧م قام الاب باليرمو باجاتي Balermo Baghatti الذي كان يشغل منصب رئيس حراسة الارض المقدسة ، قام الاب المذكور بدراسة كل ما وجد من اثار أثناء تجديد مغارة القديس جيروم . وان الحفريات التي اجريت في ارضية المغارة والممرات المحيطة أخرجت الكثير من اثار القرن الثاني عشر .

جاء في وصف حياة القديس انطوني Anttony التي كتبها القديس اثناسيوس انه فى سنة ٣٧٥م . جاءت الى القدس المراة الرومانية النبيلة المسماة ميلانيا Melania بعد ان امضت مدة من الزمن في مصر ، وكان يصحبها الراهب روفينوس Rofinus . وان ميلانيا قد بنت ديرا على جبل الزيتون في مكان صعود السيد المسيح الى السماء ، سكنته خمسون راهبة وان الراهب روفينوس استقر ايضا على جبل الزيتون ، حيث كان هناك عدة اديرة للرهبان واخرى للراهبات ، وان مجموعة هذه الاديرة قد تلاشت عندما توفيت ميلانيا وابنتها بسنوات قليلة .

رواق القديس جيروم

الرواق هو بناء مسقوف ، مقامة جوانبه على اعمدة يحيط بدير او فناء من جوانبه الاربعة . وهذا هو حال رواق القديس جيروم الذي يشاهده الزائر الى كنيسة الميلاد في بيت لحم ، عندما يدخل كنيسة الميلاد ويخرج من بابها الشمالي للدخول الى كنيسة القديسة كاترينا الراعوية لطائفة اللاتين في بيت لحم .

هذا الرواق احتل قمة المباني التاريخية القديمة فى فلسطين ، حيث اعتبر ابدع نموذج لاديرة القرون الوسطى ، ويليه في الاهمية دير القديسة مريم والذي اقيمت مكانه حاليا كنيسة المخلص البروتسطانطية في القدس وكنيسة القبر المقدس . فلا يوجد في وقتنا الحاضر سوى أماكن قليلة من المباني ذات القيمة الاثرية جدا .

في سنة ١٩٤٩ م قررت حراسة الاراضي المقدسة ، اي رئاسة رهبنة الفرنسيسكان في فلسطين ، قررت ترميم هذا المكان واعادته الى قديم عهده قدر الامكان . فأوكلت بهذه المهمة الى المهندس المعماري الايطالي الشهير بارلوزي A. Eerluzzi فكانت مهمة معقدة وصعبة بسبب قدم البناء وما واجهه من قساوة العصور السابقة والعوامل الطبيعية الاخرى مثل الزلزال والحريق .

واما الجدران التي تحتوي على الاعمدة التي نراها اليوم كانت فى تلك لسنة مدفونة ضمن بناء اقيم على عده مراحل لدعم الجدران من السقوط . وكانت الساحة الموجودة حاليا في وسط الرواق مبني فوقها ست غرف كبيرة استعملت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين حتى سنة ١٩١٤م اي عندما أعلنت الحرب العالمية الاولى ، استعملت مدرسة للاباء الفرنسيسكان لتعليم ابناء رعية اللاتين في بيت لحم . وكان يدرس في هذه المدرسة اللغات العربية والايطالية والافرنسية والحساب والتاريخ والمراسلات التجارية ، فكانت اول مدرسة من نوعها فيبيت لحم بل فيفلسطين كلها ، وفي وقت عم الجهل والامية فلسطين وبلاد الشرق .

وقد توقفت هذه المدرسة لمدة اربع سنوات خلال الحرب العالمية الاولى بناء على طلب السلطات العثمانية . ثم أعيد افتتاحها في سنة ١٩١٩م في الطابقين الاول والثاني من بناية الكازانوفا التي بنيت في سنة ١٩٠٨م . فكانت هذه المدرسة تتوسع سنويا حتى شملت الصفوف الابتدائية فالاعدادية ثم الثانوية فكانت

نواة كلية تراسنطا الحالية فى بيت لحم .وهكذا اخرجت هذه المدرسة خير رجال بيت لحم في القرن الماضي والقرن العشرين الحالي .

ومنذ سنة ١٩١٩م استعملت هذه الغرف مقرا ومركزا للجمعية الانطونية الخيرية البيتلحمية حتى سنة ١٩٣٠م حيث جرى الحريق المعروف لمقر الجمعيه فدمرت هذه الغرف ، ورممت ثانية واستعملت مقرا لغرفة كشافة المهد التي تأسست سنة ١٩٣٢م . ولنا عودة في الفصول القادمة الى جولة تاريخية لهذه المدرسة والجمعية الانطونية الخيرية وكشافة المهد ، لان اخبارها حوت الكثير جدا مما يهم جيلنا الصاعد من البنين والبنات ، كي يطلعوا عليه ليروا كفاح ونضال اجدادهم ومن بعدهم في بناء مجتمعنا الحالي في بيت لحم . وليروا كيف استطاعت الجمعية الانطونية الخيرية التي تأسست سنة ١٩١٣م ، ان تستمر فى الازدهار والتقدم حتى يومنا هذا . وكيف استطاعت ان تنشىء وتديردار العجزة الحالية في بيت لحم ، رغم الحروب والاضطرابات التي سادت البلادمنذ مطلع القرن الحالي حتى اليوم . فكانت دار العجزة التي اصبحت نرعى اكثر من ستين نزيلة من العاجزات ، كن يوما خير أمهات ومصدر سعادة لعائلاتهن تنكر لهن الابناء والاحفاد وزوجاتهم ، فحفظت لهن هذه الجمعية الحياة الكريمة في شيخوختهن .

فلما بوشر بالترميم في سنة ١٩٤٩م وكان الانتداب البريطاني على فلسطين في نهاية عهده ، حيث كانت السلطات البريطانية تضع العقبات وتمانع في الاصلاحات داخل الاديرة لاسباب فى نفس يعقوب . فأزيلت جدران هذه الغرف وسقوفها من وسط الساحة ، وبوشر بازالة القصارة عن الجدران الجانبية لهذا الرواق ، فاكتشف ان الجدران هي مجموعة اقواس وكل قوس مقسم بالاعمدة الى ثلاثة اقسام ، يساوي القسم الاوسط نصف القوس ويساوي كل جانب ربع القوس . واتضح ان معظم هذه الاعمدة قد ازيلت من اماكنها واختفت . وبعضها مائل منحرف عن مكانه للخارج ، واعمدة اخرى قد تلفت بفعل الحريق والزلازل وعوامل الطبيعة خلال الزمن الطويل الذي مر منذ بنائها الاول . وكل جانب مكون من أربعة أقواس فيكون مجموع اقواس جوانب الرواق الاربعة ستة عشر قوسا .

واتضح ايضا ان اقواس الجدران لم تعد مدعومة بهذه الاعمدة ، وان معظم تيجان هذه الاعمدة قد تفتتت او فقدت . فجرى نحت اعمدة جديدة تشابه الاعمدة القديمة في الحجم والشكل ، ونحتت تيجان حجرية بدل المفقودة او التالفة . وقد كانت الاعمدة والتيجان الجديدة من حجر بيت لحم ، فقطعت من الصخر وشغلت بأيدي نحاتين مهرة من ابناء بيت لحم توارثوا مهنة النحت من الاباء الذين ورثوها عن أجدادهم .

وجرى ترميم هذه الاقواس واحدا واحدا بكل عناية ومشقة حتى اصبحت على الشكل الذي نراه اليوم مطابقة تماما للشكل الاصلي . واذا دقق الزائر نظره

قليلا في هذه الاعمدة استطاع ان يميـــز بكل سهولة الاعمدة والتيجان القديمة عن الاعمدة والتيجان الجديدة من لونهـــا ، فالقديم داكن اللون نوعا ما والجديـــد أبيض زاه . وقد أزيل الجدار الشـــرقي من هذا الرواق عندما جرى توسيـــع كنيسة القديسة كاترينا الملاصقة للرواق في تلك السنة ، أي سنة ١٩٤٩م .

فهذا الرواق يقع مباشرة فى الجهة الشمالية من كنيسة المهد ، ويرتكـــز عقده على جدارها . ويوجد مدخــــل يؤدي من كنيسة المهد الى هـــذا الـــرواق وهذا المدخل هو الممر التقليدي للمـــرور الى كنيسة القديسة كاترينا في المناسبات الدينية الرسمية . فان الدخول الـــى كنيسة القديسة كاترينا يأتي من مدخـــل كنيسة المهد المعروف باسم الباب الصغير الى بين الاعمدة ، ومنها يعرج الداخلـــون الى الشمال للمرور من هذا الباب الـــى رواق جيروم ، ومنه الى كنيسة القديسة كاترينا الراعوية . ومن هذا المدخـــل التقليدي تدخل مواكب العرسان لعقـــد الاكاليل ، وكذلك مرور الجنازات الـــى كنيسة القديسة كاترينا للصلاة علـــى الموتى قبل الدفن . ومن هذا المدخـــل يدخل موكب غبطة بطريرك اللاتين الـــى كنيسة القديسة كاترينا الملاصقة ، لاقامة صلوات واحتفالات عيد الميلاد .

كنيسة القديسة كاترينا

ندخل الى هذه الكنيسة من المدخل الرئيسي لكنيسة المهد ثم ندخل من بين اعمدة الكنيسة الى باب صغير جدا في الجهة الشمالية يؤدي الى رواق القديس جيروم ومنه الى كنيسة القديسة كاترينا . وفي سنة ١٩٠٦م لما بنيت دار الضيافة « الكازانوفا » جعل مدخل اخر جديد مشترك يؤدي الى الكازانوفا والى رواق القديس جيروم المؤدي الى كنيسة القديسة كاترينا .

وفي سنة ١٩٨٠م لما جرى هدم الكازانوفا لاقامة فندق ضخم ، وحديثا فتح باب قديم كان مقفلا ببناء سميك مكانها ، وجعل المدخل البديل لمدخل الكازانوفا ويؤدي مباشرة الى رواق القديس جيروم وهو المدخل الحالي ذو بابين واحد مقفل بباب حديدي واخر مفتوح لدخول المصلين والزائرين في أوقات النهار ، ويقفل من غروب الشمس حتى شروقها . أما المدخل من الكازانوفا فقد اقفل بالحجارة في أواخر شهر تموز ١٩٨٤ .

حتى قبل سنة ١٣٤٧م كانت الكنيسة مكرسة باسم القديسة كاترينا الاسكندرية ، كما كانت تدل على ذلك الرسوم المختلفة المنقوشة على جدران الكنيسة ، ومنذ القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر لم يجر أي تغيير يذكر على بناء الكنيسة . ولكن عدد رعية اللاتين في بيت لحم تكاثر ، فلم تعد الكنيسة تكفي لاستيعاب نصفهم ، فكيف تتسع لجميع ابناء الطائفة والزوار في مواسم الاعياد ؟

وعليه جرى توسيع الكنيسة ،وصممت ثلاثة هياكل للصلاة ، الاوسط وقد امتد مكانه الى خلف الهيكل الاساسي وجعل على الجانبين هيكلان اصغر من الاوسط ، كرس الايمن للقديس انطون البادواني وكرس الهيكل الايسر للقديس فرنسيس الاسيزي . وجعل هيكل جانبي الى جهة الجنوب فوق مدخل مغاور القديس جيروم وكرس باسم العذراء مريم . والحق في الزاوية الجنوبية الشرقية من الكنيسة سكرستيا اي مكان حفظ ملابس الصلاة للكهنة ولوازم القداديس ، وهكذا تضاعف اتساع الكنيسة . فالكنيسة كما تظهر في وقتنا الحاضر ، على النمط الروماني مقسمة الى ثلاث ردهات مفصولة بأقواس حجرية والقسم الاوسط يرتفع الى ضعف ارتفاع الجوانب اقيمت في قسمه المرتفع مجموعة شبابيك تنير داخل الكنيسة .

وذكر المرحوم الاب البيرتو ريشاني ابن الناصرة وخوري رعية اللاتين في

بيت لحم حتى سنة ١٩٥٢م ، في كتاب الفرنسيسكان في بيت لحم ، عن كنيسة القديسة كاترينا ما يلي :

« كان الاباء الفرنسيسكان يقيمون المراسيم الدينية في كنيسة المهد فيتقاطر المسيحيون من داخل البلاد وخارجها للحضور هذه الصلوات . ولكن تلك الكنيسة التي امتلكوها الى سنة ١٧٥٧م ، أخذها منهم الرهبان اليونان بفرمان من السلطان مراد الرابع ، ولكنهم استعاضوا عنها بالكنيسة المشادة على اسم القديسة كاترينا البتول الشهيدة بعد أن رمموها ، وبدأوا يقيمون الاحتفالات الدينية فيها في مختلف المناسبات » .

« ولكن مع مرور الزمن اصبحت هذه الكنيسة غير كافية لاستيعاب أبناء رعية اللاتين في بيت لحم لتزايد عددهم ، فضلا عن الوافدين الى بيت لحم للحج والزيارة والتبرك من الاماكن المقدسة . ولما زار امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف الاماكن المقدسة في سنة ١٨٨٠م التمس منه الاباء الفرنسيسيون المساعدة لتوسيع كنيسة القديسة كاترينا وجعلها تتسع لجماعة المصلين والزائرين . لبى الامبراطور الطلب واخذ على عاتقه دفع جميع التكاليف اللازمة ، وبوشر بالعمل الذي انتهى في سنة ١٨٨٢م . وفي الخامس عشر من اب من تلك السنة (أي يوم عيد العذراء مريم) دشن الكنيسة حضرة الحارس العام للاراضي المقدسة » .

في سنة ١٩٤٨ حينما جرى ترميم رواق القديس جيروم الواقع أمام هذه الكنيسة جرى توسيع اخر للكنيسة الى جهة الغرب فزيد امتدادها اربعة أمتار اخرى اقتطعت من الجانب الشرقي من رواق القديس جيروم ، وجعل المدخل الرئيسي للكنيسة من هذه الناحية له باب عرضه ثلاثة أمتار ، والباب الجديد من البرنز مزدان بأربع صور ، فالاولى للقديس جيروم والثانية لرفيقه القديس ايسوبيوس والثالثة الى النبيلة بولا والرابعة الى ابنتها استوكيوم . وهذا الباب من عمل الفنان الايطالي مورتيت A. Mortet في روما . وقبل ارسال هذا الباب الى بيت لحم جرى عرضه في معرض الفنون المقدسة الذي اقيم في روما في سنة ١٩٥٠ الذي اعتبر عام السنة المقدسة .

والدخول حاليا للكنيسة من ثلاث ابواب الاوسط في صدر الكنيسة من جهة الغرب اي من وسط رواق القديس جيروم . والثاني من الجنوب يوصل اليه من الممر الجنوبي لرواق القديس جيروم ، ومن باب اخر صغير بجانبه يصل كنيسة المهد من أمام هيكل الارمن . وهذا المدخل الواقع في أقصى يمين الكنيسة من جهة مغارة المهد له باب حديدي له أضلاع مشبوكة مع بعضها بحديد مزخرف بشكل فني ، من عمل الاب سلفيريو Selverio في سنة ١٧٠٠م .

وهذا الباب يقفل عادة بعد غروب الشمس أما الجزء العلوي من سياج الحديد فوق الباب فقد عمل في سنة ١٩٥٠م بعد أن قام اللصوص عدة مرات

في الدخول من فوقه الى الكنيسة لسرقـــه بعض محتوياتها . فكان اللصوص يقفزون من فوق هذا الباب للدخول الى الكنيسة والخروج منها من مكان دخولهم . ويقابل هذا المدخل من الجهة الشمالية مدخـــل يؤدي الى دير الفرنسيسكان والى الممـــر القديم لكنيسة القديس اغسطين القديمة والى المدخل الخارجي من جهة الكازانوفا وهذا الباب مصنوع من الخشب السميك . وعليه كتابة تفيد انه صنع في سنة ١٧٢٩ .

وفي داخل الكنيسة وبالقرب من هذا الباب الخشبي يوجد تجويف في الجـــدار اعد لمراسيم العماد منذ القرن الماضـــي ولا يزال يستعمل لهذا الغرض حتـــى يومنا هذا . وجرن العماد من الرخـــام اقيم في مكانه سنة ١٧٣٤م ، كما تـــدل الكتابة المنقوشة على جانب الجرن .

وفي هذه الكنيسة يقيم بطريـــرك اللاتين احتفالات عيد الميلاد فيحضر مـــن القـــدس في موكب خاص بعد ظهر يـــوم ٢٤ كانون أول من كل عام في احتفـــال خاص حيث يستقبل رســـميا وشـــعبيا ، ويدخل هذه الكنيسة ويقيم صلاة خاصـــة لمدة ساعة . وحوالي الساعة الحاديـــة عشرة ليلا يقام قداس منتصف الليـــل ويحتفل بعيد الميلاد ، كما جاء ذكـــــره في الفصل السابق .

وفي كل عام منذ سنة ١٩٨٠ ينقـــل هذا القداس على شبكات التلفزيـــون بواسطة الاقمار الاصطناعية الى سائـــر انحاء المعمورة في بث مباشر . وهكـــذا يتسنى للملايين من ســـكان المعمـــورة مشاهدة هذه الاحتفالات والمشاركة فـــي حضور قداس ليلة عيد الميلاد والـــدورة الاحتفالية التي تليه من كنيسة القديســـة كاترينا الى مغارة المهد في نفس الوقـــت اثناء اقامتها في بيت لحـــم .



هيكل كنيسة القديسة كاترينا ، الذي بني بعد توسيع الكنيسة سنة ١٨٨٢م

القديسة كاترينا

تعرف باسم الشهيدة كاترينا الاسكندرانية . ولم أجد لها ذكرا في الكتب العربية ، حتى جاء الاب جبرائيل بريير الكاهن الفرنسيسكاني ، فأصدر كتابه المسمى « الى جبل الرب الى سيناء » بعدقيامه برحلة الى جبل الرب ، ودير سيناء في سنة ١٩٧٥م . وكان قد نشر اخبار رحلته هذه تباعا في مجلة السلام والخير التي يصدرها الاباء الفرنسيسكان في القدس . وكانت معلومات وصورة تاريخية تنشر لاول مرة . وجاء في الكتاب المذكور اعلاه تفاصيل حياة وسيرة القديسة كاترينا الشهيدة نجملها للقراء بما يلي :

تزعم الاسطورة التي يرويها رهبان دير القديسة كاترينا في سيناء لمن يزورهم ، بأن كوستوس والد القديسة كاترينا كان ملكا على اكليكية في اسيا الصغرى (حاليا تركيا) وكانت امها ابنة أمير من طائفة السامريين واسمها سابينيا .

ولدت كاترينا في عام ٢٨٩م . ولكنها عاشت وترعرعت في الاسكندرية ، منارة العلوم في تلك العصور الخوالي ، وقبلة النفوس المتعطشة الى العلم والفلسفة . ونهلت كاترينا من ذلك المعين ، فتفوقت حتى طارت شهرتها فأصبحت حديث المجالس والمنتديات في العصر ، لعلمها الوفير وذكائها المتوقد . وزد على ذلك ما انعم به الباري سبحانه تعالى ، على هذه الفتاة من جمال بارع وفتنة لا تقاوم . وعرفت فيما بعد باسم كاترينا الاسكندرانية نسبة الى مدينة الاسكندرية في مصر ، التي عاشت وترعرعت فيها .

وعادت الى اهلها في أسيا الصغرى واتفق ان مات أبوها بعد ذلك بقليل ، وخافت عليها أمها من الذئاب الخاطفة الطامعة بجمالها وفتنتها ، فانزوت بها في مكان قصي من بلاد ارمينيا ، حيث يعيش ناسك عجوز اسمه حنانيا ، بغية ان تسدد خطاها في طريق القداسة وراح الناسك يعظها ويعدها لقبول سر المعمودية ، اذ انها لم تكن بعد قد تعمدت ، كمألوف عادة المسيحيين في القرون الاولى ، لا يقبلون سر المعمودية حتى يتثقفوا في أمور الدين ويبلغوا نضوجهم الانساني والمسيحي .

وبلغها يوما ان الامبراطور مكسيمينوس امر باحراق كل من اعتنق الديانة المسيحية والتفنن في تعذيبهم ان هم رفضوا العبادة لالهه الدولة ، فاسرعت كاترينا واستأذنت الامبراطور وخاطبته بلهجة تنم عن جراة وايمان وثقة بالنفس . واستحسن الامبراطور كلامها ودهش من بليغ حججها ، ثم اعتذر بانه غير ضليع في المواضيع الدينية والفلسفية ، الا أنه سوف يصدر اوامره الى بعض علماء الاسكندرية وفلاسفتها لمناظرتها في حفل عام ومشهود .

وسافرت الى الاسكندرية وجـاء اليوم المعهود للمناظرة ، ووجدت نفسها أمام حشد غفير من الناس وأمام خمسين من ابرز علماء الاسكندرية وفلاسفتها . فراحت تجادلهم بكل شجاعة وتقرعهم الحجة تلو الحجة . وهم ينصتون اليها حابسين انفاسهم ، وقد فغروا الافـواه بالدهشة والاعجاب . وحاول بعضهم الرد على حججها وتفنيد براهينها لافحامها فباءوا بالفشل ، وبارزتهم جميعا فى كل فنون الجدل ، فاستمالت قلوب معظم العلماء والحضور من الجمهور ، واعتنقوا الدين المسيحي .

ولما علم الامبراطور باخبار فوزها الساحق ، واقتناع الفلاسفة بصحة الدين المسيحي ، استشاط غضبا وأمر بحرقهم جميعا ، على ان يذيقوا كاترينا مر العذاب وفادح الالام ، أملا بذلك زعزعة ايمانها . وزجوا بها في غياهب السجن بعد ان اثخنوا جسدها بالجراح وقيدوا يديها ورجليها بالسلاسل الحديدية ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ، فلم تتراجع كاترينا عن عقيدتها .

وترامى الى سمع الامبراطورة واسمها فوستا ، الانتصار الباهر الذي احرزته كاترينا على علماء الاسكندرية وفلاسفتها ، وما لحق بها من عذابات في السجن . فاستبدت بها رغبة ملحة في رؤية كاترينا في سجنها ، فحلفت اليها ليلا دون علم زوجها الامبراطور برفقة بورفيريوس قائد الحرس فى القصر فدخلت عليها لتجدها مستغرقة في صلاة حارة . وأمام هذا المشهد ، شعرت الامبراطورة بأن قلبها يذوب حبا وحنانا لهذه المخلوقة ، واذا بكاترينا تتنبأ بأن الله سوف يكافىء عطفها وعطف قائد الحرس بأن ينعم عليهما بالايمان المسيحي وباكليل الاستشهاد .
وجن جنون الامبراطور فطار صوابه عندما تيقن آن زوجته الامبراطورة وقائد حرسه قد اعتنقا الدين المسيحي . فأمر للحال بتعذيبهما وقطع رأسيهما مع مائتين من الحرس الذين أمنوا بالمسيح على مثال قائدهم .

وحاول الامبراطور ان يغري كاترينا ان تتزوجه لتصبح الامبراطورة ، فرفضت بكل شدة وازدراء . وأمر الجلادين بتعذيبها حتى تلفظ أنفاسها الاخيرة . أما كاترينا فصلت ابان العذابات متوسلة الى الله ان يأمر ملائكته ، فيحملوا جسدها الى مكان بعيد حتى لا يتجاسر احد على تدنيسه بعد موتها . فما ان مدت عنقها للسياف ، وأهوى بسيفه عليها حتى غابت عن الابصار ، ولم يبق لها من اثر . وكان ذلك في ٢٥ تشرين ثاني (نوفمبر) من عام ٣٠٧م . وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية بعيد هذه القديسة في الخامس والعشرين من شهر تشرين ثاني من كل عام .

وبقي جسد القديسة كاترينا مختفيا ، حتي وجده رهبان دير سيناء ، على قمم احد الجبال المحيطة بالدير ، فأحضروه ودفنوه في داخل الكنيسة . ومنذ ذلك الحين اصبح ذلك الدير يعرف بدير القديسة كاترينا .

مغـــارة الحليـــب

عندما يخرج المرء من كنيسة الميلاد الى الساحة الخارجية ويسير فى الشارع الملتف حول الكنيسة من جهتها الجنوبيـــة ويتجه شرقا ، فانه بعد مسيرة خمســـس دقائق يصل الى منحدر يتجه شـــــرقا فيشاهد أمامه مدينة بيت ساحور وحقـــل الرعاة وسهل راعوث وجبل الفردوســـ مكان منتزه هيرودوس . وعلى رأس هذا المنحدر يجد على يمينه كنيسة صغــــيرة تسمى مغارة الحليب او مغارة سيدتنـــا مريم كما كان يسميها العامة قديما .

وطبقا لرواية متناقلة منذ القـــــرن السادس ، ان العذراء مريم قد اختبـــأت مع طفلها في هذه المغارة خوفا من هيرودوس وان القديس يوسف قد شاهد المـــــلاك بالحلم وانذره بالهروب بالطفل وامـــــه الى مصر ، فأفاق من النوم وطلب مـــــن العذراء بالاسراع في الهروب ، وكانـــــت العذراء ترضع طفلها فسقطت نقاط مـــن حليبها على الارض فتحول الصخر الــــى اللون الابيضـــ .

ومنذ القرن السادس يزورها الحجاج والزوار القادمون الى بيت لحم ويأخذون معهم بعض القطع من جدران المغارة الى بلادهم في الشرق واوروبا ، بركة مـــــن الارض المقدسة . فكانت العـــادة ان تدق قطعة من صخر المغارة ثم تكبس على شكل قطعة صغيرة . واقدم نموذج معروف من هذا النوع واحدة في مدينة اوفيدو Oviedo فى اسبانيا منذ القرن السابع . والثانيـــة قدمت هدية الى شارلمان الكبير في سنـــة ٨٠٠م . وبعدها حفظت في كنيسة مدينة بيكاردي Picardi في فرنسا . واخذ جيرارد الثالث اسقف بيت لحم قطعة من هذا النوع الى معسكر الملك بالدويـــــن الثالث قائد حملة الصليبيين اثناء محاصرة مدينة عسقلان في سنة ١١٢٣م .

وقد اصبح لصخرة المغارة صفـــة احترام ديني وساد الاعتقاد ان قليـــــلا من تراب هذه المغارة اذا رش على ثدي المرضع زاد ادرارا للحليب . وصار هذا الاستعمال شائعا طوال قرون طويلـــــة حتى مطلع القرن العشرين ، فتذهـــــب النساء المسيحيات والمسلمات على السواء الى هذه المغارة للتبرك وترش كل امرأة قليلا من حبات المغارة على ثديها . وكانت النتائج مدهشة ، وعلى نياتهن كن ينلن بركة من لدن الرب .

وان اول من لاحظ هذه الحالة يدعى بيرديكا Perdicea من افسس EPhsus سنة ١٢٥٠م وعن طريقه زاد انتشار هذه العقيدة فى خارج فلسطين . وطبيعـــــي فانه مع مرور الايام زال شكل المغـــارة الاصلي واتسعت المغارتان بسبب الحفر المستمـــــر .

وفي عهد الصليبيين بنيت في هـذا المكان كنيسة . لكنه جرى بعد الصليبيين تدمير الكنيسة والدير في سنوات ١٣٤٩ و١٣٥٣ ، ثم قام الاباء الفرنسيسكان بالاعتناء بهذا المكان واعادة حرمتـه ،وخططوا لبناء كنيسة فوق المغارة وديـر للرهبان وجرسية ومقبرة . وبقيـت هذه المخططات احلاما لتعذر الحصول على اذن بذلك من حكام البلاد . وفي سنة ١٤٩٤م استطاعوا القيام ببعض التصليحـات واقاموا هيكلا لاقامة القداديس عليه .

وهكذا بقي هذا المكان خرابا ، فيـه حجرة تضاء بقناديل الزيـت . ويفيـد كبار السن ان هذا المكان بقي مزارا فقط ،وان امراة من عائلة الجبرية كانت تهتـم بتنظيف هذا المكان ووضع الزيت فـي القنديل . وكان هذا المكان يعتبر ملـك عائلات بيت لحم من طائفة اللاتين فقط .

وفي حوالي سنة ١٨٣٨ اعطي هذا المكان الى رهبنة الفرنسيسكان فأشادوا عليه البناء الحالي . ويوجد على يميـن الداخل امام الكنيسة لوحة حجريـة في الجدار منحوت عليها : « بارك يا رب من تعبوا في بناء هذه الكنيسة ، واعـط الراحة الابدية لنفوسـهم . سنة ١٨٣٨ » .

وفي سنة ١٩٣٥م قدم المهندسـ عيسى عبد الله حزبون وزوجته هيلانـه واولادهما نذرا اكراما للسيدة العذراء ،فبنوا في مدخل كنيسة مغارة الحليـب الاقواس والزخارف التي يراها الداخـل لزيارة هذا المكان . بالاضافة الى ذلـك زينوا الدرجات التي ينزل منها الى هـذه المغارة بالزخارف الصدفية . كذلك قدموا خمسة مقاعد خشبية يتسع كل منهـا الجلوس ستة اشخاص ، يستعملهـا المصلون عند حضور القداديس في هـذا المكـان .

كنيسة القديس يوسف

وعلى مسيرة عشر دقائق الى الشرق من مغارة الحليب في نفس الشارع المار امامها تصل الى بيت فوقه جرسية صغيرة يعرف باسم كنيسة مار يوسف . وتفيد التقاليد ان العائلة المقدسة (يسوع ومريم ومار يوسف) بقيت في بيت لحم مدة من الزمن ما بين سنتين الى ثلاث سنوات . وحسب شريعة موسى ادخلت العائلة الطفل الى الهيكل في القدس ليطهر (لوقا ٢:٢٢) . والمجوس وجدوا الطفل في بيت لحم (متى ٢:١١) . والانجيل يذكر أن العائلة المقدسة بقيت فى بيت لحم بعد ميلاد الطفل ، ويغلب الظن انهم وجدوا مكانا التجأوا اليه في هذه الانحاء فالانتقال من مغارة الى بيت ليس فيه أي شك . فالقديس يوسف من عائلة قاطنة في بيت لحم وله فيها اقارب ومعارف ،فحنوا على حالته وساعدوه ببعض المأوى فضلا عن ذلك فان القديس يوسف كان نجارا ، وبامكانه العمل وكسب عيشه من عمله .

وخلال القرون الوسطى جرت محاولات بحث لتحديد أماكن في بيت لحم لاحياء ذكرى اقامة القديس يوسف في هذه المدينة . وجرت عدة محاولات لهذه الغاية على المنحدر الواقع شرقي مغارة الحليب حتى حقل الرعاة . وقد ذكر بعض الزوار انه امكن تحديد مكان يعود الى القديس يوسف ، على المنحدر شرقي كنيسة الميلاد ، وذلك فى النصف الاخير من القرن الرابع عشر .

وكنيسة القديس يوسف الحالية بنيت في سنة ١٨٩٠م وقد شيدت فوق صخرة وبقايا مباني ذكرت من قبل عدد كبير من الزوار للاراضي المقدسة . تجد عند الهيكل صخرة وخلف الهيكل حجرا كبيرا ربما يعود الى الهيكل الاصلي . واما بناء الكنيسة الصغيرة التي اقيمت لتحيي ذكرى بيت القديس يوسف تبرعت بنفقاتها السيدة اوديبرت .وقد أقيمت على شكل بيت للسكن ، تحاشيا لاعتراضات السلطة الحاكمة في ذلك الحين ، حيث كانت تعارض في بناء كنائس . وفي ٢٠ اذار سنة ١٨٩٣م جرى تكريس هذه الكنيسة من قبل حارس الاراضي المقدسة في ذلك الحين الاب جيمس غزي .

وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية بعيد القديس يوم ١٩ اذار من كل عام . وفى هذا التاريخ من كل عام يقوم ابناء رعية اللاتين في بيت لحم بزيارة هذه الكنيسة بعد ظهر ذلك اليوم واقامة صلوات خاصة احتفالا بعيد القديس يوسف . كذلك تجرى اقامة القداديس في هذه الكنيسة عدة مرات كل شهر .

كنيسة حقل الرعاة

اذا وقف المرء فى الساحة الواسعة امام كنيسة المهد ، فانه يجد على يمينه شارعا جيدا ينحدر الى جهة الشرق يؤدي الى مدينة بيت ساحور التي تبعد كيلومترا واحدا شرقي كنيسة المهد . ومع مرور الايام امتد البناء خلال القرن الحالي بين بيت لحم وبيت ساحور حتى تلاقى من الطرفين .

في القرن السابع عشر كانت بيت ساحور هذه تعرف باسم بيت ساحور النصارى ، تمييزا لها عن بيت ساحور الانتيكا ، الواقعة على الجانب الايمن من وادي النار الى شرقي قرية سلوان . وحتى قبل ١٢٠ سنة كانت قرية بيت ساحور الانتيكا يسكنها مسلمون اصلهم من الكرك ، وربما من سلالة الجنود الذين حضروا مع صلاح الدين الايوبي في حملته ضد الصليبيين ، ثم هجرت هذه القرية في مطلع القرن الماضي .

والى الشرق من مدينة بيت ساحور يقع سهل واسع يسمى سهل راعوث التي تزوجت بوعاز البيتلحمي ، كما جاء ذكر ذلك في التوراة فى سفر راعوث . وبموجب التقليد المسيحي المتوارث منذ القدم ، انه في هذا المكان ظهر ملاك الرب الى الرعاة الذين كانوا ساهرين على حراسة أغنامهم وبشرهم بميلاد الطفل يسوع المسيح ، كما جاء ذكره في انجيل لوقا الاصحاح الثاني .

وذكر ايوسيبوس (٢٦٥ـ٣٤٠م) ان الرعاة الذين بشرهم الملاك كانوا في مغارة تبعد الف خطوة الى الشرق من بيت لحم ، بجانب برج ايدر . وبرج ايدر هذا جاء ذكره عدة مرات في التوراة ، ويعتقد انه بقي قائما حتى القرن الثالث بعد الميلاد ، وان موقعه كان في الجهة الشمالية الشرقية ، فى المكان الذي يعرف حاليا باسم سير الغنم . وكانت الارض المعروفة باسم سير الغنم قد اشتراها الاباء الفرنسيسكان قبل قرنين ، وقاموا بحفريات واسعة في هذا المكان في سنة ١٨٥٩م باشراف الاب جوارماني . ثم اعيد التنقيب في سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م .

لقد اتضح من الحفريات انه كان فى هذا المكان ديران : الاول من طراز القرن الثالث او الرابع بعد الميلاد ، والثاني من طراز القرن السادس بعد الميلاد . من الدير الاول وجدت اساسات الكنيسة وبعض الجدران المحيطة بها . اما كنيسة القرن السادس فقد دمرت ثم بني مكانها في وقت لاحق كنيسة جديدة مع امتداد قليل في الطول لجهة الشرق . وقد عثر من الكنيسة الاخيرة على مقدمة الكنيسة وجدران عدة احجار مجاورة لها . وقد جاء في تقرير الاب كوربو بأن

حجارة كثيرة عائدة الى كنيسة القرن الرابع قد استعملت في بناء الكنيسة الثانية في القرن السادس ، وان اصل هذه الحجارة مأخوذة من بقايا كنيسة الميلاد التي بناها قسطنطين .

اما مكان الاديرة التي اقيمت في هذا المكان لم تكن احسن الاديرة في المنطقة ، فقد اقيمت في أماكن وعرة . وانما الكنيسة الثانية فقد اقيمت فوق الكنيسة الاولى بالضبط مما يدل ان هذا المكان له ذكرى خاصة . اما كنيسة القرن السادس فقد دمرت من قبل حكام فلسطين في القرن الثامن ، الذين حاولوا محو كل ما يشير الى الدين المسيحي ، فقد ازالوا بالازاميل كل نقوش تشير الى صلبان او غيرها . وعثر على غرف كثيرة عائدة الى الكنيسة الثانية ، أمكن تمييز نوع استعمالها من بقايا محتوياتها : —

مخزن للادوات الفخارية ، مكان الجبص ، معصرة للزيتون ، مخزن التموين ، اصطبل للحيوانات ، وعده ابار ماء وأقنية كانت تستعمل لسقي البساتين حول الكنيسة .

اما الكنيسة الحالية التي نشاهدها اليوم في هذا المكان ، فقد بنيت في سنة ١٩٥٣ و ١٩٥٤ بموجب تصميم وضعه المهندس المعماري الايطالي بالوزي ، يوم وضع حجر الاساس ويوم تكريس الكنيسة نهار عيد الميلاد . وتقع الكنيسة فوق صخرة كبيرة تكرس مكان الانقاض وخارجها تمثل خيمة بدوي . بشكل متعدد الجوانب له خمسة جوانب مستقيمة ، وخمسة جوانب بارزة مائلة من الاعلى تجاه الداخل . على شكل خيام ويدخل النور الى داخل الكنيسة من زجاج سميك مثبت باسمنت في قبة الكنيسة ، يوحي للناظر اليه النور الباهر الذي انبثق للرعاة ليلة ميلاد المخلص .

وقد قام النحات الايطالي كامبيلوني Cambiloni بعمل ونحت التمثال البرونزي فوق عتبة المدخل والتماثيل البرونزية الاربعة التي تحمل المذبح الرئيسي في وسط الكنيسة ، والشمعدانات والصلبان . وقام المهندس نوتي بعمل الرسومات من الجبص في الحنيات الثلاث خلف المذبح ، والرسام منجيتي قام بنقش صور عشرة ملائكة في قبة الكنيسة من الجبص .

ابار النبي داود

ان الزائر الى بيت لحم ، وقبل ان يصل الى كنيسة المهد بنحو نصف كيلومتر يشاهد على يمينه كنيسة متواضعة للسريان الكاثوليك تعرف باسم كنيسة القديس يوسف وقد بنيت سنة ١٩٢٩م . وبعدها الى الشرق يقع منتزه يدعى منتزه العمل الكاثوليكي ، وهذا المكان اشتراه الاباء الفرنسيسكان من ورثة حنا منصور في سنة ١٩٥٠م ويعرف باسم ابار الملك داود ، ويقع على جبل يشرف على كنيسة المهد وحقل الرعاة وبيت ساحور حتى جبال مؤاب شرقا .

وفى أعلى هذا المكان توجد ثلاث أبار عميقة مملوءة بالماء ، يقال انها ابار الملك داود ، وقد جاء ذكرها في التوراة (صموئيل الثانى ٢٢:١٤—١٧) وهو يتحدث عن حرب الملك داود مع الفلسطينيين ما يلي :

« وكان داود في مغارة عدلام وجيش الفلسطين نازلا فى وادي الرفائيين ، وكان داود حينئذ في الحصن وحفظه الفلسطينيون حينئذ في بيت لحم فتأوه داود وقال من يسقيني ماء من بيت لحم التي عند الباب . فشق الابطال الثلاثة (من أتباع داود) محلة الفلسطينيين واستقوا ماء من بئر بيت لحم التي عند الباب وحملوه واتوا به الى داود فلم يشأ ان يشربه بل سكبه للرب وقال حاشا لي يا رب أن افعل ذلك . هذا دم الرجال الذين خاطروا بأنفسهم فلم يشأ أن يشربه » . ومن هنا يستدل انه كان عند هذا الموقع باب لسور بيت لحم في ذلك الوقت . وأن الابار موقعها خارج سور بيت لحم .

وبجانب هذه الابار كانت هناك كنيسة مكان الساحة التي أمام السينما الحالية في العمل الكاثوليكي . كذلك الى الشرق في القسم المنخفض توجد مقبرة محفورة في الصخر . فى سنة ١٨٩٥م وجدت قطعة من أرضية موزاييك من بقايا ارضية الكنيسة التي كانت قائمة هناك في القرون الغابرة وهدمت من جملة الكنائس الكثيرة التي تم تدميرها قبل خمسة قرون . ووجدت كتابات باللاتينية من ١٩—٢٠ من المزمور ١١٧ :

افتح لي ابواب العدل ،
وسأدخلها واقدم شكري للخالق ،
هذه البوابة هي لله ،
والعدالة سوف تدخلها .

وهذه القطعة من الموزاييك مدفونة الان تحت ارضية الحقل ، ويصعب اجراء تنقيب جديد بسبب التغيرات التي طرأت فوق المنطقة . وعندما وجدت هذه

القطعة من الموزاييك اعتقد الكثـــيرون انها ضريح الملك داود ودليل ملموس فانه حسب التقليد اليهودي ان قبر الملـــك داود هو في مكان ما لا يزال مجهولا يقـــع على جبل صهيون الواقع ملاصقا لســـور مدينة القدس من الجهة الجنوبية ، بينمـــا يعتقد الكثيرون أن قبر الملك داود وابنـــه سليمان مدفونان في مكان ما في مدينـــة بيت لحم ، وعلى الارجح في موقـــــع كنيسة المهـد .

وجدت تحت الكنيسة مقبرة أرضية لها عدة قبوات تحتوي على ١٨ قبـــرا ، كل قبو مكون من قبرين الى ستة قبور . في سنة ١٩٦٢م قامت حراسة الارضـــس المقدسة ببعض التنقيـــب باشـــراف الاب ميشيلا انجيلو تيزاني . وفي الحفريـــات عثروا على عدة قطع فخارية من القـــرن الرابع ميلادي ، ونقوش على الحائـــط تعود ما بين القرن الرابع حتى السادس . واهم هذه النقوش على الجدران شكـــل صليب من عهد قسطنطين من القرن الرابع محفور في الصخر عند مدخل المقبرة ، مما يدل على انها أرضية مقبرة مسيحية .

قبـــــر راحيــــل

والقادم من القدس لزيارة بيت لحم يجد نفسه أمام قبر راحيل او كما يسميها العامة منذ القرن الماضي « قبة راحيل » وكذلك يطلقون هذا الاسم على المنطقة المحيطة بها ، فيقول فلان ساكن عند قبة راحيل أو أرضهم واقعة جهة قبة راحيل . وبعد قبة راحيل ببضعة أمتار يكون مفرق الشارع المؤدي الى بيت لحم . أما الشارع الرئيسي فيستمر حتى مدينة الخليــــل وبئر السبع حتى يصل القاهرة .

وقد جاء في سفر التكوين الاصحاح ٣٥ ما يلــــي :

« ثم رحلوا من بيت ايل ولما كانت مسافة من الارض بعد حتى يأتوا الــى افراتا ولدت راحيل وتعسرت ولادتهــا ، وجدت حين تعسرت ولادتها ان القابلــة قالت لها لا تخافي لان هذا ايضا ابن لك ، وكان عند خروج نفسها لانها ماتت انهــا دعت اسمه ابن أوني أي ابن الامي . وأما ابوه فدعاه بنيامين ، فماتت راحيل ودفنت في طريق افراتا التي هي بيت لحــــم ، فنصب يعقوب عامودا على قبرهــا » . وهو عامود قبر راحيل الى اليوم .

وتذكر الكتب الدينيــة القديمــة أن يعقوب أقام فوق قبر راحيل أيضا نصبــا تذكاريا على شكل هرم ، جرت العادة على اقامته فوق القبور اليهودية . وفي سنــة ١١٦٥م اضيف ١٢ حجرا لذكرى أبنـــاء يعقوب الاثني عشر . وفي بعض الروايات انه كان ١١ حجرا فقط لان بنيامين كــان مفقـــودا .

يعتقد اخرون انه في زمن البيزنطيين وربما في وقت لاحق بعده ، قد جـــرى نقل قبر راحيل الى مكان اخر مكرســـ للعبادة عند المسيحيين . وفي القرن الرابع عشر جرى تحسين لقبر راحيل وبني قبر حجري له ظهر مقوس . وكان الاب اميكو قد ترك رسما لمكان قبر راحيل في نهايــة القرن السادس عشر يظهر ان الفستقية وفوقها بناء على شكل كنيسة صغيرة ولها اربعة أقواس اي كل جانب له قوس ، وهذه الاقواس الاربعة قد جرى سدهـــا ببناء جدار حجري من قبل محمد باشــا والي القدس في سنة ١٥٦٠م ، واستعاض عن الشكل الهرمي ببناء قبة . وفي القرن الماضي قام الثري اليهودي المعـــروف موسى مونتفيوري ببناء غرفتين حـــول القبر فأصبحت على الحال الذي نشاهده في وقتنا هــذا .

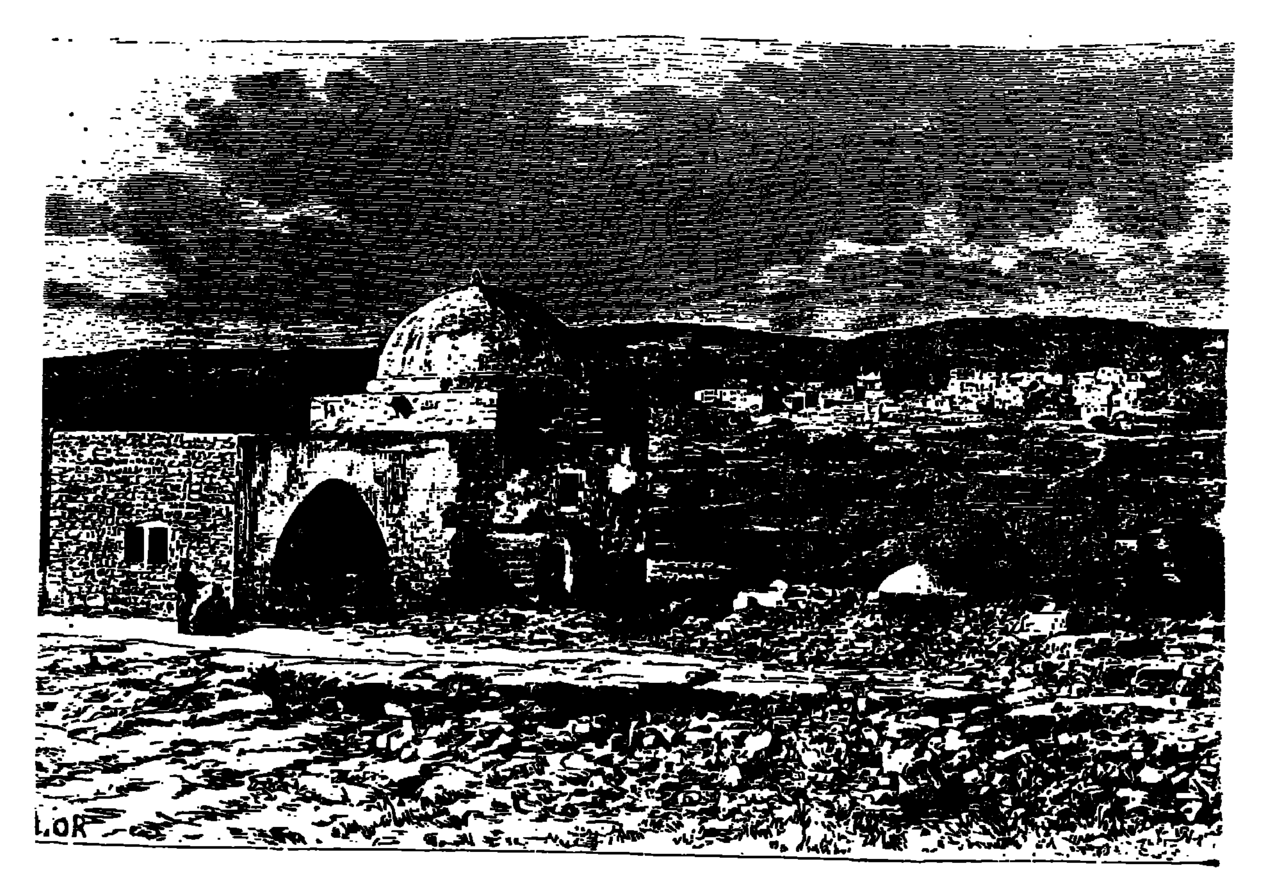
وقد اعتبر المسلمون هذا الموقـــع حول قبر راحيل مكانا مقدسا واتخذوا ما حوله مقبرة لموتاهم حتى يومنا هــذا . ورغم أن اليهود والمسيحيين والمسلميــن يقومون بتقديس ذكرى راحيل في هـــذا المكان فان الكثيرين من المؤرخين اثــاروا الشك حول صحة كون هذا المكان هــو قبر راحيل الحقيقــي .

اما الاب الفرنسيسكان لومبـــاردي Lombardi قام بتفحص كل ما ذكر عن راحيل في نسخ الكتب المقدسة التي تشير الى افراتا ، فخرج بنتيجة ان قبر راحيل الحقيقي هو قرب حزما ، شمال القـــدس حيث توجد شواهد خمسة قبور معروفة باسم قبور اطفال اسرائيل ، وانه قـــد دفنت اربعة نساء اخريات من نفـــس القبيلة حول قبر راحيل . وهكذا فـــان فريقا من المؤرخين يؤكد ان قبر راحيـــل الحقيقي هو الواقع عند مدخل مدينـــة بيت لحم ، بينما يصر الاخرون ان قبـــر راحيل الحقيقي هو في قرية حزما شمالي القـــدس .

وكان حول المقبرة التي تحيط بقبـــة راحيل جدار مهدم فقامت دائرة الاوقـــاف الاسلامية في بيت لحم ببناء سور حجـــري مكانه . واما الباب الحجري الذي يدخل منه الى البناية التي تحوي قبر راحيل ، فان هذا الباب بني في مكانه سنة ١٩٥٤ .

وهذا الباب كان أصـــلا المدخـــل الخارجي لبناية الســـرايا في بيت لحـــم ، والتي أحرقت ســـنة ١٩٣٨م . وأقيـــم مكانها مركز شرطة بيت لحم الحالي . فلما هدمت السرايا القديمـــة ســـنة ١٩٤٠م اشترى هذا الباب الحجري الاوقـــاف الاسلامية وبنوه مدخلا لجامع عمر فـــي بيت لحم ، ذلك المدخل الذي كان مكـــان المدخل الحالي للمحكمـــة الشرعيـــــة الاسلامية في بيت لحم . فلما هدمت بناية جامع عمر القديمة فى سنة ١٩٥٢م لاقامة البناية الحالية ، لم تكن هناك حاجـــة لهذا الباب ، فنقل وبني في مكانه الحالـــي في مدخل بناية قبة راحيل . وهكـــــذا يمر أمام هذا الباب الواقع على الشارع العام بين القدس وبيت لحم ، يمر الكثيرون في كل يوم ذهابا وايابا ، ولا أحد يلفـــت نظره الى هذا الباب الحجري .

قبـــر راحيــــــل



يقع قبر راحيل قرب مدخل بيت لحم على طريق القدس الخليل الرئيسي ، وقبل مائتي متر من المفرق المؤدي الى بيت لحم وكان هذا المكان يبعـــد كيلومترين عـــن كنيسة المهد والمدينة ، وفي القرن الحالي امتد البنيان واتسعـــت حـــدود بلديـــة بيت لحم حتى شملت المفرق لمدخل المدينة وقبر راحيل وما بعده حتى دير الطنطور قرب مدينة القدس . وهذا المقام محترم من الاديان الثلاثة في البـــلاد .

هذه الصورة تمثل حال هذا المكان في اواخر القرن التاسع عشر الماضـــي . وتظهر خلف البناء على ظهر الجبل الـــى الغرب مدينة بيت جالا . وحول البنــــاء تقع مقبرة للمسلمين في منطقة بيت لحـــم لا تزال تستعمل حتى يومنا هذا .

والبناء مكون من غرفتين ، الغرفة الداخلية وهي تحتوي على قبر راحيل بنيت قبل اربعمائة سنة في عهـــد الاتـــراك . والغرفة الخارجية حصل على اذن مـــن الاتراك ببنائها الثري اليهودي الانكليـــزي موشيه حاييم منتفيوري في عام ١٨٤١ م وهي عبارة عن رواق شرقي بسيط ملاصق لغرفـــة المقـــــام .

بداية عهد الاديرة في فلسطين

سبق ان ذكرنا في فصل سابق أن حياة الرهبنة والنساك ، وجدت في فلسطين منذ عهد الرسل . وانتشرت بنوع خاص حول مدينة بيت لحم ، وخاصة في المنطقة التي كانت تعرف فى ذلك الزمان باسم صحراء او برية يهوذا ، ثم عرفت فيما بعد ببرية يوحنا المعمدان .

لم يترك التاريخ الا أخبارا قليلة عن النساك الاوائل ، لكن اشتهر منهم الكثيرون في القرنين الرابع والخامس من أمثال جيروم ، والقديس افثيميوس ، والقديس سابا ، والقديس تيودوسيوس صاحب دير ابن عبيد ، والقديس خاريتون فكانت أعمالهم ترفع من قيمة وانتشار المسيحية في كل مكان .

جاء هؤلاء النساك والمتعبدون ، الى فلسطين من كابودكيا Cappodicea في أسيا الصغرى ، واقام كل منهم صومعة له ينسك فيها ، وأكثرها لا تزال أثارها بادية للعيان حول بيت لحم والقدس ووادي الاردن . وبينما كانوا رجال عبادة وفضيلة كان كل منهم له تفكيره المستقل وطريقته فى التعبد ، وله أيضا مقاييسه الخاصة في الامور الدنيوية والدينية .

وكان أول دير بني في فلسطين الدير الذي بناه القديس ايلاريون قرب غزة في سنة ٣٢٩م . وفي نفس المدة كان القديس خاريتون يبني ديرا له فى ممر ضيق في وادي فارة . ثم بعد ذلك بوقت قصير اقام اديرة للنساك في أماكن منعزلة في جنوبي بيت لحم .

في مطلع القرن الخامس الميلادي ،جاء الى فلسطين من كابودكيا القديس افثيميوس واستقر في الدير المقام فى وادي فارة . وفي وقت لاحق قام القديس افثيميوس بالاشتراك مع القديس ثيوكتستوس باقامة دير جديد في الممر الضيق جدا من وادي مكيلك ، في برية يوحنا المعمدان . وفي وقت لاحق قام الاثنان ببناء دير اخر ، لا تزال بقاياه حتى يومنا هذا قرب الخان الاحمر على طريق القدس — اريحا .

فى سنة ٤٨٣م ، جاء الى فلسطين متعبد اخر من كابودكيا ، وأقام له ديره الاول في مغارة في وادي النار جنوبي بيت لحم . وكانت المنطقة ممرا ضيقا مهجورا ليس فيه احد من السكان . وحضر الى المكان عدد من الرهبان ، واقام كل منهم صومعة له يتعبد فيها لوحده . وكانوا لا يجتمعون الا في صباح كل أحد حيث يحضرون الى الكنيسة لاقامة القداس هناك .

ويذكر بعض المؤرخين انه كان في فلسطين فى سنة ٦١٤م ، سنة غزو الفرس لها ، كان هناك ١٣٧ ديرا عامرة بالنساك والرهبان . قام الفرس بتدمير معظمها وذبح من وجدوه فيها من الرهبان وغيرها ، بعد أن نهبوا كل شيء له قيمته . فقام البطريرك بمساعدة اصحاب الحمية بترميم ما أمكنه ترميمه من هذه الكنائس .

دير مار سابا

اذا انحدر المرء من بيت لحم الى بيت ساحور ثم سار الى الشمال الشرقي على الطريق الروماني القديم الذي يؤدي الى نهر الاردن ، فانه بعد مسيرة عشره كيلومترات في برية يوحنا المعمدان . يشاهد في ذلك المكان المهجور ديرا محاطا بسور وله برج مراقبة . هذا الدير اشبه بحصن منيع منه بدير للعبادة والتنسك ، سمي منذ القديم على اسم بانيه القديس سابا ، ويعرف عند العامة باسم دير مار سابا .

ولد القديس سابا في قرية ماتولسكابين مقاطعة كامبوديا في ولاية انقرة في سنة ٤٣٩م ، ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره جاء الى فلسطين لينقطع للعبادة هناك . فدخل دير باساريون الذي بني سنة ٤٣٨م قرب المدخل الشرقي لمدينة القدس . ثم انتقل الى دير القديس افثيميوس ، فلما وجد هذا الشاب صغير السن أرسله الى دير ثيوكتستوس ، فبقي هناك ١٧ عاما .

في سنة ٤٧٨م اختار ان يسكن في مغارة في وادي النار الواقعة في وسط المكان الذي بني عليه فيما بعد ديره الحالي . وقد نال القديس سابا شهرة كبيرة بين الرهبان والاديرة ثم عرف عنه من حسن الرعاية والادارة . وقد كلفه البطريرك ساليتيوس في سنة ٤٩١م بأن يتراس جميع الاديرة والصوامع والنساك الذي في منطقته ، فاعتذر عن قبول المهمة لجسامة مسؤوليتها ، ولكن البطريرك لم يقبل آعتذار مار سابا وقال له اعتبر هذا التكليف امرا مقدسا فاضطر ان يلتزم به بحكم الطاعة للرؤساء المطلوبة من كل راهب .

وكان مارسابا معروفا بالعمل والجدوسعة التفكير ، وقد اختاره بطريرك القدس مرتين ليكون رسوله الى اباطرة القسطنطينية . فاختير أول مرة بعد ثورة السامريين ، ليكون رسول بطريرك القدس الى الامبراطور جوستنيان ليخبره بما فعل السامريون في القدس . والمرة الثانية كان رسول بطريرك القدس الى الامبراطور انسطاس لامور تتعلق بحالة الاديرة في ذلك الحين .

وقد لاقى القديس سابا في عهد رئاسته مشاكل كثيرة من نساكه لتباين عقولهم واجناسهم . فترك الدير فترة الى القدس ثم عاد اليهم فثاروا عليه ثانية فتركهم حتى يوم تدشين كنيسة القيامة بعد تجديدها ، بعد اخماد ثورة السامريين في فلسطين . وقد حمله الاسقف الياس كتب توصية الى النساك الثائرين ، فنشاط غضبهم ودمروا برج الدير ونهبوا ما فيه ، وغادره ستون راهبا الى تقوع عام ٥٠٣م وبنوا لهم ديرا هناك . ومع ذلك لم تهدأ اضطراباتهم مما اضطر الامبراطور جوستنيان الى طردهم وارجاع كل منهم الى بلده ،

واحلال نساك اتقياء مكانهم ، فمنهم القديس سيريل من سكيثوبولس .

ويحيط الدير سور عال وعلى مدخله برج يدعى باسم الملكة افذوكسيا التي أمرت ببنائه عندما جاءت تجادل القديس انثيميوس في ديانته المسيحية عام ٥٥٥م فاقتنعت منه واعتنقت هي المسيحية بعد هذا اللقاء . وفى البرج خارج السور ترى قصرا يدعى قصر البنات او قصر القديس سمعان تؤمه السيدات اللواتي يجئن لرؤية دير مار سابا الذي يمنع دخول النساء اليه . وقد شيد عام ١٦١٢ م .

أما كنيسة الدير فواسعة ٢٤ x ٩أمتار وبشكل صليب يعلو سقفها قبة مستديرة . وتزين جدرانها ايقونات متعددة منها القديم ومنها الحديث . أما ايقونسطاسها فهو من الخشب الجميل النحت والنقش مطلي بالذهب . ويعضد جدران الكنيسة من جهتيها الجنوبية والشرقية ساندات ضخمة من البناء الخارجي .وتطل من فسحة واسعة شمال شرقي الكنيسة على الوادي السحيق وترى في غربه نبع ماء يزود الدير بماء الشرب ، عدا الابار المحفورة لجمع المياه فيها . والى الشمال الشرقي من الكنيسة مغارة كان يسكنها يوحنا الدمشقي في القرن الثامن ٧٣٦م ، توفي ودفن فيها في ٤-١٢-٧٤٩م لكن رفاته نقلت الى موسكو فيما بعد ،وحولت المغارة الى كنيسه باسمه . كذلك سكنه قوزما فى نفس الفترة وتطل من شرفة الكنيسة على وادي قدرون ، حيث ترى الى الشمال مغارة تبعد حوالي ٣٠٠ متراً عن موقع الكنيسة كانت مأوى لصوفيا والدة القديس سابا .

ولما زار السائح الروسي دانيال من كييف البلاد المقدسة عام ١١٠٦ حتى عام ١١٠٨م زمن الحكم الصليبي مكث في دير مار سابا ستة عشر شهرا .

وكان الدير يحوي مكتبة هامة ، فيها الكثير من المخطوطات ، أمر البطريرك كيرللس ١٨٤٥-١٨٧٣ بنقلها الى دير المصلبة حيث المدرسة اللاهوتية جنوب غربي القدس خوفا على محتوياتها من النهب او الدمار . ومن هناك نقلت الى مركز دير الروم في القدس .

ومن سار في الوادي شرقي دير مار سابا يشاهد الخلوات والصوامع في الصخور الشاهقة حيث كان النساك يقيمون ويتعبدون ، وهي مهجورة في يومنا هذا .

أما دير مار سابا القريب الواقع شمال شرقي بيت ساحور فهو قصر حراسة فقط ، فيه معصرة زيتون قديمة ، وتحيطه ارض واسعة معظمها مشجر بشجر الزيتون . وقد رمم برج هذا الدير عام ١٩٧٩ على نفقة الاب الارشمندريت يناذيوس .

كذلك لا يسمح قطعيا للنساء بدخول هذا الدير ، ولكن يسمح لهن بالقاء نظرة

على الدير من فوق البرج المعروف باسم برج النساء ، والواقع على جهة يمين الداخل الى الدير . ويروي الاجداد نقلا عن اجدادهم ان والدة القديس سابا جاءت اليه لتزوره فمنعها من دخول الدير ايضا ، بل خرج للقائها خارج أسوار ديره .

توفى القديس سابا في اليوم الخامس من كانون اول سنة ٥٣٢م ، ودفن في ديره الذي عاش فيه . لكن في سنوات لاحقة نقلت رفاته الى مدينة القسطنطينية ، ومنها نقلها الصليبيون الى كنيسة القديس مرقص في البندقية ، فبقيت هناك عدة قرون .

ولما زار البابا بولس السادس الاراضي المقدسة في الخامس من شهر كانون ثاني سنة ١٩٦٤م ، اتفق مع البطريرك المسكوني اثيناغورس وبطريرك القدس فنيذكتوس ، على ارجاع رفات القديس سابا الى ديره . فأعيدت الى القدس في يوم ٢٦ـ١٠ـ١٩٦٤ ، ثم اعيدت الى دير مار سابا في احتفال ديني مهيب يوم ٢٥ـ١١ـ١٩٦٤ .

ديــر القديــس ثيوذوسيوســس

ولد القديس ثيوذوسيوس فـــي كابودكيا سنة ٤٢٤م ، وجاء الى فلسطين في سنة ٤٥٠م ، فأقام مدة من الزمـــن مع مواطنه لونقينوس في دير بـــرج داود الذي كان في القدس قرب حارة الارمـــن الحالية . وفى سنة ٤٥٥م التحق بالدير الذي بناه كانتيسما قرب بئر قاديسمـــو على طريق القدس بيت لحم ، شمالـــي دير مار الياس الحالـــي . وقد دمـــر الفرس في سنة ٦١٤م هذا الدير وغيره .

ثم بنى ديره الحالي المعروف بديـــر ثيوذوسيوس (دير بن عبيد) ، بعـــد أن أقام بضعة سنوات متعبدا في مغـــارة هناك ، تذكر عنها التقاليد انه في هـــذه المغارة نام المجوس عند رجوعهم الـــى بلادهم بعد زيارة الطفل في بيت لحـــم ، لئلا يشاهدهم هيرودس . ثم التحق بـــه عدد كبير من النساك شاركوه السكن فى تلك المنطقة ، فبنى في المكان ديرا واسعا في سنة ٤٧٦م .

وكان في ديره هذا تحت رئاستـــه حوالي ٤٠٠ راهبا قسموا حسب موطنهم الذي جاءوا منه وحسب لغتهم . فكـــان قسم للرهبان الارمن ، وأخر للرهبـــان اليونان ، وأخر للرهبان الذين قدمـــوا من بلغاريا والصرب ، ومكان رابـــع للذين يشكون من مرضـــى في عقولهـــم او اجسامهم . ولكل قسم منهم كنيسة خاصة به للصلاة فيها . وبجانب الجميع كنيسة يجتمعون للصلاة فيها كل يوم أحد .

فى سنة ٤٩٢م قـــام البطريـــرك سالوسيتوس بتنصيـــب القديـــس ثيوذوسيوس رئيسا عاما لهؤلاء النساك وفي ١١ كانون ثانـــي ســـنة ٥٢٩م توفي القديس ثيوذوسيوس عـــن عمـــر ١٠٥ سنوات ، بعد أن كان قد توفي من رهبانه ٦٠٣ راهبا ، في زمن أقامته فى فلسطين .

يذكر التاريخ ان هذا الدير قـــد هوجم ونهب مرارا من القبائل التي كانت ضارية في المنطقة ، وقتلوا عددا مـــن رهبانه ، وكان ابشعها الغزوة التـــي وقعت في سنة ٨٠٨م وسنة ٨١٣م ولكـــن الرهبان كانوا في كل مرة يصلحون الخراب على قدر ما تسمح به امكانيتهم .

فى زمن الصليبيين اعيد بناء الديـــر واقيمت كنيسة بيزنطية هناك ، وكـــان عامرا بنزلائه من الرهبان والنساك ، ولكن في عصور لاحقة لحق به الدمار والخراب على دفعات حسب مزاج الحاكم للبـــلاد في كل زمـــن .

في سنة ١٨٩٧م . قامت بطريركية الروم الارثودكس في القدس بالعنايـــة بهذا الدير ، وأزالوا الردم من فوق قبـــر القديس ثيوذوسيوس ثم أقاموا كنيســـة صغيرة هناك . وفى سنة ١٩١٤ قامـــت البطريركية بتأسيس بناء الكنيسة الحالية

فوق مكان الكنيسة البيزنطية القديمــة ،وقد تم البناء نهائيا في سنة ١٩٥٢م .

في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وفي شهر كانون أول سنة ١٩١٧ وصــل الجيش البريطاني الزاحف من مصر الــى الخليل ثم الى بيت لحم فدخلها في صباح ٨ كانون أول سنة ١٩١٧ . فهربت فلول الجيش التركي مــن بيت لحم الــى بيت ساحور في طريقها الى أريحا . وقــد عسكر الجيش التركي في دير ابن عبيــد وباشر باطلاق قذائف مدافعه من حــول الدير الى مواقع الجيش البريطاني فــي ارطاس وبرك سليمان والدهيشة ، فردت عليهم مدفعية الجيش البريطاني بالمثل حتى اضطر الجنود الاتراك الى الانسحــاب حتى نهر الاردن .

وقد كنا مرارا نزور هذا الدير كــل عام في رحلة مع المدرسة باشراف الاستاذ فهيم جبور ، بين أعوام ١٩٣٣ – ١٩٣٧م وكنا نشاهد الخراب المحيط بالديــر ، ونشاهد ايضا عددا من قنابل المدفعيــة البريطانية المغروسة في الجدران ، ولــم تنفجر . وكانت لنا زيارة اخرى كشفيــة مع فرقة كشافة المدرسة الاميرية فــي بيت لحم ، تلك المدرسة التي كان يسميها الاهالي المدرسة الوطنية . وكانت فرقة الكشافة فيها تسمى سرية كشــــافة بيت لحم الاولى ، حيث كانت اول سريــة كشفية تأسست في بيت لحم حوالي سنة ١٩٣٠م ، ثم سرية كشافة المهد في سنــة ١٩٣٢م ، وثم سرية الكشافة الارثوذكسية وبعدها سرية كشافة الساليزيان في سنة ١٩٣٦م التي دامت حتى سنة ١٩٤٠م ، وكنت قد التحقت بها حتى صرت رئيسهــا حتى انحلت عند نشوب الحرب العالميــة الثانية في ١–٩–١٩٤٠ ، حيث كــان دير الساليزيان يعتبر من أملاك ايطاليــا التي انضمت الى محور برلين – رومــا في حرب ضد بريطانيا وفرنسا وحلفائهما .

عرب العبيدية

اما عرب العبيدية ، فهم من اصل يوناني ، كانوا يسكنون جزر ايجة أيام الامبراطورية البيزنطية ، ثم تمردوا على الامبراطور جوستنيان سنة ٦٣٠م . فحكم على زعمائهم بالموت . وكان في هذه الفترة قد جاء الى القسطنطينية القديس سابا صاحب دير مار سابا المعروف باسمه ، ليروي للامبراطور ما فعله السامريون في الديار المقدسة ، من هدمهم للكنائس في نابلس والقدس وسائر فلسطين ، وقتلهم للمسيحيين . فطلب من الامبراطور ان يبقي على حياة زعمائهم وان يقبل بنقلهم الى فلسطين ، وهو اي القديس سابا على استعداد لمرافقتهم ، وليسكنهم قرب ديره . فأجاب الامبراطور طلبه ، وسافروا مع مار سابا الى فلسطين واستقروا الى غرب دير مارسابا خدما وعبيدا لدير الروم ، ومن هنا جاءت تسميتهم العبيدية .

وكانوا يأخذون مبلغا من الحكومة في أيام دولة العثمانيين على حفظهم الطريق والاديرة من اللصوص وقطاع الطرق . وبقيت لهم هذه الحقوق حتى جاء ابراهيم باشا فأسقط عنهم هذا الحق ، غضبا عليهم بسبب انضمامهم الى الحركة المضادة لحكمه ، في سنة ١٨٣٤ م .

كان من جملة أعمال عرب العبيدية المكلفين بها ، أن يجلبوا كل أسبوع أو كل شهر ، المؤن والمال من البطريركية في القدس ، الى الاديرة وصوامع الرهبان المنتشرة في المنطقة .

وفي عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ، ترك عرب العبيدية بيوت الشعر ، وأخذوا يستقرون تدريجيا في بيوت حجرية ، كل في أرضه التي كان يزرعها بالحبوب ، بالاضافة الى تربية الاغنام . ومع مرور الايام اصبحت لهم مجموعات من المباني هنا وهناك ، وغرسوا أراضيهم بالزيتون والعنب ومختلف أشجار الفواكهة . ثم قامت بينهم بعض المدارس الابتدائية للبنين والبنات ، وبقيت تتدرج حتى الصفوف العليا ، والتحق المتفوقون من الاولاد بمدارس بيت ساحور وبيت لحم ، فنشأ منهم جيل من المثقفين تابعوا دراستهم الجامعية ، فتخرج منهم عدد لا بأس به كان له اثر كبير في تنظيم وترقي أهلهم .

ومن لم يسعفه الحظ من خريجي المدارس التحقوا بالمدارس المهنية وتعلموا مختلف المهن التي افادتهم كثيرا ورفعت من مستواهم المادي والاجتماعي ، فأشادوا خلال العشرين سنة الماضية بيوتا حديثة لسكناهم ، ادخلوا اليها كل مفيد من وسائل الحياة مثل الثلاجات والغسالات وغيرها ، وخصوصا لما تم ربط المنطقة بالتيار الكهربائي من شركة كهرباء محافظة القدس ، وتوصيل شبكة المياه اليهم من مصلحة مياه بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور .

بئــــر قاديسمـــــو

ان القادم من القدس الى بيت لحم ، بعد مسيرة كيلومترين ، يجد على يمينــه بئراً تدعى منذ القديم (بئر قاديسمو) ، وهذا الاســم محرفــ عن اليونانيــة « كاثيسما » ، اي مكان الاستراحة . ومنذ القرن السادس عشر عرف ايضـا باسم بئر المجوس ، لانه في هذا المكان ظهـــر النجم ثانية للمجوس .

وفي حوالي منتصف القرن الخامس ميلادي ، بني في هذا المكان كنيسة كرست باسم العذراء مريم ، بنيت على نفقـــة رئيسة الراهبات الثرية المدعوة هيسيليا Hecilia وفي هذه الكنيسة عاش مـــدة من الزمن الناسك ثيودوسيوس قبـل أن يباشر ببناء الدير المسمى باسمه ، شرقي بيت ساحور ، والذي يعرف في وقتنا هذا بدير ابن عبيـــد .

يقع هذا البئر قرب دير مار آلياس على مشارف مدينة القدس ، وفي منتصف الطريق بين بيت لحم والقدس . وهـــذا البئر مقام على طريق القوافل بين الشام ومصر منذ ثلاثة الاف سنة والصورة تمثل بعض رجال احدى القوافل وقد وقفـــوا ليشربوا مع جمالهم من هذا البئر ، فـــي مطلع القرن الثامن عشر الماضي ، ويمثل زي الرجال الزي المألوف لفلاحي فلسطين في ذلك الحين .

سمي بئر قاديسمو قبل العهــــد المسيحي ، وهو اسم يوناني بمعنى بئـــر الاستراحة . وبعد العهد المسيحي عـــرف باسم بئر العذراء مريم حيث استراحـــت بقربه عند ذهابها الى بيت لحم للتسجيل مع خطيبها يوسف . ثم سمي بئــــــر المجوس الذين استراحوا بقربه عندمـــا جاءوا من المشرق لمشاهدة الطفل الالهي الذي ظهر لهم نجمه في بلاد فارس .



بئـــر قاديسمـــو

ديـر مار الياس



وعندما يتابع المرء سيره الــــى بيت لحم ، فانه بعد مسيرة اربعمائـــة مترا ، يشاهد على شماله ديرا قائمـــا على شكل حصن قديم ، يقع على ربـوة يمكن منها مشاهدة بيت لحم الى الجنوب ومشاهدة القدس الى الشمال في نفس الوقت . وقد بني هذا الدير في القـــرن السادس الميلادي ، فى المكان الــــذي يعتقد أن النبي الياس قد استراح فيـــه اثناء هروبه من انتقام الملكة جيزابيـــل (الملوك الاول الاصحاح ١٩) ، في طريقه الى بئر السبع وثم الى جبل الرب فـــي ســـيناء .

ويعتقد ان بانيه هو بطريرك القدس عام ٤٨٦م ، بينما يعتقد اخرون أن بانيه هو البطريرك ايليا عـــام ٤٩٤ـــ٥١٦م . وذكر اخرون أن هذا الدير قد أمـــر ببنائه هرقل ملك الروم سنة ٦١٠م ، وهدمه الفرس مع غيره من الاديرة ، عندمـــا هزموا الروم واحتلوا فلسطين سنـــة ٦١٤م . وبعد طرد الفرس أعـــاد الامبراطور هرقل بناءه . وقد دمر هـــذا الدير فيما بعد بفعل الزلزال ، فأعـــاد

بناءه الامبراطور ايمانويل كومنينوس في سنة ١١٦٠م .

ورمم الدير من قبل بطريركية الروم الارثوذكس في القدس عام ١٦٧٨م ، ثم رمم ثانية في القرن التاسع عشر الماضي . ولحق بالدير بعض الاذى والخراب في عامي ١٩٤٨م و ١٩٦٧م في اثناء المنازعات العربية اليهودية ، لوقوعه في وسط خط الهدنة . اعيد تصليحه بعد كل مرة على حساب بطريركية الروم الارثوذكس في القدس . وآخر تصليحات كانت في سنة ١٩٧٦م ، حيث جرى تصليح ارضية الكنيسة ووضع بلاط حجري جديد لها ، وفتح للكنيسة مدخل مباشر من جهة الغرب ، حيث كان المدخل القديم من خلال الاروقة المجاورة للكنيسة . ثم بني سور للدير من الشمال والغرب والجنوب وخططت الحديقة الحالية الواقعة امام الدير .

وكانت تلاصق الدير من جهة الغرب معصرة للزيت قديمة ومهدمة ، رممت في سنة ١٩٧٦م . وحولت الى قاعه استقبال للحفلات والاعراس . وفي هذا الدير تعقد اكاليل زواج كثيرة لاهالي مناطق بيت لحم والقدس ورام الله . فلا يخلو يوم احد ، على مدار العام ، من وجود اكليل واحد واكثر ، يعقد في هذه الكنيسة ، ثم يجري استقبال المهنئين في قاعة الاستقبالات المذكورة اعلاه .

وعلى الجانب الغربي من الطريق العام المار امام هذا الدير ، والمؤدي من القدس الى بيت لحم والخليل ، يشاهد مقعد مستطيل من الحجر الابيض ، نصبته السيدة اوديت زوجة الرسام الانجليزي (وليم هولمان هانت) بموجب اذن خاص من بطريرك الروم الارثوذكس في القدس . وقد نقش على جوانب وظهر المقعد من الداخل ، ايات انجيلية باللغات الاربع : العربية والانكليزية واليونانية والعبرية . وكان زوجها قد عاش في القدس بين عام ١٨٥٤ و ١٩٠٢م . ورسم الكثير من الصور الدينية المشهورة في هذا المكان ، مثل : « الحمل الضال » و « نور العالم » وكثير غيرها .

وهذا الدير له عدد كبير من اشجار الزيتون المزروعة على مساحات واسعة فى غربي الدير وشرقه ، لكنها مهملة لا يعتنى بها ، ويسكن هذا الدير راهب يوناني يعرف باسم رئيس الدير ، ويساعده راهب او اثنان .

يقع عيد مار الياس نهار ٢٠ تموز شرقي الموافق ٢ اب غربي . وتكون زيارة الدير يوم اول اب . اي في اليوم الذي يسبق نهار العيد ، لتقديم النذورات . ويكون نهار الزيارة مهرجانا شعبيا يؤمه المسيحيون والمسلمون على السواء من مختلف المناطق . وكثيرون من المسلمين في منطقة بيت لحم والخليل والقدس يسمون ابناءهم باسم الياس ، تيمنا بالنبي الياس عليه السلام . وفي يوم الزيارة يكثر الباعة المتجولون على اختلافهم ، وتنصب الاراجيح قبل العيد بأيام وتبقى بعد العيد بأيام اخرى ، لتكون تسلية للاطفال .

ديـــــر الطنطـــور

ونتابع سيرنا من دير مار الياســالى بيت لحم ، فبعد نصف كيلومتـــــــر واحد ، نشاهد من جهة اليمين ، ديرا فوق ربوة يسميه العامة « ديـــر الطنطـــور » ففي سنة ١٨٦٥م رغبت جمعية فرســانمالطة ان يقيموا لهم مركزا في فلسطين ، بالقرب من الاماكن المقدسة . كلفـــــواقنصل النمسا فى القدس في ذلك الحين ، المدعو الكونت برنارد كاباجا ، بشـــــراءارض مناسبة . فاشترى لهم في سنـــة ١٨٦٨م هذا الجبل الذي كان يعرف باسم برج يعقوب وافراتا ، وقد تبرع بمعظـــم ثمن الارض الامبراطـــور النمســـــاوي فرانسيس جوزيف .

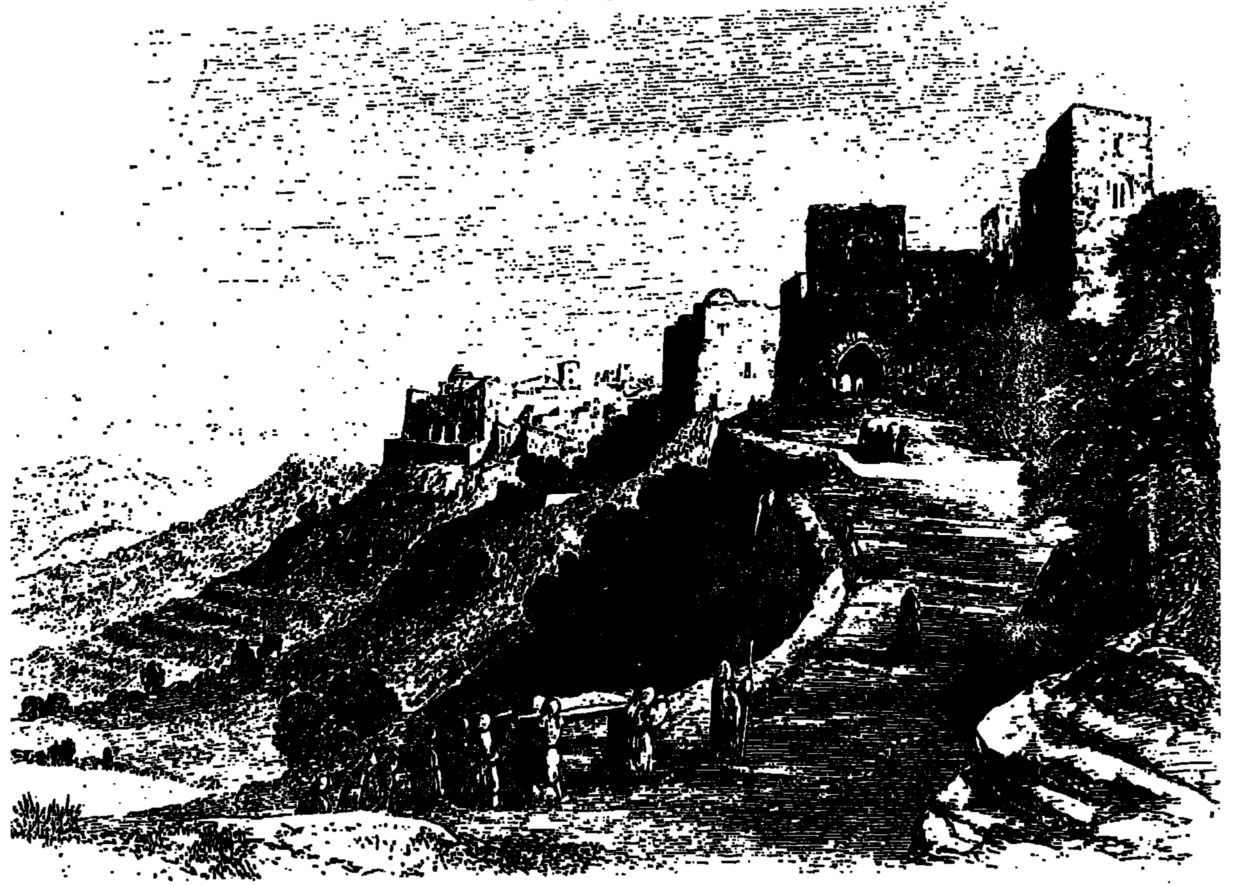
استلمت الجمعية المكان وباشـــروابناء مستوصف طبي ، افتتحوه في سنـــة ١٨٧٧م على شكل عيادة خارجية مجانية للسكان . وبقي سنة ثم حولوه البـــى مستشفى يتسع لسبعة اسرة وفيــــــه طبيب جراح ومساعد وبعض الممرضين .

في سنة ١٨٧٦م اضيف الى بنايـــة العيادة كنيسة ، وفي سنة ١٩٠٢م جرى توسيع المباني . وفى سنة ١٩٢٠م ، اعطي للمستشفى الايطالي الواقع في حــــــي المصرارة بالقدس . في سنة ١٩٣٠م أعطي هذا المكان لدير السالزيان في بيت لحم ، بموجب عقد ايجار لمدة ٣٠ عاما ، ليكون مقرا لمدرسة الرهبان . وفي سنة ١٩٦٧م انسحب منه رهبان السالزيان وسلمـــوه الى الجمعية التي تملكـــه .

فى وقت سابق كـــان البروفيســـور سكيسجاد Skysgaad ، من اساتـــذة الجامعة اللاهوتية في مدينة كوبنهاجـــن بالدنيمارك ، قد تقدم اقتراحا الــــــى المثلث الرحمات قداسة البابا بولــــس السادس ، بضرورة اقامة معهد خاصـــي بالدراسات الدينية على مستوى عالي . فلما زار البابا بولس السادس الاراضـــي المقدسة في مطلع شهر كانون ثاني سنة ١٩٦٤م ، تذكر الاقتراح فطلب من الاب هيتسبرغ Hesbergh رئيس ديـــــــر النوتردام في القدس ، أن يعمل علــــى اقامة كلية الدراسات اللاهوتية علـــى مستوى عالي .

وبوشر بالبناء في سنة ١٩٦٥م . واشرف على التنفيذ المهندس يوســـــف الخوري . وفى سنة ١٩٧٨ كانت المبانـــي جاهزة وبوشر بالدراسة وقبلت طلبـــات الالتحـــاق .

قوس الزراره



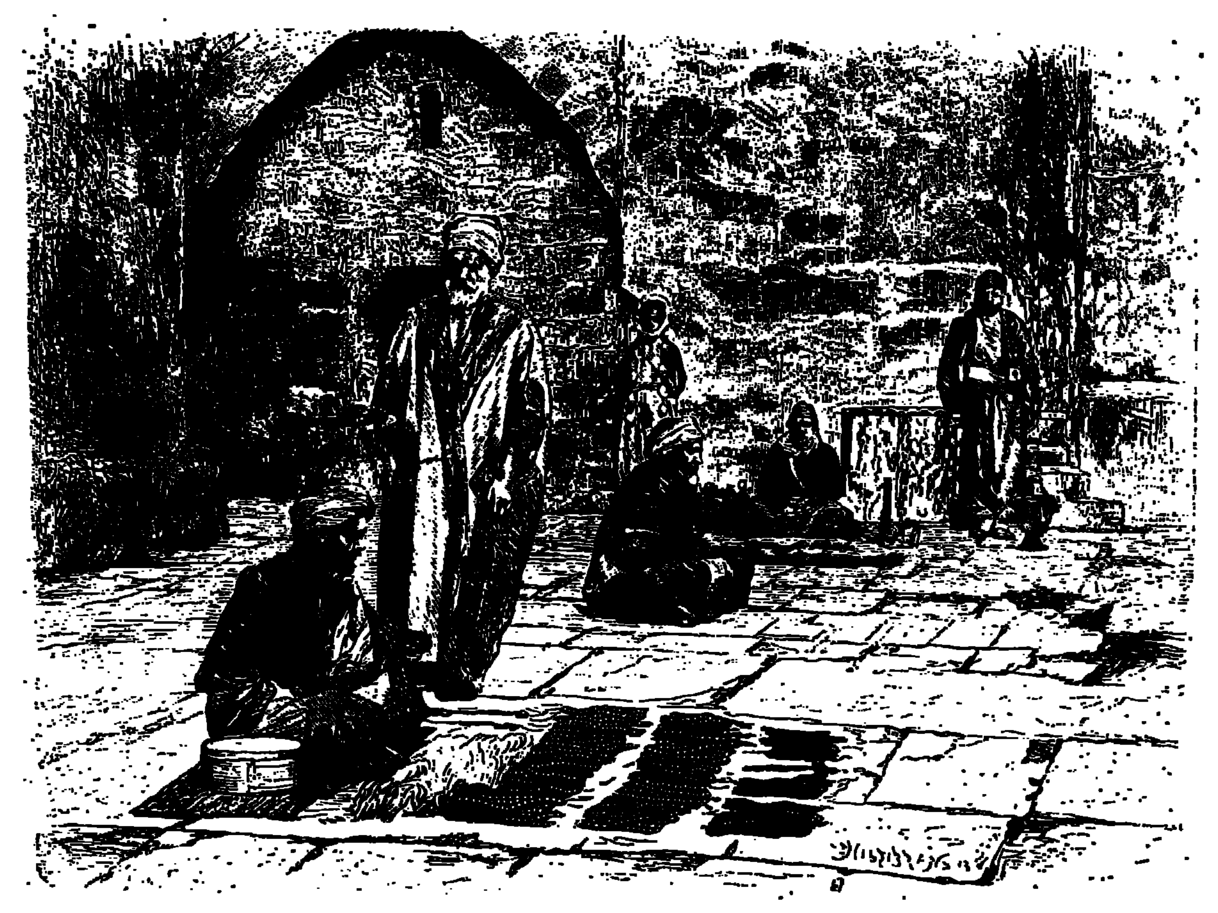
عرف هذا القوس منذ القدم باسم قوس الزرارة ، حيث يروي المسنون انه قبل مائتي عام حصل تعدي من العربان على مدينة بيت لحم ، فتصدى لهم الاهالي في هذا المكان وحصروا المعتدين اي زروهم ، فاطلق عليه الاهالي قوس زرارة .

اما الزوار والرحالة الاجانب فسموه في مذكراتهم باب بيت لحم

وقد كان هذا القوس المدخل الوحيد لبيت لحم للقادمين من القدس . وبقي كذلك حتى سنة ١٩٢٦م حين فتح الشارع الجديد المعروف باسم شارع المهد لكي يكون المدخل الرئيسي الى بيت لحم للقادمين من القدس .

وحتى يومنا هذا فان دخول البطريرك الى بيت لحم في عيد الميلاد ياتي من الطريق القديم المعروف سابقا باسم شارع راس افطيس ، وحاليا باسم شارع النجمة ، ويدخلون الى بيت لحم من هذا القوس . وهذه الصورة تمثل شكل هذا القوس في القرن السابع عشر . وقد بنيت بجانبه مدرسة راهبات مار يوسف للبنات وبنايات اخرى لسكنى الاهالي .

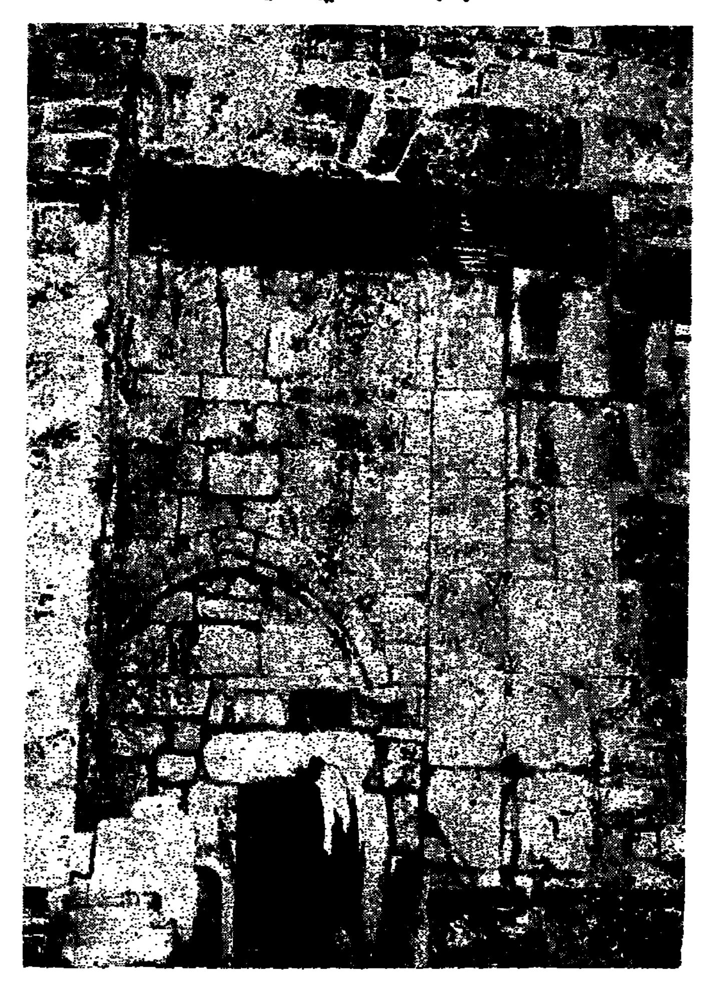
الباب الصغير القديم



يمثل هذا المنظر مدخل كنيسة المهد في القرن السابع عشر . ويظهر أمامه بعض أهالي بيت لحم في لباسهم التقليدي في ذلك الحين . وبعضهم يعرض منتوجاته من المسابح لبيعها الى الزوار . وقد عرفت صناعة المسابح والاشغال الصدفية والحفر على قطع خشب الزيتون قبل ثلاثة قرون تقريبا ، وبقيت هذه الصناعة يتوارثها جيل بعد جيل حتى تطورت على ما هي عليه اليوم . فتاجر بها الكثيرون من أهالي بيت لحم الى الهند والفلبين شرقا والى روسيا شمالا وسائر اقطار اوروبا غربا حتى وصلوا معارض فلادلفيا فى اميركا الشمالية سنة ١٨٧٢م .

وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين بوشر بافتتاح المحلات التجارية لبيع هذه البضائع والتي تعرف في وقتنا الحاضر باسم السنتوراي ، في القدس وبيت لحم والناصرة .

الباب الصغير حاليا



هذا الباب هو المدخل الاوسط لكنيسة المهد ، وقد صغر مرارا مع مرور الايام حسب الظروف التي مرت على هذه الكنيسة .

فقوس الباب الاعلى هو ما كان عليه في عهد الامبراطور جوستنيان . ثم صغر الباب بقوس اصغر من السابق في عهد الصليبيين في القرن الثاني عشر ، ربما لاسباب هندسية ، لتقوية جدار واجهة الكنيسة ، ثم صغر الباب الى حالته الحالية سنة ١٥٠٠م فى زمن المماليك لمنع دخول الخيل الى الكنيسة ، ثم صارت الكنيسة تستعمل حصنا لاهالي بيت لحم كلما تعرضت مدينتهم الى الغزو . وكان هذا الباب يقود للداخل ، احن قامتك ان كنت محبا للرب .

أما الدعامة التي تظهر بجانب الباب فقد أقامها الاباء الفرنسيسكان لدعم البناء عندما كانت كنيسة المهد في رعايتهم قبل ثلاثة قرون .

الفصل الرابع

انتشار الديانة المسيحية في فلسطين

تفيد الاناجيل وأعمال الرسل ، انه بعد صعود السيد المسيح الى السماء من جبل الزيتون قرب القدس ، انتشر الرسل (الحواريون) في سائر أنحاء فلسطين وما حولها ، ثم ابتعدوا الى الاقطار التي تليها ، يبشرون بالعقيده المسيحية . وكان سكان فلسطين والاقطار الاخرى ، اما من اصحاب العقيدة اليهودية او من مجموعات كبيرة من عبدة الاوثان الذين كانت لهم معابد كثيره للاصنام اقامها اباطرة الرومان الوثنيون . وقد لاقى هؤلاء الرسل ومن تبعهم مختلف انواع الاضطهاد والمقاومة العنيفة ، تجدها تملأ بطون كتب التاريخ . ورغم كل هذا لم تنقطع العقيدة المسيحية من بلاد فلسطين وما حولها ، منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا .

وكانت الاضطهادات تلحق تارة بالمسيحيين من اصحاب العقيدة اليهودية وطورا من الحكام الرومانيين . فكم كنيسة بناها جماعة المؤمنين ثم جاء من هدمها . وكم اسقف ومؤمن مات شهيدا ملأت أخبارهم كتب التاريخ . مثلا قام الامبراطور الروماني ادريانوس باضطهاد المسيحيين في سنة ١٣٥م ، فأمر باجلائهم عن كنيسة القبر المقدس في القدس ، وأمر بردم المكان بكمية وافرة من التراب والحجارة . وغطى الارضية الاصلية وبلطها ، وبنى فوق مكان الجلجلة والقبر المقدس هيكلين وثنيين ، ونصب فوقهما تمثالي المشتري والزهرة ، ثم حول الارض المجاورة لها الى بستان .

اما في بيت لحم ، فهدم هذا الامبراطور كنيسة للمسيحيين ، فوق مغارة المهد ، ليقيم مكانها معبدا لادونيس ، وزرع حوله حرشا للاله ادونيس . واضطهد المسيحيين مرغما اياهم على تقديم القرابين لالهته . وكان بعمله هذا يحاول طمس معالم الاماكن المقدسة المسيحية باشادة معابده فوقها . لكن هذا العمل حفظ اماكن هذه المقدسات حوالي قرنين ، حتى جاء الامبراطور قسطنطين وازال هذه الاصنام واقام مكانها كنائس جليلة .

في سنة ٢٩٨م توفي ايمينيوس ، وخلفه على كرسي القدس زبدى ، ولكنه بعد سنتين تنازل عن رئاسة الكنيسة الى هرمون سنة ٣٠٠م . وقد استمر هذا الاسقف في خدمة الكنيسة الى سنة ٣١٤م وكانت كل هذه المدة زمن اضطهاد عظيم للكنيسة والمسيحيين .

ففي أول الاضطهاد سنة ٣٠٣م ، قبض على عدد كبير من المسيحيين في فلسطين وعذبوا بشتى انواع العذابات حتى الموت ، وبعضهم طرح طعاما للوحوش الكاسرة ، فكانوا شهداء ايمانهم رغم كل العذابات المتنوعة . جرى كل هذا ارضاء للامبراطور الروماني الوثني مكسيميانوس وتنفيذا لاوامره .

اما الاماكن المقدسة التي كانت مطمورة ومقاما عليها هياكل لالهة الوثنيين ، فانه رغم كل هذا ، كان المسيحيون يتوافدون الى بيت لحم والقدس لزيارتها والتبرك بهما ، أما الوثنيون فلم يمانعوا في هذه الزيارات اعتقادا منهم ان هذا السجود والتعبد لالهتهم المقامة فوق هذه الاماكن .

في سنة ٣١٤م توفى الامبراطور مكسيميانوس ، وخلفه الامبراطور قسطنطين وليكينيوس الذي أمر بحرية الاديان والعبادة ، في سائر انحاء امبراطوريته ، ومن ضمنها العقيدة المسيحية . فتحسنت الاحوال ، وساعدت على أنتشار الديانة المسيحية ، وتمتعت الكنائس بالراحة والاطمئنان وصار المؤمنون يؤمونها في كل يوم .

وهكذا تبدل كل شيء في الشرق والغرب ، وأصبح المسيحيون ينمتعون بحريتهم وحقوقهم ، واعيد ما اغتصب من اراضي وأملاك لاصحابها ، وانتعشت حالة الناس وازداد عدد المسيحيين بسرعة فى سائر البلاد . وانتشر الدين المسيحي في سائر انحاء فلسطين في القرى والمدن على السواء ، وكثر عدد الاساقفة ، اذ كان يقام لكل مدينة وتوابعها اسقفا يكون المرجع الاعلى لشؤون الدين فيها . فكثر عدد الكنائس لتكون قريبة من أماكن سكنى المؤمنين .

كانت قيصرية مركزا لرئاسة الكنيسة ، اما اورشليم (ايليا) فقد كانت وقتئذ قرية صغيرة ، واسقفها كان تابعا لمطران قيصرية . وفي ذلك العهد ، قام على كنيسة القدس الاسقف مكاريوس الاول الذي كان رجلا صالحا وعالما جليلا ، نال حظوة كبيرة واعتبارا عظيما من سائر اساقفة فلسطين ، وخصوصا لما أظهره من حرارة الايمان وقوة الحجة في اثناء انعقاد المجمع المسكوني الاول ، الذي عقد فى نيقية عاصمة ولاية بيثينية في اسيا الصغرى على شاطىء البحر الاسود .

والاسقف مكاريوس هو الواضع للمادة السابعة من قوانين المجمع المسكوني الاول ، وهي المادة التي تبحث عن درجة الاعتبار لكل من اساقفة فلسطين . وهكذا بلغت كنيسة القدس المركز الذي تستحقه بين الكنائس حتى لقبت بحق باسم (ام الكنائس) فيما بعد ، وصار يعتبر رئيسها رئيسا لاساقفة فلسطين .

وتفيد كتب التاريخ أن القديس مكاريوس الذي حضر المجمع المسكوني الاول ، الذي اقيم بأمر الامبراطور قسطنطين العظيم في سنة ٣٢٥م ، هو

الذي بين لهذا الامبراطور ان الاماكن المقدسة في فلسطين موجودة ولكنها مطمورة وتقوم فوقها هياكل وثنية ، الامر الذي يثير عواطف المسيحيين التي تلتهب الما لوجود هذه المقدسات في هذه الحالة . فاسف الامبراطور جدا ، ووعد بازالة هذه الهياكل الوثنية ، واعطاء الاماكن المقدسة حقها من التقدير والاحترام . وهكذا قرر الامبراطور ارسال والدته التقية القديسة هيلانة الى القدس ، لاظهار هذه المقدسات ، وتطهيرها من ارجاس الاوثان . وزودها بالاموال الطائلة والمهندسين والبنائين وامهر الصناع في بلده .

وفي سنة ٣٢٦م ، وصلت الملكة هيلانة ومن معها الى القدس ، وباشروا في البحث عن الاماكن المقدسة التي ذكرها القديس مكاريوس ، وهي مغارة ميلاد المسيح في بيت لحم ، والقبر المقدس في القدس ، ومكان صعود المسيح فوق جبل الزيتون . فبوشر حالا باقامة الكنائس فوق هذه الاماكن المقدسة ، وتولت الملكة هيلانة بنفسها امر المراقبة والاشراف على البناء وفقا لرغبة ابنها الامبراطور قسطنطين .

وهكذا لم تمض مدة وجيزة حتى قامت كنيسة القيامة فوق محل وجود الصليب والقبر المقدس ، وكنيسة ثانية في بيت لحم فوق المغارة التي ولد فيها السيد المسيح ، وكنيسة ثالثة في مكان علية صهيون مكان العشاء الاخير للمسيح مع تلاميذه . وتبعتها كنائس اخرى كثيرة في انحاء فلسطين ، ومنها كنيسة فوق جبل الزيتون مكان صعود السيد المسيح الى السماء ، وكنيسة في حقل الرعاة في بيت ساحور ، وكنيسة في الخليل حيث مدافن البطاركة ابراهيم ويعقوب واسحق ويوسف عليهم السلام . وامتدت الكنائس في الناصرة ، وبحيرة طبريا ، وفي كل مكان ذكره الرسل في اناجيلهم ورسائلهم للمؤمنين .

وتوفي البطريرك مكاريوس سنة ٣٣٣م ، وخلفه القديس مكسيموس الثالث ، فكان خير خلف لخير سلف ، وساعده كثيرا في اعماله القديس ايلاريون وتلاميذه وغيرهم من الاساقفة الاخرين الذين كانت مراكزهم في سائر انحاء فلسطين وسيناء حتى الاسكندرية في مصر .

في سنة ٣٣٤م جرى احتفال بهيج اكراما لاهالي قصبة (مايوما) الذين اهتدوا جميعهم الى الديانة المسيحية وكان سرور الامبراطور قسطنطين بهم عظيما ، وسمى هذه القصبة تعظيما لهم (قسطنطينية) وعرفت فيما بعد بالقسطنطينية واصبحت فيما بعد عاصمة الامبراطورية الرومانية .

جاء في الموسوعة البريطانية ، ان قسطنطين الكبير ولد بمدينة « نيش » من اعمال صربيا ، بتاريخ ٢٧ شباط ٢٨٨م ، وتوفي في ٢٢ ايار سنة ٣٣٧م ، عن عمر ٤٩ سنة . وفي ٢٦ تموز سنة ٣٠٦م توفي والده قسطنطينوس الاول ، وتسلم العرش مكانه ، وراح يحمل لقب (قيصر) في الشرق والغرب من مملكته .

كانت الامبراطورية الرومانية منقسمة الى مملكتين :-

١- المملكة الغربية وعاصمتها روما .

٢- المملكة الشرقية وعاصمتها بيزانس .

وكانت فلسطين انئذ تحت سيطرة المملكة الرومانية الشرقية ، وكانت تعرف باسم (الدولة البيزنطية) . ولكن الملك قسطنطين وحد المملكتين بعد حروب استمرت عدة سنوات مع ليسينيوس ملك روما ، فكان النصر في النهاية حليفه ، فتم له ما أراد وفتح روما ، وأصبح الملك غير المنازع للمملكة الرومانية فى الشرق والغرب . وأقام على أنقاض مدينة بيزانس القديمة ، مدينة جديدة اسماها قسطنطينية تخليدا لاسمه ، وبنى حولها سورا حصينا ، واتخذها عاصمة ملكه . وبنى في القسطنطينية كنيسة اسماها « أجيا صوفيا » أي الحكمة المقدسة .

ان أول من تنصر من اباطرة الرومان هو الامبراطور قسطنطين ، وسمح للنصرانية بالانتشار في مملكته ، وبذلك وقف الاضطهاد الذي مارسه اسلافه على المسيحيين اينما وجدوا . وتنصر عدد كبير من سكان مملكته وسكان البلاد المجاورة . ثم تنصرت أمه الملكة هيلانة فأوكل اليها ان تذهب الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة ولتشرف بنفسها على بناء الكنائس هناك . وكلمة هيلانة كلمة يونانية معناها (البارعة الجمال)وكلمة قسطنطين كلمة لاتينية معناها « الحازم » .

المجامع المسكونية

كانت تطرأ ظروف واختلافات في الاراء الدينية من وقت لاخر ، فاضطر اولياء الامور الى عقد مجامع خاصة من وقت لاخر لبحث هذه الامور ، يحضرها الاساقفة من سائر الانحاء ليبدو آرائهم في المواضيع التي تحت البحث . وبما انها كانت جامعة لكل الشعوب في المسكونة سميت بالمجامع المسكونية ، والمجمع يشبه ما يسمى في وقتنا الحاضر بالمؤتمر .

وتفيد كتب التاريخ انه عقدت المجامع التالية :

١- المجمع المسكوني الاول عقده الامبراطور قسطنطين سنة ٣٢٥م ، فى مدينة نيقية من أعمال بيثينية لقربها من مدينة نيقوديمية حيث كان مركز الملك حينئذ .

٢- المجمع المسكوني الثاني ، عقده الامبراطور الروماني ثيوذوسيوس فى مدينة القسطنطينية سنة ٣٨١م ،ويسمى ايضا مجمع القسطنطينية الاول .

٣- المجمع المسكوني الثالث ، عقده القيصر ثيوذوسيوس الصغير في مدينة افسس سنة ٤٣١م .

٤ـ المجمع المسكوني الرابع ، عقـــده الامبراطور مركيانوس في مدينة خالكدون في ٨ تشرين أول سنة ٤٥١م .

٥ـ المجمع المسكوني الخامس ، عقـده الامبراطور يوستنيانوس فى القسطنطينية ، سنة ٥٥٣م ، ويسمى أيضا مجمـع القسطنطبنية الثاني .

٦ـ المجمع المسكوني السادس ، عقـده الامبراطور قسطنطين الملقب يوغاناتوس في القسطنطينية سنة ٦٨٠م ، ويسمى أيضا مجمع القسطنطينية الثالث .

٧ـ المجمع المسكوني السابع عقـــده الامبراطور يوستنيانوس الثاني فـــي القسطنطينية في سنة ٧٨٧م وعـــرف باسم مجمع نيقية الثاني .

وتذكر كتب التاريخ مجامع اخـــرى اقل اهميـــة منهـــا : ـ

١ـ مجمع روما ـ عقد في مدينة رومـــا سنة ٣٤٠م .

٢ـ مجمع انطاكيا ـ عقد في انطاكيـــا سنـــة ٣٤١م .

٣ـ مجمع سرديكي ـ عقد فى مدينــــة سرديكي في سنة ٣٤٧م .

ذكرنا هذه المجامع لعلها تكون ذات فائدة للمواطنين وخاصة الطلبة فـــي ابحاثهم التاريخية . وكثيرا ما يرد مثـــل هذه الاسماء عند مطالعة كتب التاريـــخ وغيرها ، وبذلك يكون عند القارىء فكرة عن مكان وتاريخ انعقادها .

ثـــورة السامريين

في سنة ٤٧٤م . قام السامريون بثورة كبيرة في فلسطين ضد حكم الرومان ، واشتدت في منطقة السامرة (نابلس) ،وهجموا على الكنيسة المسيحية في السامرة ، وقتلوا كثيرين من المسيحيين ،وقطعوا الاسقف ترفنتوس اربا ، ثم هجموا بعدها على باقي فلسطين وأحرقوا كل كنيسة صادفتهم في طريقهم . فأرسل الامبراطور الروماني جيشا قويا من طرفه اخمد ثورة السمرة وقتل الكثيرين منهم بحد السيف . ومنع السامريون من الصعود الى جبل جرزيم للسجود في هيكلهم هناك . واقيمت على ظهر الجبل كنيسة عرفت باسم العذراء مريم ، بأمر الملك زينون ، لكن السامريين عادوا وهجموا على الكنيسة ودمروها ، فأرسل لهم الملك جنودا أشداء وضعوا حدا لثوراتهم وجازوهم بأشد العقاب .

في سنة ٥٣٧م ، توفي الملك يوستينوس وخلفه جوستنيانوس العظيم ، وفي عهده ثار اليهود والسامريون للمرة الثالثة في فلسطين . وكان مركز الثورة في نابلس ، حيث انتخبوا لهم ملكا سموه يوليانوس ،فأهلكوا كثيرا من المسيحيين وأساقفتهم بعذابات مختلفة . وهدموا وأحرقوا كنائس عديدة . فلما علم الامبراطور الروماني جوستنيانوس بهذه الثورة ارسل جيشا كبيرا بقيادة قائده يوحنا ، فشتت شمل الثوار وقتل اكثر من عشرين الفا وبعد ذلك حصنت الكنيسة التي على جبل جرزيم بأسوار عالية ، وأعاد بناء الكنائس التي احرقت من قبل السامريين .

وكان من بين الكنائس التي أعاد بناءها كنيسة المهد في بيت لحم ، التي اقامها فوق كنيسة الامبراطور قسطنطين .ورغم أن كنيسة المهد لم تكن مدمرة كليا ، الا أن الامبراطور رأى أن تقام مكانها كنيسة جديدة اوسع منها ، فكانت الكنيسة التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا . وقد لحق هذه الكنيسة الكثير من التصليحات والترميم ، وخاصة السقف الذي استبدل خشبه عدة مرات ، ولكن بدون مساس او تغيير لجدران الكنيسة ،سوى اغلاق المدخلين الجانبيين وبعض الشبابيك بالحجارة .

غـــزوة الفرســـ لفلســـطين

في سنة ٦١٣م قام ملك الفرســـ خسرو بمهاجمة امبراطورية البيزنطيين ، فأرسل قائده « شارباراز » بجيش كبير ، فافتتح دمشق ، ثم ما حولها ، حتى وصل فلسطين في سنة ٦١٤م . وقد كانـــت لهذا القائد خطط حربية ماهــرة حــيرت العقول ، فكان يهاجم اولا مواقع معينـــة ثم يغير اتجاهه الى غيرها ، ثم يعـــود فيهاجم مناطق تركها في السابق .

فقد قام بحركة التفاف كانت زاويتها القصوى مدينة اللد . وبعد ان امتلكها مع السواحل افتتح قيصرية ، ومنها ارتـــدوهاجم القدس ، فلم تقاوم الا اسابيـــع قليلة ، حتى استولى عليها في ٢٠ أيـــار ٦١٤م . فترك للجنود العنان للقيام بنهب وتخريب ما طالته اياديهم في القـــدس . فهدم كنيسة القيامة ، ودكت معها جميع الاديرة التي بداخل القدس وخارجهـــا ، وقتل الكثير من السكان ، وخاصـــــة المسيحيون منهم الذين كانوا يذبحـــون في كل مكان . واستولى الفرس علـــى خشبة الصليب ، واخذوها مع البطريرك زخريا ووجهاء القدس وزعمائها أســرى الى بلاد فارس .

وكان نائب البطريرك في ذلك العهد ، رجلا حكيما هماما أسمه موذوستوس ، فاهتم بلم شتات السكان ممن سلم مـــن سيف العدو ، واستنهض الهمم لترميـم القدس ، وبمساعدة المتنسك انتوخوســـ سطرانيوس تجمعوا السالمين مـــــن السكان ، فجمعوا الاعانات من كل مكان لتصليح القدس ومساعدة المنكوبين مـــن السكان ، وحصلوا على اعانات مـــن دمشق ومن صور ومن مصر وغيرها .

ويذكر المرحوم خليل ابراهيم تزاقيا في كتابه تاريخ الكنيسة الارثوذكسية عن غزوة الفرس لفلسطين القصة التالية :

« وكان سطرانيوس الناسك قـــددون تاريخ خراب القدس علـــى يــــد الفارسيين بخط يده باللغـــة الكرجيـــة وترجمها المؤرخ مارس الى اللغــــــة اليونانية وجاء فيما كتبه ما يلـــــي : « بينما كان البطريرك زخريا يرعـــى الكنيسة بأمانة ونشاط ، اتى الى بيـت المقدس قوم منقسمون الى حزبيـــن ، الخضر والزرق ، فحدثت في المدينـــة المقدسة القلاقل والاضطرابات المتواصلة . وفي ذلك الزمن استولى الفرس علـــى سوريا بعد ان هزموا الجنود اليونانيين ، ثم هجموا على فلسطين ، فأخذوا السامرة (نابلس) وقيصرية اولا .

ثم تقدموا نحو القدس وطلبـــوا التسليم ، وكان البطريرك زخريا راغبـــا في التسليم حقنا للدماء ودفعا للدمـــار الذي كان مزمعا ان يحل بالمدينة . ولكن

الحزبين المذكورين الخضر والزرق مانعــاوقرروا المدافعة عن المدينة لآخر نقطة دم تجري في عروقهم . وأرسل القديســـسثيوذوسيوس من ديره يخبر الجنـــود اليونانيين المخيمين في أريحـا فوصـــل الخبر متأخـرا .

ان الفرس قضوا على الاديــــرةوالرهبان قبل وصول الخبر الى الجنود ، فهدموا الاديرة وذبحوا من وجدوه فيها ،وبعدها ضيقوا الحصار على القـدس ، فرفعوا الابراج حولها ، واقاموا عليهـاالمنجنيقات (راميات الصخور) ، ومنهـا كانوا يرمون المدينة وأسوارها بشدة .وفى اليوم العشرين من أيار ، شنـــوا

هجوما عاما ، وتمكنوا من دخـــــولالمدينة ، فهرب الجنود القلائل الذين كانوا يدافعون عن المدينة واختبأ كثير منهـــمفي الخنادق وآبار المياه ليسلموا مـــن سيــف العـــدو .

وأما الشعب فكانوا يلجأون الـــىالكنائس والاديرة والاحتماء فيها . وقد نجا موذستوس باختفائه في داخل مغارةصخرية ، أما الفرس فكانوا يعملـــون سيوفهم في كل من صادفوه في كل مكان ،فدخلوا الاديرة والكنائس ، وذبحوا كــل من وجدوه فيها بدون شفقة ، وانتشـــرالسلب والنهب والحرق فى كل انحـــاء المدينة ، وكان الدم يجري في الاســـواقكالنهر . اما البطريرك مع رؤســـاء المدينة فسيقوا أسرى الى بلاد فارســـمع الغنائم الكثيرة والاثار المقدسة ، ومنها خشبة الصليـــب .

وكانت زوجة ملك الفرس كســرى(خسرو) مسيحية بارة . فالتمســت من زوجها ان يمن عليها بخشبة الصليب :وان يهبها حياة البطريرك ومن معه ليكونوا تحت رعايتها واهتمامها ، فلبى طلبهـــا .وتوسلت الى زوجها ايضا باعادة الاماكن المقدسة في القدس ، وذلك غيرة منهـــاعليها ، وتخفيفا لوطأة الكارثة التـــي حلت بالقدس وبالمسيحيين .

وبعد خمسة عشر سنة من دخـــولالفرس كان على كرسي الامبراطوريـــة الرومانية هرقل . وكان ملك الفرســـكسرى قد توفي ، وقام ابنه هرمز خلفا له . وقامت حرب جديدة بين هرقل وهرمـــزفدحرت الجيوش الفارسية عن فلســطين وسوريا ، وعقد الصلح بين الاثنيـــن .وكان من أول شروطه اعادة خشبـــة الصليب والبطريرك زخريا مع جميــــع الاسرى ، وهكذا كان . فان هرمز اطلق سراح البطريرك ومن كان معه ، وسلمهمخشبة الصليب ، فعادوا الى فلسطين » .

وفي ٦ آذار سنة ٦٣٠م شهــــدتالقدس يوما سعيدا من أيام تاريخهـــا العظيم ، اذ دخلها عائدا الى ابنائـــهالبطريرك زخريا ورفاقه بعد فراق طويل ومؤلم . وكان يرافقهم الامبراطور هرقـلحاملا على كتفه خشبة الصليب ، وسار الجميع بين حشد غفير وآيات البشـــروالنصر تلوح على وجوههم ، حتى وصلوا الجلجلة حيث وضعوا خشبة الصليـــبفي موقعها السابق . وكانوا اثناء سيرهم

ينشدون التراتيل الدينية ومنها : « خلص يا رب شعبك وبارك ميراثك ، وامنح ملوكنا المؤمنين الغلبة على البربر ، واحفظ بقوة صليبك جميع المختصين بك» . ثم طاف هرقل بعد ذلك انحاء القدس وشاهد ما حل بها ، فترك للبطريرك اعانات كثيرة لاجل تصليح وترميم الكنائس ومساعدة الشعب ، ثم رجع الى سوريا بعد أن أقام له واليا على فلسطين .

وبعد ذلك بقليل توفي البطريرك زخريا وانتخب مكانه القديس موذستوس ، وبقي على كرسي الرئاسة سنتين . وفي هذه المدة اتم ترميم الكنائس المتهدمة من الفرس ، ودير القديس سابا مع باقي الاديرة التي كان عربان احدى القبائل قد آعتدوا عليها وذبحوا رهبانها بعد أن هدموها ونهبوا كل ما وجدوه أمامهم . وفي سنة ٦٣٤م توفي موذستوس وأقيم خلفا له صفرونيوس الاول الذي يعتبر البطريرك التاسع والخمسين للقدس .

الفتوحـــات العربيـــة

في يوم الاثنين في ٢١ من شهـــر نيسان سنة ٦٠٩م ، ولد النبي العـــربي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مـــرة ابن لؤي بن غالب بن فهر القرشـــي الهاشمي . وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر الزهرية القرشية . فقد محمد والده وهو فى الثانية من عمـــره ، ووالدته توفيت وهو في السادسة مـــن عمره فتولى أمره عمـــه .

ابتدأ يتاجر وهو في السابعة عشرة من عمره ، جهات مصر والشام والقدس . وبدأ دعوته وهو في سن الاربعين ، وبقي ثلاث سنين ينشر مذهبه سرا خوفا مـــن بطش قبيلته قريش ، التي لم يكن مـــن مصلحتها قبول مبادئه التي تقضـــي بتحطيم الاصنام ، مصدر رزقهم وثروتهم وواسطة نفوذهم بين القبائل .

وفي السنة الرابعة جاهر بمبادئـــه الدينية ، فاضطهد مع أتباعه من أهـــل قريش ، واضطر للمهاجرة الى المدينـــة ويثرب وهو فى سن الثانية والخمسين ، فاستقبله أهل المدينة باحترام ، ونصروه ولذا دعوا بالانصار ، وبمساعدتهم تغلب على أعدائه في مواقع كثيرة ، وتوطـــدت دعائم دعوته ولم يبق له منازع ولا معارض في سائر الجزيرة العربية . وسارت سنة هجرته الى المدينة بداية للحساب الهجري حتى يومنا هـــذا .

لم يكتف محمد باخضاع القبائـــل البدوية واعتناقها الدين الاسلامي ، بـــل طمع بابصاره وهمته الى الممالك العظيمة المجاورة ، التي تعرف عليها في سفراتـــه التجارية مثل فلسطين وسوريا ومصـــر وما جاورهـــا .

وعظم أمر محمد عند الجوار حتى أن كثيرين من الفرس واليهـــود اخـــذوا يخطبون وده ، ويطلبون الدخول تحـــت حكمه ، مشترطين على أنفسهم بـــأن يدفعوا له الجزية . وقد قصده لهـــذه الغاية جماعة من رهبان طورسينا وطلبوا منه عهدا يخولهم المحافظة على دينهـــم وعلى ديرهم وأملاكهم الموجودة علـــى الجبل المقدس ، حيث أعطيت أول شريعة الهية للعالم على يد موسى النبي . وكان قد تعرف عليهم وزارهم مرارا في رحلاته التجارية ، فكانوا يكرمون وفادته وينزلونه على الرحب والسعـــة فى أديارهـــم ومناسكهم . فوعدهم خيرا وانه عن قريب سيزورهم في أماكنهم ، وما لبث أن أتـــم بوعده ، بعد مدة قصيرة ، وتوجه الـــى جبل سينا حيث استقبل بكل احتـــرام وترحيـــب .

وسلم الرهبان عهدا ممهورا بكـــف يده ، وهذه العهدة حفظت الى العهـــد العثماني ، فقدمها رهبان الدير للسلطان سليم الاول متذرعين بها للحصول منـــه

على تأمين ومساعدة ، فقبل طلبهم . ولما استلم السلطان سليم الاول هذه العهدة قال : « انني لم اسر بامتلاكي مصر كما سررت لعثوري على هذا الكنز الثمين » . ثم أخذها معه الى مقر ملكه واحتفظ بها في خزانته . وأعطى رهبان طور سينا صورة منها طبق الاصل ، مصدقا عليها بخاتمه وتوقيعه . واعطى أيضا لكل رئيس دير من الاديرة في طورسينا نسخة باللغة التركية مصدقا عليها من المحاكم الشرعية ، وعليها اوامر الى الملوك والسلاطين وخلفائهم ومن يجيء بعدهم للعمل بموجبها .

وهذا نص العهدة النبوية لرهبان طورسينا كما ذكرها المرحوم خليل تزاقيا في كتابه تاريخ الكنيسة الرسولية الارثوذكسية :—

نص العهدة لرهبان طورسينا

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله بشير ونذير وأمين الخلق أجمعين ، لوديعة الله في خليقة كي لا تكون حجة على الله بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما . كتبه لمن هم على دينه ، عهدا لاولئك القوم الذين هم على دين النصرانية من مشارق الارض الى مغاربها ، بعيدهم وقريبهم ، عربيهم وعجميهم معلومهم ومجهولهم . هذا كتاب ما عهده اليهم وكل من خالف ما فيه من العهد يكون مخالفا له ولغيره ، ومتعديا على ما أمر به وقد افسد عهد الله ولم يصدق ميثاقه ، ولم يخضع له ، ويكون قد استهزأ بدينه ومستحقا لعنته ، آن يكن سلطانا او كان غيره من المسلمين المؤمنين . فمتى كان راهب او سائح مجمعا في جبل او وادي او مغارة او معمور او سهل او كنيسة او معهد فنحن من ورائهم . واني لاذب عنهم بنفسي وأعواني وانصاري وشعبي ، هم وأموالهم واثوا بهم اذ انهم من رعيتي واهل ذمتي ، وادفع عنهم كل ما يكدرهم ولا يكون عليهم جبر ولا اكراه ، ولا يتغير من كان عليهم قضاة منهم وظيفتهم ولا رهبانهم عن رهبانيتهم ، ولا أصحاب الخلوات عن الاقامة فى صوامعهم . ولا يسلب احد سياجهم ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم ولا يتلفه ولا يدخل شيء منها الى بيوت المسلمين .

ومن اخذ شيئا من ذلك فيكون قد افسد عهد الله وخالف رسوله حقيقة ، ولا يطرح خراج على قضائهم ورهبانهم . ولا من كان مشغولا في العادة منهم ولا شيء اخر غرامة كان او خراجا او مظلمة او اخرى ، فاني انا احفظ ذمتهم في البحر والبر والمشرق والمغرب والشمال والجنوب . واينما كانوا وهم فى ذمتي وميثاق اماني من جميع الاشياء التي يكرهونها ، فلا يؤخذ خراج ولا اعشار ممن يتعبد في خلوة في الجبال ، ولا من يزرع في تلك الاراضي المباركة ، ولا احد يشاركهم في طريقهم ولا يشترك معهم بدعواه ان ذلك لغيرهم .

ويعطى لهم فى أوقات المواسم من كل أردب قدحا لاجل مأكولهم فلا يقال لهم ان هذا كثير ، ولا يطالبون بخراج ، ولا يؤخذ من ذوي الخراجات أيضا ولا من

الاغنياء وارباب التجارة ، زيادة عن اثني عشر درهما في السنة عن كل راس . ولا يكلف المسنون منهم زيادة عن الحد المعين ولا يكلفهم احد الى سفر او يلزمهم الى حرب او نقل سلاح ، انما المسلمون يحاربون عنهم ويجادلونهم على احسن وجه اتباعا للاية الكريمة : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن » . فيعيشون مرحومين ويمنع عنهم ما يكدرهم او يضيق عليهم من كل داع اينما كانوا وفي اي محل نزلوا . واذا تزوجت امراة نصرانية مسلما ، فلا يكون ذلك الا برضى تلك المراة ، ولا تمنع الذهاب الى كنيستها وقت الصلاة ، وتحترم كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها ولا من حرمة ديورتهم . ولا يلتزمون بنقل سلاح او حمل حجارة ، وانما المسلمون يذبون عنهم ولا احد من الامة يخالف هذا العهد الى يوم القيامة وانقضاء الدنيا . هذا العهد الذي كتبه محمد بن عبد الله الى جميع ملة النصارى ، اشترط جميع ذلك ليفي به ومعه ايضا الذين اثبتوا اسماءهم وشهادتهم وقد اشهد الصحابة العظام عليه في اخره وهم :

علي بن ابي طالب ، وابو بكر بن قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وابو الدرداء ، وابو هريرة ، وعبد الله بن مسعود ، وعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن عباس ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، وسعيد بن معاذ ، وثابت بن فقيس ، وزيد بن ثابت ، وابو حنيفة بن عتبة ، وهاشم بن عبيد ، ومعظم بن قريش ، والحرث بن ثابت ، وعبد العظيم بن الحسن ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعامر بن ياسر ، وكتب هذا العهد بخطه في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، علي بن ابي طالب ، وفي اليوم الثالث من المحرم والسنة الثانية من الهجرة » .

وكانت دولة الرومان التي كان يقوم على راسها هرقل ، في ذلك الزمان من اقوى الدول في ذلك العصر ، وكذلك كانت حال دولة الفرس التي كان يقوم على راسها كسرى ، وكانت هاتان الدولتان تتناطحان وتعملان على نشر سيطرتهما على الامم المجاورة لهما .

ورغم هذا النصر الذي ناله البيزنطيون على يد هرقل ، والذي كان يتمناه المسلمون ، فان النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ، راى من الحكمة ان يدعو هرقل وقومه الى اعتناق الديانة الاسلامية .

ارسل النبي رسله الى كسرى ملك فارس ، والى المقوقس ملك الاقباط في مصر ، والى امراء عمان واليمامة والبحرين ، والى الملك الغساني ملك الحيرة ، والملك الحارث الحميري ملك اليمن ، والى النجاشي . كذلك ارسل رسولا من عنده ، هو دحية بن خليفة الكلبي ، ارسله الى هرقل عظيم الروم ، يدعوه الى الاسلام . وارسل مع الرسول كتابا الى هرقل ختمه بخاتمة الذي نقش عليه « محمد رسول الله » قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدى أما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم . يؤتك الله اجرك مرتين . فان توليت فانما عليك اثم الاريوسيين . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله . فان تولوا قولوا اشهدوا بأننا مسلمون » .

كان هرقل عندما دخل عليه رسول النبي العربي دحية الكلبي ، في مدينة حمص وكان قد عاد يومئذ من المعركة التي انتصر فيها على الفرس . فتناول كتاب النبي من يد الرسول الذي حمله اليه ، وتلي عليه مترجما . فلم يغضب بل رد عليه ردا حسنا ، ولكنه في قرارة نفسه لم يكن راغبا في الاستجابة الى ما جاء في الكتاب . وقد ظل المسلمون يعدون العدة لفتح القدس . وقد جاءهم التوفيق على يد عمر بن الخطاب الذي تم له ذلك في السنة الخامسة عشر للهجرة الموافقة سنة ٦٣٦م .

توفي النبي محمد نهار الاثنين من شهر ربيع الاول سنة ١١هـ سنة ٦٣٢م ، وخلفه ابو بكر الصديق الذي دام خليفة ٢٧ شهرا ، وبعد وفاته تعين خليفة عمر بن الخطاب ، وهذا اول من سمي بأمير المؤمنين في ١٦ جمادى الاخر سنة ١٣ هـ سنة ٦٣٤م . وفي زمنه اخضعت بلاد الفرس وسوريا ومصر وخفق العلم العربي فوق قرطجنة ، فأوقعت هذه الفتوح العظيمة الرعب في قلوب الممالك والبلدان الاخرى الواقعة على سواحل الاطلنطيكي والى الشرق من بلاد الهند حتى بحر الخزر .

فلما بويع ابو بكر الصديق خليفة على المسلمين ، قام برعاية شؤونهم على اكمل وجه ، واكمل وصية النبي بفتح بلاد الشام ، فأرسل الجيش الذي كان النبي قد أعده بقيادة اسامة بن زيد وأوصاه بما يلي :

لا تخونوا ، لا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له . وكان يعني بالذين فرغوا انفسهم ، الرهبان والنساك في صوامعهم وأديرتهم . ولما تولى الخلافة ابو بكر الصديق ، راح يستنفر القبائل العربية فلبى هؤلاء دعوته ، فخفوا اليه سراعا من جميع انحاء الجزيرة العربية ، واعتزم فتح بيت المقدس والشام وما حولها من بلدان . وجهز لهذه الغاية اربعة جيوش ، وعقد الويتها لاربعة من كبار القواد وهم :

١ـ عمرو بن العاص ووجهته فلسطين

٢ـ شرحبيل بن حسنة ووجهته الاردن

٣ـ يزيد بن ابي سفيان ووجهته البلقاء

٤ـ ابو عبيدة بن الجراح ووجهته الشام .

فانطلق كل جيش فى انجاه الوجهة التي عهد اليه بفتحها . ثم التحق بهم خالد بن الوليد ، قائد جيش العراق ، فولوه امارة الجيش المحارب كله . ووقعت واقعة اليرموك الشهيرة بين جيوش الروم والجيوش العربية ، فكان النصر حليف العرب . وكانت معركة اليرموك هذه من المعارك الفاصلة التي قررت مصير سوريا وفلسطين ، وأزالت سيطرة الروم عن الشرق كله .

بعد معركة اليرموك انتشرت الجيوش العربية في اتجاه دمشق والقدس لفتحها . فلما انتهى ابو عبيدة بن الجراح من فتح الشام ، سلم أمورها الى يزيد بن ابي سفيان ، ورجع هو ليتولى بنفسه قيادة الجيش الذي كان يحاصر القدس سنة ٦٣٥م . وكان مجموع الجيوش العربية التي توجهت لفتح القدس ، سبع فرق تتألف كل واحدة منها من خمسة الاف مقاتل بين فارس وراجل ، يقود كل فرقة عقيد . وكان عمرو بن العاص يفتتح المدن الفلسطينية الواحدة بعد الاخرى . وفي هذه الاثناء توفي ابو بكر الصديق ، وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب .

بقي القتال حول اسوار القدس اربعة شهور ، لم ينقض يوم واحد منها دون قتال الى أن قنط السكان فراوا أن التسليم اجدى . فطلبوا الامان وخرج فريق منهم يتقدمهم البطريرك صفرونيوس فقابلوا القائد ابا عبيدة ، وطلبوا منه الصلح . ولكنهم اشترطوا ان لا يسلموا المدينة الا لشخص الخليفة عمر بن الخطاب ، لما سمعوا عنه من العدل والرحمة . فوافقهم ابو عبيدة على طلبهم ، وأمر جنده بالكف عن القتال ، وكانت هدنة استمرت الى أن جاء عمر بن الخطاب الى القدس ، حال استلامه كتابا من ابي عبيدة يخبره عن طلب الصلح وتسليم القدس له فقط .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن الخطاب جاء الى القدس من جهة جبل المكبر . فلما بلغ ذلك الجبل شاهد منه مدينة بيت المقدس ، هلل وكبر مرارا وتبعه صحبه فهللوا وكبروا . ومن ذلك الوقت سمي هذا الجبل « جبل المكبر » .

فلما اقترب الخليفة عمر من (ايليا) تلقاه القادة والجنود بخيلهم ورماحهم ورجالهم ، واصطفوا لاستقباله صفوفا متراصة وهم يركبون خيولهم ، يتقدمهم قائدهم ابو عبيدة شاكا سلاحه وهو على بعيره ، يحيط به موكب عظيم من جنده وحاشيته ، وجرى اللقاء الحار بين أمير المؤمنين وقائده .

وبعد أن استراح الخليفة وقص عليه ابو عبيدة ما جرى معه منذ ان غادر مكة حتى ذلك اليوم ، أمر من فوره أن يبلغوا بطريرك المدينة بوصوله ، فلبى طلبه حالا . وفي اليوم التالي خرج البطريرك لملاقاة الخليفة ، يتبعه الاساقفة

والرهبان ، حاملين الصليب المقدس ،ولما وصلوا الى مقام الخليفة ، خف للقائهم وحياهم بالسلام . ثم تحادثوا في شروط التسليم ، فكتب لهم وثيقة الامان . التي عرفت فيما بعد بالعهدة العمرية ، وسلمها الى صفرونيوس بطريرك الروم .

وتنص النسخة الموجودة حاليا في بطريركية الروم الارثوذكس في القدس ، وهي نسخة عن الاصل المحفوظ في مكتبة بطريركية الروم الارثوذوكس بالفنار من اعمال استانبول في تركيا ، تنص بما يلي :

صورة مرسوم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

« الحمد لله الذي اعزنا بالاسلام واكرمنا بالايمان . ورحمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . وهدانا من الضلالة . وجمعنا بعد الشتات ، والف قلوبنا ونصرنا على الاعداء ومكن لنا من البلاد وجعلنا اخوانا متحابين . واحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة . هذا كتاب عمر بن الخطاب لعهد وميثاق اعطي الى البطريق المبجل المكرم في قومه وهو صفرونيوس بطريق الملة الملكية في طور الزيتون بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا واين وجدوا وان يكون عليهم الامان . وان الذمي اذا حفظ احكام الذمة وجب له الامان والصون منا نحن المؤمنين والى من يتولى بعدنا . وليقطع عنهم اسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع وليكون عليهم الامان وعلى كنائسهم ودياراتهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلا وخارجا . وهي القمامة وبيت لحم مولد سيدنا عيسى عليه السلام . وكنيسة الكبرى والمغارة ذي الثلاثة ابواب ، قبلي وشمالي وغربي . وبقية اجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش . والذين يأتون للزيارة من الافرنج والقبط والسريان والارمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين للبطريق المذكور . ويكون متقدما عليهم لانهم اعطوا من حضرة النبي الكريم الحبيب المرسل من الله تعالى وشرفوا بختم يده الكريمة وامرنا بالنظر اليهم والامان عليهم . كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم اكراما لمن احسن اليهم ويكون معافا من الجزية والغفر والمواجب ، مسلمين من كافة البلايا في البر والبحر وفي دخولهم للقمامة يؤدي النصراني الى البطريق درهم وثلث درهم من الفضة . وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما امرنا به سلطانا ام حاكم ام والي يجري حكمه في الارض ، غني ام فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات .

وقد اعطي لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام تحقيقا . عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وبقية الاخوة والصحابة الكرام . فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به وابقاه في يدهم وصلى

الله تعالى على سيدنا محمد واله واصحابه وسلم والحمد لله رب العالمين . حسبنا الله ونعم الوكيل . حرر في العشرين من شهر ربيع الاول سنة خامسة وعشر للهجرة النبوية . وكل من اطلع وقرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الان الى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثا ولرسوله الحبيب باغضا ومخالفا » .

وقد كتب المؤرخ سعيد بن البطريق من كيفية تسلم مدينة ايليا لعمر بن الخطاب واعطائه عهدته المشهورة للبطريرك صفرونيوس ما يلي : —

فخرج صفرونيوس بطريرك بيت المقدس الى عمر بن الخطاب ، فاعطاه عمر الامان وكتب له كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب لاهل مدينة ايليا : انهم امنون على دمائهم واولادهم وأموالهم وكنائسهم لا تهدم ولا تسكن . وأشهد الشهود وفتح باب المدينة له ، فدخل عمر بن الخطاب المدينة واصحابه » .

وكان أول عمل قام به عمر بن الخطاب هو زيارة كنيسة القيامة ، وبعد أن زارها جلس في صحن الكنيسة . فلما حضرته الصلاة ، قال عمر للبطريرك أريد أن أصلي ، فقال له البطريرك يا أمير المؤمنين صل موضعك ، فأجابه عمر ليس ههنا أصلي . فأخرجه البطريرك الى كنيسة قسطنطين المجاورة ، وطرح له حصيرا في وسط الكنيسة . فقال له عمر ولا ههنا اصلي ايضا . فخرج عمر الى الدرجة التي على باب كنيسة مار قسطنطين مما يلي المشرق ، فصلى وحده على الدرجة . ثم جلس وقال لصفرونيوس ، يا بطريرك اتدري لماذا لم اصل داخل الكنيسة ، فأجابه البطريرك يا امير المؤمنين لا أعلم بذلك . فقال له عمر لو صليت داخل الكنيسة ، كانت تتلف عليك الكنيسة وتخرج من يدك ، وكان المسلمون يأخذونها منك بعدي فيقولون ها هنا صلى عمر بن الخطاب . لكن ايتني بقرطاس أكتب لك سجلا . فكتب عمر سجلا على أن لا يصلي احد من المسلمين على الدرجة الا واحد فواحد ،ولا تجمع فيها صلاة ، ولا يؤذن عليها ، وسلم السجل للبطريرك .

ثم ان عمر قال للبطريرك : لقد وجدت لي عليك حق ذمام ، فأعطني موضعا ابني فيه مسجدا . فقال له البطريرك انا اعطي أمير المؤمنين موضعا تبني فيه مسجدا ، عجز ملوك الروم عن بنائه ، وهي الصخرة التي كلم الله يعقوب النبي عليها . وسماها يعقوب باب السماء ، وسماها بنو اسرائيل تدس الاقداس . وهي فى وسط الارض ،وكانت هيكلا لبني اسرائيل يعظمونها . وحيثما كانوا اذا صلوا يولون بوجوههم اليها . على أن تكتب لي سجلا ان لا يبنى في بيت المقدس غير هذا المسجد . فكتب عمر بن الخطاب له سجلا بهذا ودفعه للبطريرك .

وهذا المكان هو مقام فوقه في يومنا هذا مقابل كنيسة القيامة المسجد المعروف

باسم « مسجد عمر بن الخطاب » . ثم هدم مع مرور الزمن واقيم مكانه المسجد الذي نراه حاليا .

وكان الروم قد تنصروا في عهد الملك قسطنطين ، وبنت والدته الملكة هيلانة الكنائس الكثيرة في القدس وبيت لحم وغيرها ، وكان مكان الصخرة وحولها خرابا ، فتركوه ورموا فوق الصخرة التراب حتى صار فوقها مزبلة عظيمة . وقد تركها الروم ولم يعظموها كما كان بنو اسرائيل يعظمونها . ولم يبنوا عليها كنيسة لقول السيد المسيح فى انجيله « هوذا بيتكم يترك لكم خرابا » وقال ايضا (انه لا يبقى فيه حجر على حجر لا يهدم ولا يخرب) فلهذا السبب تركها النصارى خرابا لم يبنوا عليها كنيسة .

واخذ البطريرك صفرونيوس بيد الخليفة عمر بن الخطاب وأوقفه على المزبلة واشار اليه بمكان الصخرة . فأخذ عمر بطرف ثوبه وملاه ترابا من فوق الصخرة ورمى به في وادي جهنم خارج السور . فلما شاهد المسلمون ان الخليفة عمر بن الخطاب قد حمل التراب في حجره ، لم يتأخر احد منهم حتى حمل التراب في حجره وفي الثياب وفي الاتراس وفى الزنابل والاجاجين ، والقوا بالتراب في وادي جهنم حتى نقوا الموضع ونظفوه واستبانت الصخرة . فقال قوم نبني المسجد ونصير الصخرة في القبلة . فقال عمر لا ، ولكننا نبني المسجد ونجعل الصخرة فى اخر المسجد . فبنى عمر المسجد وجعل الصخرة في اخر المسجد .

أما ما جاء في العهدة من تسمية الارثوذكس (الملة الملكية) فقد ذكر عن هذا بروكوبيوس الملقب « عرب اوغلو » ، في مجموعته الخطية المبينة جميع وقائع البطريركية المقدسية ، والمحتوية على أهم المرسومات المعطاة للبطريركية ، والقائلة بالمحافظة على اماكن الزيارات ومقاماتها المقدسة ، فذكر ما يلي :

« فى تلك الايام كان في القدس ، ثلاث شيع للنصارى . وعندما استقصى عمر القابهم منهم ، أجاب البعض انهم يعاقبة ، والبعض انهم نساطرة ، والبعض انهم موارنة . وعندما سأل الخليفة عمر البطريرك صفرونيوس عن لقب رعيته اجاب . يا أمير المؤمنين ، أمهلني ثلاثة أيام لافكر ، فلبى الخليفة طلبه . فأخذ البطريرك يصلي بحرارة لله ، متضرعا لكي يهديه الى ما يجيب به أمير المؤمنين . وفي اليوم الثالث فيما هو واقف في صلاة السحر « صلاة الفجر » في الكنيسة سابحا فى بحر الافكار والاهتمام بأمور الله ألتي لا تدرك ، وقع في ذهول ورأى ملاك الرب يقول له : « يا صفرونيوس خادم الله ، عند انتباهك ، فالكلمة التي تسمعها أولا من فم القارىء ، سم بها شعبك . فعندما انتبه البطريرك من ذهوله كانت أول كلمة سمعها من الشماس هو « ملكي والهي » ففرح جدا . وبعد انتهاء الصلاة ، ذهب رأسا الى عمر وذكر له الحادث كله كما كان ، فتعجب الخليفة من رواية البطريرك وقال له : لقد تسمى النصارى بما اختارت من الاسماء أما انتم الذين وقفتم انفسكم على خدمة الله الذي هو اله وملك ،

فبحق يجب أن تسموا « ملكيين » . وأمر بأن يقيد جميع المسيحيين الارثوذكس في فلسطين ومصر والشام بلقب (الامــــة الملكيــة) » .

وبعد ان زار الخليفة عمر كنيســة القيامة ، ذهب في اليوم التالي برفقــــة البطريرك الى بيت لحم لزيارة كنيســـة المهد . وحان وقت الصلاة فصلى عمر في الحنية الجنوبية من كنيسة المهد وأعطــى صكا للبطريرك بأن لا يصلي في هـــذه الكنيسة من المسلمين الا واحد فواحد ، وأن لا يرفع فيها أذان .

وبعد أن اتم عمر بن الخطـــاب زياراته لكنيسة القيامة ومكان الصخرة ، راح يتجول في شوارع واسواق بيــت المقدس ، وكانت لا تزال تئن من الخراب الذي لحق بها من الغزو الفارسي ، الذي سبق الفتح الاسلامي باثنتي عشرة سنة ، فرأى أن يبدأ بالتنظيم الاداري والقضائي أولا .

ثم وضع التاريخ الهجري ، ودون الدواوين ، وقسم البلاد الى مناطـــق ، وعين عليها الامراء . ورتب البريد ، وأقام العيون « الاستخبارات » ، وعين قاضيا « مفتشا » يطوف على المأمورين ، ويحقق في الشكاوي . واسس الحسبة « البلدية» لمشارفة الموازين والمكاييل ومراقبتهـــا ولمنع الغش ، وتنظيف الشوارع والازقة ، وهدم البناء المحدث في وسط الســوق ، وحظر على الناس الازدحام في الطرق .

وحث الناس على التجارة ، فقال لا تلهكم الرئاسة وحبها ، لا يغلبنكـــم الغرباء على التجارة فانها ثلث الامارة ، وقضى عمر أياما في بيت المقدس يرتــب امورها ، ووضع كل شيء في نصابـــه ، حتى استراح باله فاطمئن واعتزم الرجوع الى المدينة المنورة .

وبعد أن ودع قادته وجنده ، خاطبهم قائـــلا :

« يا أهل الاسلام ، ان الله قــــد صدقكم الوعد ونصركم على الاعـــداء ، واورثكم البلاد ، ومكن لكم في الارضـــ ، فلا يكونن جزاؤه منكم الا الشكر . واياكم والعمل بالمعاصي ، فان العمل بالمعاصي كفر للنعم . وقلما كفر قوم بما أنعـــم الله عليهم . ثم لم يفزعوا لتوبة الا سلب عزهم وسلط عليهم عدوهم » .

وقبل سفره الى الحجاز أقام عمـــر على بيت المقدس « يزيد بن أبي سفيان » على ان يأتمر بأوامر عبيدة بن الجراح . وانتدب للصلاة من بعده «سلامة بن قصير» واما من الناحية العسكرية فقد أمـــر على فلسطين رجلين . فجعل « علقمــة ابن حكم » على نصفها الشمالي وأنزلـــه مدينة الرملة ، « علقمة بن مجزر » على نصفها الجنوبي وأنزله ايليا ، فنزل كــل منهما في عمله مع جنوده .

ولقد عاد عمر ، فزار القدس مرة ثانية بعد عامين ، أي في سنة ١٧ للهجرة سنة ٦٣٩م وتعرف بعام الرماد ، اذ اجتاح الحجاز عامئذ قحط شديد ، فجــــاع الناس وهلكت الماشية . فأمر الخليفـــة عامليه أبا عبيدة وعمرو بن العاصــــ ، فأرسلا الحبوب من سوريا وفلســـطين الى البلاد الحجازية بطريق العقبة .

وقام عمر فى زيارته الثانية لبيت المقدس ، يتفقد الاحوال الادارية والعسكرية للبلاد . فسمع الشكاوي فاسى الثكالى واليتامى ، وأعان الفقراء والمحتاجين ، ونظر في أمور الناس ومصالحهم .

كانت اللغة اليونانية قبل الفتح الاسلامي وفي أوائله سائدة في بيت المقدس ، فأتت مع الفتح ، اللغة العربية تنافسها . وما الا بضع سنين حتى تلاشت الاولى وسيطرت الثانية .وفي خلافة عبد الملك بن مروان الغيت اليونانية . وقامت مكانها اللغة العربية ،وراحت هذه تستعمل فى جميع مصالح الدولة ودواوينها . وضربت الدنانير الاسلامية فأصبحت الحكومة عربية بكل ما في الكلمة من معنى .

اما صفرونيوس بطريرك القدس لم يعش مدة طويلة بعد فتح العرب لبيت المقدس ، وتوفي بعد ذلك بسنة تاركا وراءه مجموعة كبيرة من مؤلفاته الدينية والتاريخية والادبية ، تبعثرت هنا وهناك مع مرور الزمان .

في سنة ٦٤٤م توفي الخليفة عمر وخلفه الخليفة عثمان بن عفان . وفى عهد هذا الخليفة لم يذكر المؤرخون اخبارا تاريخية تتعلق بحالة فلسطين .

العهد الاموي

اسس دولة الامويين معاويه بن ابي سفيان ، وكان في عهد النبي . كاتب الوحي ، وكان أحد قادة الجيش العربي الذي انتدبه الخليفة ابو بكر الصديق لفتح الشام وفلسطين ، فقد اشترك في واقعة اليرموك ، وحاصر قيصرية وافتتحها . وحضر فتح بيت المقدس ، وكان من شهود « العهدة العمرية » التي أعطاها الخليفة عمر بن الخطاب لاهل ايليا . وقد ولاه عمر بعدئذ الشام (١٨ هـ — ٦٣٩ م) ، وولاه عثمان بن عفان نفس العمل بعد عمر .

بويع بالخلافة في سنة (٤١هـ — ٦٦١م) وانشأ اسطولا عظيما غزا به الروم وحاصر القسطنطينية . وابتكر في الدولة اشياء لم يسبقه اليها احد . منها انه أول من وضع البريد واستخدم المسيحيين فى مصالح الدولة واخرج الخلافة عن أصولها ، فبعد أن كانت بالعهد لافضل الصحابة او بالشورى بينهم ، جعلها كالملك وراثية . وكان اول من اتخذ (سرير الملك) للجلوس عليه فى الاسلام ، وهو اول من اتخذ « المقصورة » للصلاة في الجامع .

زار القدس في عهد مؤسس الدولة الاموية معاوية بن ابي سفيان ، اسقف فرنسي الاصل يدعى اركولفوس Arculfus هبطها في سنة ٦٧٠م ، وقضى فيها تسعة شهور ، وذكر عنها الشيء الكثير والى القراء بعض النقاط التي تهمنا من رحلته : —

١— كان على سور القدس يومئذ ٨٤ برجا ، وله ستة أبواب ، ثلاثة منها تستعمل للدخول والخروج : واحد منها غربي المدينة والثاني شماليها والثالث شرقيها .

٢— في اليوم الخامس عشر من ايلول فى كل سنة يؤم القدس من كل حدب وصوب جماهير غفيرة مختلفة الاجناس والاديان بقصد التجارة وتبادل العطاء والشراء . وكثيرا ما يمكث هؤلاء في المدينة المضيافة بضعة أيام . فترى الشوارع مكتظة بجمالهم وخيلهم وحميرهم وثيرانهم وبغالهم . فتصبح الشوارع ممتلئة بروث الحيوانات وفضلات القادمين ومن الغرائب التي لا يكاد المرء أن يصدقها ، ان المطر يهطل بغزارة عشية اليوم الذي تترك فيه هذه الجموع الغفيرة وحيواناتها المدينة ، فيغسل الشوارع ويزيل ما فيها من روث واقذار . وتسيل مياه الامطار هذه في المنحدرات كالانهار . ويجمع بعض هذه الامطار في آلابار التي لا يكاد يخلو منها دير أو مسكن ، لاستعمالها للشرب وحاجات السكان .

٣— ليس على جبل الزيتون اشجار خلا العنب والزيتون ، ولكن نوعا جيدا من

القمح يزرع فيه . واظن ان تربة هـذا الجبل لا تساعد على غرس الاشجار وانما تصلح لزرع الحبوب والزهور . ان اعلى نقطة فيه مرتفعة عن سطح البحر مقدار ٢٦٩٣ قدما .

٤ـ ان جبل صهيون اصغر من جبل الزيتون من حيث الطول والعرض وبين هذين الجبلين يقع وادي يهوشفاط ، ويقال له وادي جهنم ووادي قدرون ايضا .

٥ـ ويؤتى بالخشب الى بيت المقدس من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة اميال من الخليل الى الشمال ، وعلى تل منتصب في وسط السهل متسع على يسار المسافر الى القدس ، ولا يبعد عن الطريق الا قليلا . وفي هذه الغابة تنبت اشجار الصنوبر بكثرة . ومن هذه الاشجار ينقل المقدسيون الخشب الذي يحتاجون اليه اذ ان المركبات والكارات نادرة الوجود في القدس ، وفيما حولها من البلدان .

عين معاويه ولده يزيد وليا للعهد . ولما مات تولى يزيد الملك (٦٠هـ — ٦٨١م) وفى زمنه قامت فتن في الحجاز والعراق . وبعد موت يزيد ، بويع ابنه معاوية (٦٤هـ — ٦٨٤م) . ولكنه لم يلبث في الملك اكثر من شهر ونصف ، اذ توفي دون ان يكون له ولد .

بايع اهل الحجاز عبد الله بن الزبير . ويقال أن معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة قبل وفاته . ومن قائل انه تنازل عنها يوم بايعوه ، لما شعر بعجزه عن مناهضته . وبقيت مصر مترددة حينا ثم أقرته .

واما أهل الشام فقد بايعوا مروان بن الحكم ، فاحترب الفريقان : عبد الله ابن الزبير « الحجاز » ومروان بن الحكم « الشام » وجيشاهما في مرج راهط . وانقسمت البلاد الى قسمين قيس ويمن . وكان بفلسطين نائل بن قيس الجذامي فمال الى الزبير ، ولكن مروان حاربه فتغلب عليه ، فاخذها منه . ثم سار الى مصر فصالحه اهلها فاخذها من ابن الزبير . واستتب الامر لمروان في مصر والشام (٦٤ هـ — ٦٨٤ م) .

ولما توفي مروان بن الحكم ، بويع ابنه عبد الملك بن مروان (٦٥هـ — ٦٨٤م) . وعبد الملك بن مروان هو الذي بنى في القدس مسجد الصخرة والمسجد الاقصى وهما من أعظم اثار بني أمية في فلسطين ، لا بل من مفاخر العرب فى الشرق كله . وقد رصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين ، وشرعوا في البناء سنة (٦٦ هـ — ٦٨٥م) وفرغ منه في سنة (٧٢هـ — ٦٩١م) . فبنوا في بادىء الامر قبة السلسلة الكائنة شرقي الصخرة لتكون نموذجا ، ثم بنوا المسجد نفسه .

ذهب بعض المؤرخين ، ان الغاية من بناء مسجد الصخرة بهذا الشكل البديع هي الاستعاضة عن الكعبة بسبب ثورة عبد الله بن الزبير الذي ثار على الامويين وأعلن استقلال الحجاز سنة (٦١هـ — ٦٨٠م) . فاراد عبد الملك بن

مروان أن يصرف الناس عن الكعبة ، خشية ان يأخذهم ابن الزبير عند الحج بالبيعة . وعلى قول آخرين أن عبدالملك بن مروان منع الناس من الحج الى مكة واعتزم بناء مسجد الصخرة .

كذلك ذهب بعض المؤرخين الى القول ان عبد الملك بن مروان انما بنى مسجد الصخرة حتى يكون للمسلمين مسجد يضاهي في بهائه وسحره ، ما لكنائس النصارى من الروعة ، وخاصة انه كان في فلسطين وسوريا وما حولهما يومئذ ، من الكنائس الكثيرة ذات الابهة العالية . فخشي عبدالملك ان يظل المسلمون يتطلعون الى هذه الكنائس المسيحية دون أن يكون لهم ما يفخرون به . وقد روى المقدسي الذي هبط بيت المقدس الذي يحج اليه المسلمون ، خشي أن تؤثر ضخامة هذه الكنيسة على قلوب المسلمين ، فاعتزم ان يبني قبة مثلها أو أحسن ، فنصب على الصخرة القبة التي نراها حاليا .

اختلف المؤرخون فيما اذا كان عبد الملك قد استعمل في بناء مسجد الصخرة بعض الحجارة والاعمدة التي كانت في كنائس فلسطين ، تلك الكنائس التي دمرها الفرس قبيل الفتح الاسلامي او في غيرها من الكنائس .

أما ابن البطريق فروى في تاريخه ما نصه : —

« وبأمر عبد الملك بن مروان قلعت قبة كانت للنصارى في كنيسة بعلبك ، وهي من نحاس مطلي بالذهب ، فنصبها على مسجد الصخرة » .

وهذا الشخص الذي عرف في التاريخ باسم (ابن بطريق) ، هو سعيد بن بطريق من فسطاط مصر . عاش من سنة ٢٦٣هـ — ٣٢٨هـ ، صار في زمن الخليفة الفاطمي القاهر بالله ، بطريركا على الاسكندرية في مصر ، ومات بها . له كتاب في ثلاثة اجزاء سمي « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » طبع في سنة ١٩٠٦م على نفقة الجمعية المشرقية بباريس .

بعد أن بنى عبدالملك بن مروان قبة الصخرة سنة ٧٢هـ — ٦٩٨م شرع في بناء المسجد الاقصى سنة ٧٤هـ — ٦٩٣م وتم البناء في زمن ابنه الوليد سنة ٨٦هـ — ٧٠٥م .

ظل عبدالملك بن مروان يتربص بابن الزبير ، حتى ظفر به ، فقتله سنة ٧٣هـ ، وبايعه سكان الحجاز واليمن ، وصفا له ملك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وغيرها .

ومن اعمال عبد الملك بن مروان ، انه اول من حول الدواوين الى العربية ، ونقش الدراهم بالعربية ، وكان نقش الدنانير قبل ذلك بالرومية والدراهم بالفارسية . كذلك اعتنى عبدالملك بن مروان بفتح الطرق وتعبيدها ، وكان يضع على مسافات معينة من هذه الطرق حجارة ينقش عليها اسم الذي أمر بتعميرها ، والمسافة التي تفصل دمشق مقر الخلافة والمكان الذي فيه الحجر .

بعد وفاة عبد الملك بن مروان بويع ابنه الوليد سنة ٨٦ هـ — ٧٠٥م . وقد كانت أيام الوليد من أبرك أيام أمية ، وقد سهل الطرق ، وعمر الجوامع العظيمة ، وبث في الامة روح العمران ، وأعان الفقراء والمرضى والمقعدين والعميان . وبلغ بنو امية على عهده اقصى درجات العز ، فتغلغلت جيوشه في بلاد الترك والروم والهند . وفتح موسى بن نصير باسمه الاندلس ، فأتى اليه منها بالاموال والجواهر ، ووقف ابناء الملوك والامراء على بابه يطلبون الرضى والامان .

وفي زمن خلافة الوليد بن عبدالملك عومل المسيحيون فى القدس وفلسطين معاملة قاسية ، لعدم موافقتهم المسلمين في الهجوم على القسطنطينية ، وفرضت الجزية على الرهبان ، وجعلت اللغة العربية اجبارية للجميع .

بعد وفاة الوليد بن عبد الملك ولي اخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦ هـ — ٧١٤م) . وبعد وفاته بويع ابن عمه عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ — ٧١٧م . فقد اشتهر هذا بالعدل والحلم وحبه للعلم والعلماء . وقد منع عماله من أخذ الجزية من أهل الذمة . ويذكر له التاريخ مواقف مشرفة من الرهبان والنساك ومساعدة الاديرة .

بعد عمر بن عبد العزيز تعاقب على كرسي الدولة الاموية كل من :

يزيد بن عبد الملك	١٠١ هـ — ٧٢٠ م
هشام بن عبد الملك	١٠٥ هـ — ٧٢٤ م
الوليد بن يزيد	١٢٥ هـ — ٧٤٣ م
يزيد بن الوليد	١٢٦ هـ — ٧٤٤ م
ابراهيم بن الوليد	١٢٦ هـ — ٧٤٤ م
مروان بن محمد	١٢٧ هـ — ٧٤٥ م

وفي زمن مروان بن محمد ، وهو اخر الخلفاء الامويين ، انتشر الفساد وساءت الاحوال في جميع انحاء البلاد وكثرت الفتن بدرجة آن منازعي مروان على الخلافة كثروا ، وكان في طليعتهم ابو العباس الهاشمي . فقد بايعه أهل العراق وخراسان ، فاشتد ساعده ، وجمع جيشا حارب به جيش مروان فتغلب عليه . وهرب مروان الى مصر ، فلحق به وقتله ، وبهذا قضي على الدولة الاموية قضاء تاما ، في ٢٧ جمادى الاخر ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م . وتهرب بنو امية في البلاد هربا بانفسهم .

وكان مع مروان حين قتل ، ولداه عبد الله وعبيد الله . فهربا الى مصر ومنها جنوبا الى بلاد النوبة . وأما عبيدالله فقد مات من الفرار والعطش . وأما عبد الله فقد ذهب الى الحجاز وظل يتنقل في البلاد الى ان اسره ابو العباس السفاح . فعاش في السجن بقية أيام ابى العباس وأيام المنصور والمهدي والهادي ، فأخرجه هارون الرشيد من السجن وهو شيخ ضرير .

العهـــد العباســـي

لما تغلب ابو العباس الهاشمي على بني أمية وقتل اخر خلفائهم مروان بن محمد ، فقد بايعه اهل العراق وخراسان بايعوه في مدينة الكوفة في وسط العراق .

عندما بويع ابو العباس عبد الله محمد الهاشمي في مدينة الكوفة ، في ١٣ ربيع اول سنة ١٣٢هـ — ٧٥٠م ، كان أول عمل قام به هو أنه أقال ولاة الامصار والقاده ، وابدلهم بولاة من اقاربه . وقدلقب هذا الخليفة في التاريخ بالسفاح لكثرة عدد الاشخاص الذين قتلهم ممن كانوا يعارضون خلافته .

أما الخلفاء العباسيون الذين تولوا الخلافة ومنهم :

ابو العباس عبد الله بن محمد	١٣٢هـ — ٧٥٠ م
ابو جعفر المنصور	١٣٦هـ — ٧٥٤م
محمد المهدي	١٥٨هـ — ٧٧٥م
موسى الهادي	١٦٩هـ — ٧٨٥م
هارون الرشيد	١٧٠هـ — ٧٨٦م
محمد الامين	١٩٣هـ — ٨٠٩م
عبد الله المأمون	١٩٨هـ — ٨١٣م
المعتصم بن الرشيد	٢١٨هـ — ٨٣٣م
هارون ابو جعفر « الواثق بالله »	٢٢٧هـ — ٨٤٢م
جعفر بن المعتصم (المتوكل على الله)	٢٣٢هـ — ٨٤٧م
احمد بن محمد بن المعتصم (المستعين بالله)	٢٤٨هـ — ٨٦٢م
المعتز بالله بن المتوكل	٢٥٢هـ — ٨٦٦م
المهتدي بالله بن الواثق	٢٥٥هـ — ٨٦٩م
المعتمد على الله بن المتوكل	٢٥٦هـ — ٨٧٠م
المعتضد بالله	٢٧٩هـ — ٨٩٢م
المكتفي بالله بن المعتضد	٢٩٢هـ — ٩٠٥م
المقتدر بالله جعفر	٢٩٥هـ — ٩٠٨م
القاهر بالله بن المعتضد	٣٢٠هـ — ٩٣٢م

كان عهد الخلفاء العباسيين عاديا ،وبقيت فلسطين ولاية تابعة لهم ، يحكمها وال يعين من قبلهم . أما فى زمن الخليفة هارون الرشيد فقد بلغت دولة العباسيين في أيامه درجة كبيرة من العمران والمجد وازدهار العلم . وقد ذكر التاريخ أن صداقة كبيرة توطدت بين هارون الرشيد والامبراطور شارلمان ، وكانا يتبادلان الهدايا . وكان شارلمان يرسل في كل سنة وفدا الى القدس يحمل الهدايا

الى الخليفة والاموال لتوزع على فقـراء المسلمين في القدس . وارسل الخليفـة مفاتيح كنيسة القيامة مع هدايا اخـرى الى شارلمـان .

في سنة ٧٩٦م اهدى هارون الرشيد الى شارلمان ، فيلا وساعة كبيرة واقمشة نفيسة ، وتعهد هارون الرشيد بحمايـة الحجاج المسيحيين الذين يأتون لزيـارة القدس ، وكذلك سمح للامبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العـذراء التي يقوم على آثارها في يومنا هـذا كنيسة الدباغة . وقد بني بجانب كنيسـة العذراء دير يأوي اليه الزوار المسيحيون من أوروبـا .

وبعد هارون الرشيد كان خلفاؤه في تضعضع مستمر ، وشق الطاعة عليهم الكثيرون من حكام الولايات ، ومنهـم حكام ولاية فلسطين ، ولذلك وقعت عدة حروب عصيان في فلسطين . ولما تولـى الخلافة المكتفي بالله ٢٩٢هـ — ٩٠٤م . ارسل جيشا قويا الى الشـام فأعـاد سيطرة العباسيين عليها . ثم تابـع هجومه على مصر فاستولى عليهـا . وهكذا عادت السلطة الى الخلفـاء العباسيين في الشام ومصر على عهده ، بعد أن بقيت ردحا من الزمن في يـد الطولونيـين .

ثم بعد المكتفي بالله ، بويع بالخلافة جعفر المقتدر بالله ٢٩٥هـ — ٩٠٨م ولـما قتل المقتدر بالله بويع اخوه القاهر بالله ، الابن الثالث للمعتضد بالله ٣٢٠هـ — ٩٣٢م فولى هذا على مصر أبا بكر بن محمـد طفج . ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا لمدة من الزمن عرفت باسـم الدولة (الاخشيدية) .

قبع الخلفاء العباسيون بعد سنـة ٩٣٢م . في قصورهم في بغداد ، فلـم يبق لهم في شؤون الملك حول ولا طول ، واقتصرت سلطتهم على المسائل الدينية ، وظلوا كذلك الى ان زحف هولاكو علـى بغداد (٦٥٦هـ — ١٢٥٧م) وقضى على الخلافة العباسية فيها . فغادروا بغداد بعد أن عاش منهم فيها سبعة وثلاثـون خليفة ، غادروها الى مصر حيث عاشـ منهم خمسة عشر خليفة ، كان آخرهـم محمد المتوكل على الله الذي تنـازل عن الخلافة الدينية الى السلطان سليـم العثماني ٩٢٣هـ — ١٥١٧م وسلمه مفاتيح الحرمين . فتكون خلافة العباسيـين قد عاشت ٧٦٧ سنـة .

ان تأثير العباسيين في فلسـطين في عهدهم الاخير كان ضئيلا بسبب بعـد المسافة ، وكذلك انتقلت السلطة فيهـا من يد العباسيين الى يد الطولونيـين ، فالى الاخشيديين والفاطميين بمصـر . وكانت القدس على عهدهم ولا تزال تحمل اسمها الروماني (ايليا) الذي احتفظـت به منذ الفتح الاسلامي .

زار القـدس في سـنة ٨٧٠م (برنارد الحكيم) بعد أن نال رضى البابا في روما . وقد وصف القدس وما حولهـا من القرى فقال : —

ان المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام . والامن العام مستتب ، حتى ان المسافر ليلا يجب ان تكون بيده وثيقة تثبت هويته ، والا زج في السجن حتى يحقق في أمره ويتضح قصده . واذا سافرت من بلد الى بلد ونفق جملي او حماري وتركت امتعتي مكانها وذهبت لاستئجار دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد .

وكان تفكير برنارد الحكيم منصرفا بالاكثر الى أماكن العبادة ، وذكرها كلها بالتفصيل ولم يذكر عن القدس وبيت لحم الا اليسير . وذكر انه نزل في نزل معد للحجاج الذين يتكلمون اللغة اللاتينية ، ذلك النزل الذي سبق ذكره ، والذي أسسه الملك شارلمان الكبير صديق الخليفة هارون الرشيد ، ويترتب على الشخص الذي يعيش في هذا النزل أن ينقد المحتسب الذي يناظره قطعتين من الذهب كل سنة .

الدولـــــة الطولونيـــــة

عندما غزا العرب بلاد التـــرك ، راحوا يرسلون الى بلاط الخليفة ببغـــداد من يأسرونه من الترك ، فيستخدمهـــم الخلفاء وكبار الامراء في خدمتهم وخدمـــة منازلهم ، ويدعونهم بالمماليك . ومن هؤلاء الاسرى ، مملوك يدعى طولون ، وهـــو ينتمي الى احدى القبائل الاربع والعشرين التي تتألف منها تركستان . فأعجـــب المأمون به والحقه بحاشيتـــه . وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبـــه بأمير الستـــر .

بقي طولون في منصبه عشرين عاما ، خدم خلالها المأمون واخاه المعتصم . وفي زمن المعتصم كان الضعف قد دب فـــي صفوف العباسيين الى درجة انه لـــم يبق للخليفة سلطة في البلاد سوى الاسم . واصبحت خلافتهم دينية لا دنيوية ، سيطر طولون ولقب بعدئذ بأبي العباس .

عين طولون في ســـنة ٣٤٨ هـ اي ٨٦٢ م واليا للعباسين على مصر ، وهناك طارت شهرته . فقد كان قائدا للقـــوات العسكرية هناك ، يأتمر بأمر الخليفـــة العباسي ببغداد . وكان طولون تقيـــا ، لين العريكة مقداما ، ملما بالسياسة ، وبقي ابن طولون واليا عاما على القطـــر المصـــري .

ولما توفي اماجور التركي والـــي الشام للعباسيين . اغتنم طولون الفرصة ليضم سوريا وفلسطين الى مصر ، فسار اليها بجيشـه ، ولما احتشدت جيوشـــه في فلسطين ، اتاه حاكم الرملة خاضعا ، فاقره في منصبه تابعا للدولة الطولونيـــة في مصر ، ولما وصل بجيوشه الى دمشق رحب به على بن اماجور واعلـــن ولاءه للدولة الطولونية واقره في منصبه . وهكذا علت كلمته في بري مصر والشام (٢٦٥ هـ — ٨٧٨ م) .

توفي ابن طولون في اليوم العاشـــر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ — ١١ ايار ٨٨٤ م ودفن عند سفح جبل المقطم قرب القاهرة في مصر . بعد موته اقيـــم أميمة خمارويه في مكانه ، فكان اميرا على مصر والشام . وطد خمارويه بعدئـــذ العلاقات الطيبة بينه وبـــين الخليفـــة العباسي المعتضد بالله ، وارسل الـــى بغداد وفدا يحمل للخليفة الهدايا ، ويعلمه ان مصر تؤدي له الخراج وقدره مائتـــا الف دينار سنويا . فثبته الخليفة فـــي امارته ٣٠ سنة . وقام بعده خلفاؤه حتى سنة ٩٠٥ م حيث انتهى حكـــم الدولـــة الطولونيـــة في فلســطـــين .

الدولـــــة الاخشيديـــــة

ظن الخلفاء العباسيون انهم قضوا على من يناصبهم العداء في مصر والشام ، يوم قضوا على خلفاء طولون ، لكن ظهرت لهم (الدولة الاخشيدية) وراس هـــذه الدولة هو محمد الاخشيد « الملقب بابـــى بكر » بن طغج بن حيف بن يلتيكن بـــن فوري بن خاقــان .

دخل طغج بن حيف فى خدمة خمارويه بن احمد بـــن طولـــون ، فقلده بعـــض المناصب الهامة ، وولاه دمشق وطبرية . وظل يرتقي في هذه المناصب الى أن مات في حبس العباس بن المحســـن وزيــــر الخليفة العباسي المكتفي بالله .

وكان مع طغج في السجن ابنه محمد الاخشيد ، وقد استطاع الفـــرار مـــن السجن ووصل الى الشام . وهناك ولاه الخليفة المقتدر مدينة الرملة ٣٠٦ هـ اي ٩٢٨م . فاقام فيها سنتين ثم تولى الشام ٣١٨ هـ اي ٩٣٠م .

ولما قتل الخليفة العباسي المقتـــدر بالله ، وبويع بالخلافة اخوه القاهر بالله بن المعتضد بالله (٣٢٠ هـ اي ٩٣٠ م) ولي محمد بن طغج على مصـــر ولقـــب بالاخشيد . وهذا اللقب كان لقب ملـــوك فرغانة الذين انحدر منهم ، ومعناه ملـــك الملوك ، وكان ذلك في سنة ٣٢٧ هـ اي ٩٣٨ م . ومن هذا نشأت دولة حكمـــت مصر وسوريا معا مدة من الزمن عرفـــت بالدولـــة الاخشيديـــة .

مات الاخشيد فى دمشق ، ودفن في القدس سنة ٣٣٤ هـ اي ٩٤٥ م. وبعـــد موته ولي الامر ابنه ابو القاسم محمـــــد الملقب بـــ (انوجور) فاستضعفه سيف الدولة والي حلب وقصد دمشق فملكها . فخابروا كافور وصي الامير ، فجهز هـــذا جيشا ، فالتقى الجيشان قرب الرملة ، فانهزم سيف الدولة ، واسترجع كافـــور دمشق وفلسطين ٣٣٤ هـ اي ٩٤٦ م.

ولما مات انوجور بن الاخشيد ٣٤٩ هـ اي ٩٦٠ م ، حمل الى القدس ودفـــن فيها عند ابيه . ومن بعده تولى الحكـــم اخوه علي الملقب بابي الحسن . ولم يكن له من الامر شيء سوى الاسم ، اذ منع كافور الناس من الاجتماع به . وظلـــت صلته بمدير مملكته كافور سيئة الى أن اعتلت صحته . ومات في ١١ محرم ٣٥٥هـ اي ٩٦٥م ، وحمل الى القدس ودفن عند ابيه الاخشيد واخيه انوجور . وبموت ابي الحسن انفرد كافور في حكم مصر ولقـــب بالاخشيدي ٣٥٥ هـ اي ٩٦٥ م. وخطـــب له على منابر مصر والشام والحجاز ، وكانت هذه كلها من اعماله .

توفي كافور سنة ٣٥٦هـ — ٩٦٦ م. ووقع الخلاف على اثر وفاته بين الاخشيديين ، فراح كل منهم يدعي الامارة لنفسه فتضعضعت الدولة الاخشيدية واستولى جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي على البلاد .

لم تكن القدس وما حولها في عهد الطولونيين والاخشيديين ، يومئذ ذات اهمية لا من الناحية التجارية ولا من الناحية العسكرية ، ذلك لانها لم تكن واقعة على الدرب الاساسية بين مصر والشام ، وكانت مدينة الرملة عاصمة ولاية فلسطين عدة قرون ، وكانت الاهمية في ذلك الحين للمدن الواقعة على الساحل من مصر حتى شمال الشام ، ولذلك كانت مثل هذه المدن هي التي تتعرض للغزو والتدمير في معظم الحروب . اما القدس وما حولها كانت لا تقصد الا لغايات دينية وزيارة الاماكن المقدسة فيها .

منشأ الدولة الفاطمية

كانت الدولة الفاطمية شيعية المذهب ، وترجع نشأة الحزب الشيعي الى وقت مبكر في التاريخ الاسلامي ، فكانت الشيعة اول حزب ديني في الاسلام . فقد كان من راي بعض الصحابة ان اولى الناس بالخلافة هم اهل بيت النبي اي بنو هاشم ، واولى هؤلاء ابن عمه علي بن ابي طالب ، غير ان اجتماع السقيفة المشهور انتهى باختيار ابي بكر للخلافة ، ثم عهد ابو بكر لعمر بن الخطاب بالخلافة تعيينا منه . ثم أوصى عمر بعده الى ستة من كبار الصحابة من بينهم علي بن ابي طالب ، ولكن انتهى الامر باختيار عثمان بن عفان .

وبقي الحزب الشيعي في خصام شديد مع دولة الامويين ، وكان من اهم حركاتهم الثورية ، خروج الحسين بن علي في ايام الخليفة يزيد بن معاوية ، وانتهت ثورته بقتله وقتل من معه في مذبحة كربلاء في العراق ، في العاشر من محرم سنة (٦١ هـ اي ٦٨٠ م) ومنذ ذلك الحين يحتفل اصحاب مذهب الشيعة بهذه الذكرى في عيدهم الذي يسمونه عاشوراء.

ودفن الحسين والحسن في مدينة كربلاء ، ثم اقيم مع مرور الايام مسجد كبير فوق قبر الحسين ، وعلى بعد مائتي مترا منه ، مسجد آخر فوق قبر الحسن . وفى المذهب الشيعي لا تتم مراسيم الحج الا بعد زيارة مسجدي الحسين والحسن في كربلاء ، ومسجد علي بن ابي طالب في النجف الاشرف . وتسمى هذه الاماكن بالعتبات المقدسة . ولا يزال معمولا بهذه الزيارات حتى يومنا هذا .

واستمرت ثورات الشيعة في زمن خلفاء بني عباس ، وهددت سلامة الدولة العباسية في كثير من الاوقات ، غير ان خلفاء بني العباس قضوا على تلك الثورات بكل شدة وعنف . فاضطر اصحاب هذا المذهب ، امام اضطهاد العباسيين وبطشهم ان يلجأوا الى نشر دعوتهم فى الخفاء والتكتم ليتقوا شر العباسيين . فاتخذوا ملاجيء سرية يجتمعون فيها ، وقام دعاتهم بنشر مذهبهم في سائر الانحاء ، متخفين في زي تجار وعلماء ومتصوفة وغيرهم من اصحاب المصالح المشروعة ، ليبعدوا الشبهة عنهم . وقد تعددت فرق الشيعة التي تطالب بالخلافة ، وهي أن اختلفت في المظهر الا انها اتفقت جميعا في حصر الخلافة فى ال علي بن ابي طالب .

اتخذ اصحاب مذهب الشيعة منذ نشأته الاولى اتجاها مضادا للعصبية العربية ، وكما أنهم في المشرق اعتمدوا على الموالي من الفرس ، فكذلك في المغرب

العربي في شمال افريقيا ، اعتمدوا على الموالي من البربر سكان تلك البلاد . ولما كانت بلاد المغرب بعيدة جدا عن السلطة العباسية المركزية فى بغداد ،مما جعل من الصعب على الخلفاء العباسيين فرض رقابتهم التامة على تلك البلاد التي اصبحت تربة خصبة لبث الدعوة الشيعية .

وتعاقب على المغرب العربي ، عدة دويلات متفرقة ، تحاربت فيها بينها مرارا، فكان بعضها يتحد مع بعضه ثم يعود فيتفرق ، حتى انتهى الامر بتوحيد معظمها وعلى راسها الخليفة الفاطمي العباس المنصور سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م. وكان هذا الخليفة حازما ، فاستطاع ان يقود جيوشه الى النصر التام في وقعة مشهورة عرفت في التاريخ باسم وقعة يوم الجمعة. وكان هذا الانتصار في يوم الجمعة الموافق ٧ محرم ٣٣٥ هـ الموافق اب ٩٤٧ م.

وفي عهد الخليفة الفاطمي ابو تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ — ٣٦٥ هـ الموافق ٩٥٢ — ٩٧٥م) ، استطاع أن يخضع المغرب الاقصى لنفوذ الفاطميين ، وبذلك تم له توحيد جميع المغرب تحت سلطانهم .

لقد فكر الفاطميون منذ قيام دولتهم بالمغرب ، فى غزو الاندلس غربا ، كما فكروا في غزو مصر شرقا . فمهدوا لتحقيق أمانيهم هذه بالدعاية الشيعية من جهة ، وبالجاسوسية من جهة اخرى لمعرفة احوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون اهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة والعلم وغيرها .

امتداد الدولة الفاطمية في مصر

كان في طليعة الاسباب الداعية الى اهتمام الفاطميين بامتلاك مصر منذ بداية قيام دولتهم بالمغرب ، لما تمتاز به من موقع جغرافي فريد في قلب العالم العربي، يتيح لهم فرصة الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة ، مثل مكة والمدينة ودمشق ، وحتى بغداد نفسها حاضرة الخلافة العباسية المعادية لهم .

ولقد بدأت حملات الفاطميين على حدود مصر الغربية منذ ايام خليفتهم الاول عبيد الله المهدي . ويلاحظ ان هذا الغزو يعتبر فريدا فى نوعه ، لان مصر كانت تغزى من الشرق عن طريق غزة ورفح وصحراء سيناء . ولم يسبق ان فتحت مصر من حدودها الغربية حتى ذلك الحين الا في ايام الفراعنة حينما غزاها الليبيون قديما من منطقة غربا ، ايام الاسرتين ٢٢ ، ٢٣ .

ارسل الفاطميون ثلاث حملات لغزو مصر :

الاولى سنة ٣٠١هـ اي ٩١٢م.

والثانية سنة ٣٠٧هـ اي ٩١٨م.

والثالثة سنة ٣٢٢هـ اي ٩٣٣م.

وكانت هذه الحملات برية وبحرية في ان واحد ، اي ان الاسطول كان يسير في محاذاة الجيش في البحر . وكان الاسطول الفاطمي قد اتسع وصار يحسب له كل حساب من الدول الاخرى في حينه. وقد استغرقت كل حملة من هذه الحملات الثلاث مدة سنتين على الاقل ، كانت في كل مرة تستولي خلالها على مدينة الاسكندرية وبعض اقاليم مصر الوسطى كالفيوم وما حولها . وتعيش على ما تأخذه من آهالي تلك البلاد من اقوات ومؤن . ثم يقوم العباسيون بمهاجمة الفاطميين وردهم على اعقابهم . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث لان الخلافة العباسية في ذلك الوقت كانت من القوة بحيث كانت تستطيع ان تصد تلك الحملات وتكبد المهاجمين الخسارة الجسيمة بالارواح والمعدات .

مثل هذه الحملات وغزو مصر من الغرب الى الشرق تكررت في سنوات ١٩٤٠ — ١٩٤٢ م اثناء حرب دول المحور ضد بريطانيا ، عندما استطاع القائد الالماني رومل من دحر القوات البريطانية من ليبيا حتى موقع العلمين قرب الاسكندرية في هجوم كاسح برا وبحرا وجوا .

وكان واليا للعباسيين على مصر المدعو محمد الاخشبيد فاتصل به الخليفة الفاطمي بواسطة رسله ، محاولا استمالته اليه ضد الخليفة العباسي . وذكر بعض المؤرخين ان محمد الاخشبيد فكر فعلا في الدعاة للفاطميين حينما دب النزاع بينه وبين الخليفة العباسي الراضي ، الا انه عاد وعدل عن هذه الفكرة خوفا على مركزه السياسي في مصر .

وفي عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، قام الفاطميون بمحاولة رابعة ناجحة لغزو مصر بقيادة قائدهم جوهر الصقلي ، وكان هذا القائد في الاصل مملوكا من جزيرة صقلية قرب ايطاليا ، التي كانت في ذلك العهد تابعة للحكم الفاطمي فنسب اليها . وظل يترقى عنده حتى صار قائده وكاتبه ايضا . وقد توفق هذا القائد في حملته واستولى على كامل القطر المصري ، وبذلك سلخه عن الحكم العباسي واصبح تابعا لسلطة الفاطميين . ثم اتجه الفاطميون الى فلسطين وسوريا وما حولها واصبحت بيت لحم والقدس خاضعة لسلطانهم ، ولهذا رايت اتماما للفائدة التحدث عن العهد الفاطمي في فلسطين .

العصــــر الفاطمـــي الاول

يشمل العصر الفاطمي الاول الخلفاء التالية اسماؤهـــم :

١ــ المعز لدين الله ابو تميم معد « ٣٤١ ــ ٣٦٥ هـ ــ ٩٥٢ ــ ٩٧٥ م » .

٢ــ العزيز بالله ابو منصور نزار « ٣٦٥ ــ ٣٨٦ هـ ــ ٩٧٥ ــ ٩٩٦ م » .

٣ــ الحاكم بأمر الله ابو علي المنصور « ٣٨٦ ــ ٤١١ هـ ــ ٩٩٦ ــ ١٠٢٠ م » .

٤ــ الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن « ٤١١ ــ ٤٢٧ هـ ــ ١٠٢٠ ــ ١٠٣٥ م » .

٥ــ المستنصر بالله ابو تميم معد « ٤٢٧ ــ ٤٨٧ هـ ــ ١٠٣٥ ــ ١٠٩٤ م » .

فلســـطين فى زمن الفاطميين

في زمن الدولة الفاطمية تنفســـــــس المسيحيون الصعداء واصطلحت أمورهـــم واتسعت ثرواتهم وراجت تجارتهم حيـــث تيسرت لهم الحرية والامن ورمموا مـــــا دمر او هدم من الكنائس في المدة السابقة . وكان بطريرك القدس في وقتها يدعـــــى اغاثون خريتوذوكس الثاني الملقـــــــب اغانيوس . فقام هذا البطريرك بتصليح ابواب كنيسة القيامة المحروقة وبعدهـــــا سافر الى مصر مقر الفاطميين ليستحصل على رخصة لاعادة بناء كنيسة القيامـــة ، ولكنه توفي فى مصر وخلفه توما الثانــــي الذي تمم ما باشر به سلفه ، فأعاد بنـــاء كنيسة القيامة والابنية التـــي أحرقـــت في القـــدس .

١ــ المعز لدين الله ابو تميم معـــد

وصل المعز الى مصر سنة ٣٦٢ هـ اي ٩٦٣ م ، وتوفي في القاهرة سنة ٣٦٥ هـ اي ٩٧٥ م . فهو لم يمكث فيها أكثر مـــن سنتين ونصف . وغير انه مع قصـــر هذه المدة استطاع ان يقوم بكثير من الاصلاحات

كان المعز كذلك صاحب براعـــــة وفصاحة فى اللغة العربية ، يحب الكـــلام في الجموع المحتشدة سواء كانت مـــــن المصلين في أيام الجمعة والاعياد او مـــن المهنئين في قصره في مختلف المناســـبات . ويقال أنه كان يتقن خمس لغات اخرى ، كالبربرية والسلافية والرومانية .

وقد اهتم المعز بنشـــر الدعـــــوة الاسماعيلية ، ووضع لذلك نظاما دقيقـــا كي يسير عليه دعاته فى انحاء البـــلاد . كذلك كان المعز نفسه يؤلف الرسائـــــل

والمحاضرات ويبعث بها الى قاضي قضاته ابي حنيفة النعمان بن حبون كي يلقيها على الناس في الجامع الازهر ، المقر الرئيسي للدعوة الفاطمية .

واهم عمل اهتم به المعز هو العناية بتقوية اسطوله وبحرينه . ولا شك أن مركزه الجديد في شرق حوض البحر المتوسط بعد احتلال مصر قد فرض عليه هذا العمل . وانشأ لهذا الغرض في مصر دور الصناعات المختلفة لبناء السفن الحربية . وكان الخليفة يشاهد بنفسه حفلات توديع الاسطول واستقباله ليبارك رجاله وينعم على المتفوقين منهم . وقد خصص المعز للاسطول ديوانا خاصا للاشراف على شؤونه يسمى بديوان العمائر او الجهاد . فالمعز هو أول من وضع نظام البحرية الفاطمية في مصر ،وسار على منواله من جاء بعده من الخلفاء .

٢ـ العزيز بالله /ابو منصور نزار

ولما توفى المعز لدين الله ابو تميم خلفه ابنه العزيز بالله ، وكان قد ولد بمدينة المهدية في المغرب ثم رافق اباه الى مصر وكان عمره وقتئذ ثمانية عشر عاما ، ثم ولي الحكم وهو في الثانية والعشرين من عمره ، على أيامه بلغت سلطة الفاطميين اوجها ، وخفقت راياته على الاقطار الواقعة بين المحيط الاطلسي والبحر الاحمر واليمن والحجاز والشام وفلسطين وهكذا اصبحت بيت لحم والقدس خاضعة لسلطانه .

وقد امتاز العزيز بحلمه الكبير الذي كثيرا ما دفعه الى الصفح عن أعدائه رغم انتصاراته عليهم . كذلك امتاز بكرمه وحبه الخير لرعيته والسهر بنفسه على استتباب الامن . كذلك اشتهر العزيز بتسامحه الديني وعطفه الشديد على أهل الذمة الى درجة تذمر لها المسلمون ،وذلك انه اكثر من استخدام الموظفين النصارى واليهود ورفع بعضهم الى أرقى مناصب الدولة مثل منشا اليهودي ، وعيسى بن نسطوريوس النصراني الذي عهد اليه بمنصب الوزارة . ويعزي بعض المؤرخين ان ذلك العطف راجع الى حد كبير الى زواج العزيز بسيدة مسيحية هي أخت بطريركي الاسكندرية والقدس الملكانيين . وبعض المؤرخين يعزي اختياره كبار موظفيه من أهل الذمة ان العزيز كان يختار موظفيه من كان من خير الرجال كفاءة وامانة بصرف النظر عن عقيدته ،اي حسب النظرية الحديثة في الادارة بأن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

كذلك كان العزيز رجلا عالما محبا للعلم والعلماء فيروي المؤرخون انه كان شاعرا وله شعر جيد ، كما يعتبرونه أول من جعل الدراسة فى الازهر دراسة جامعية منتظمة . والواقع ان الفضل في تحويل الازهر من جامع الى جامعة لا يرجع الى العزيز وحده وانما يرجع ايضا الى وزيره يعقوب بن كلس .

ويعقوب هذا كان في الاصل يهوديا من يهود العراق ، اشتغل بالتجارة ، ورحل الى الشام ثم الى مصر سنة ٣٣٤ ، حيث اتصل بكافور الاخشيد ونال اعجابه . وفي أواخر أيام كافور سنة ٣٥٦هـ اعتنق يعقوب الاسلام ، فخلع عليه كافور وقربه اليه .

وقد اثار هذا العمل حسد الوزير جعفر بن الفرات فعمل على اقصائه ، وخاف يعقوب على نفسه من عداء ابن الفرات خصوصا بعد موت كافور ، فهرب الى بلاد المغرب حيث اتصل بالخليفة المعز الفاطمي وحرضه على غزو مصر ، فجاء اليها في سنة ٣٦٢هـ كما سبق وذكرنا في بداية هذا الفصل ، فظل في بلاطه حتى عاد معه الى مصر . وقد ولاه المعز شؤون البلاد المالية مثل الخراج وغيرها ، فقام بمهمته خير قيام وزادت موارد الدولة المالية في عهده . ولما ولي العزيز مكان أبيه عين يعقوب وزيرا له سنة ٣٦٨هـ ، ولقب بالوزير الاجل وأمر بألا يخاطبه ولا يكاتبه أحد الا بهذا اللقب . ويعتبر العزيز بهذا العمل أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيرا .

٣ ـ الخليفة الحاكم بأمر الله

وبعد وفاة البطريرك توما قام بعده البطريرك يوسف ، وكان فيلسوفا في الطب ، وفي زمنه في سنة ٩٩٦ استلم زمام الخلافة الحاكم بأمر الله ، وكان هذا الخليفة في بدء خلافته رجلا صالحا ذا اخلاق كريمة ورحمة لرعيته ، فعاشت الرعية في بحبوحة من الرغد والصفاء وخصوصا المسيحيون . ولكن يا للاسف ما لبث ان ظهر في اخلاق هذا الرجل ما يسمى تناقض الشخصية ، فبعد ان كان مستقيما وصالحا اصبح فجاة شيطانا رجيما ، ولم يذكر التاريخ شيئا له ، الا وشبهه باخلاق طاغية روما نيرون ، وبالحقيقة فان الحاكم بأمر الله اصبح في حالة من القسوة والفظاظة صغرت أمامها قسوة نرون وغيره من الطغاة .

وكان هذا الحاكم من أم نصرانية ، هي اخت بطريرك القدس « ارتيس » تزوج منها والده العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين سنة ٩٨٤م . فولدت له الحاكم بأمر الله . وكان للعزيز وزير قبطي هو ابو اليمن قزمان بن مينا ، وكان يسكن القدس في دير السلطان من أملاك الاقباط . وكان هذا القبطي مكلفا بجمع المال من الحجاج لحساب الفاطميين وتوريده « للخزائن الشريفة » ، أي الى وزير مال السلطان في القاهرة . وحين نشب القتال بين مفرج الجراحي امير عرب فلسطين والفاطميين ، هرب قزمان القبطي بالمال الى القاهرة ومعه اكثر من مائة الف دينار .

وظهرت في هذه الاونة تناقضات كثيرة للحاكم بأمر الله فى القدس ، فقد اخذ يضطهد اليهود والنصارى على السواء ، ويمنعهم من ركوب الخيل وأمرهم بركوب الحمير فقط بشرط أن تكون سروجها من خشب وان تكون وجوههم الى الوراء .

لم يتمكن هذا الخليفة من تنفيذ مأربه ونفث سمه في العالم الاسلامي حيث كان يوجد كثيرون من هم اقوى منه فردعوه . فحول قوته الشريرة نحو المسيحيين واليهود ، وفرض عليهم أشد الاضطهاد والعذاب في مختلف المناسبات . وفي سنة ١٠٠٩م أمر الخليفة الحاكم بأمر الله باحراق كنيسة القيامة وذبح البطريرك والرهبان في يوم عيد الفصح . ولكن بعد فترة هدأت أحواله العصبية ، فأمر باعادة بناء كنيسة القيامة من ماله الخاص ، وأمر من اسلموا من اليهود والنصارى ان يعودوا لدينهم لانه لا اكراه فى الدين ، وأباح لمن هرب من القدس بالعودة اليها .

اختلف المؤرخون في وصف شخصية الحاكم بأمر الله ، فقد كان شاذا جدا في تصرفاته وانه جمع بين صفات متضاربة متناقضة ، أي أن شخصيته لا يمكن أن تقاس بمقياس منطقي معقول ، فكان يأمر بشيء في الصباح ويصدر أمرا اخر مضادا له في المساء ، فكانت افعاله لا تعلل وسياسته لا تأول ، فكان يحب العلم ويضطهد العلماء .

يؤخذ على الخليفة الحاكم بأمر الله انه كان سفاكا للدماء لسبب او لغير سبب ، بينما ذكر بعض المؤرخين انه لم يقتل احدا الا لسبب وجيه ، وذكروا أمثلة على ذلك :

١ـ قتل الحاكم قاضي الحسين بن علي النعمان واحرقه بالنار عندما ثبت لديه أن هذا القاضي قد مد يده الى اموال اليتامى رغم المرتب الضخم الذي كان يتقاضاه كي لا يتعرض لاموال الرعية .

٢ ـ قتل الحاكم قاضيه مالك بن سعيد الفارقي بسبب الشائعات التي ترددت عن اتصاله باخته ست الملك ، ولما واجهه بهذا أنكرها ولكن الحاكم بأمر الله اقتنع بكذبه ، فقتله لكذبه وللقضاء على الشائعات ، وذلك سنة ٤٠٥هـ أي ١٠٠٦م .

٣ـ قتل الحسين بن جوهر الصقلي بسبب مجالس الشراب التي اقامها فى قصره المطل على النيل والتي كان من نتائجها ان مات احد ضيوفه غرقا في النيل اثناء خروجه من عنده وهو ثمل ، وكان هذا الغريق هو الطبيب ابو يعقوب بن نسطاس صديق الحاكم وطبيبه ، وقد اثار هذا الحادث غضب الحاكم وشكوكه ، فاتهم الحسين بن جوهر بقتله . وعلى الرغم من أن الحسين بن جوهر أقسم ببرائته من دم هذا الطبيب الا أن الحاكم أمر بقتله ، مما يدل على أن هناك ظروفا مختلفة تمت فيها حوادث القتل ، وان الحاكم لم يسفك الدماء لمجرد الرغبة في القتل .

وعن الخليفة الفاطمي بأمر الله . ذكر المرحوم خليل قزقيا في كتابه تاريخ الكنيسة الارثوذكسية انه جاء في سجل خطي محفوظ فى بطريركية الروم الارثوذكس في القدس بخصوص هذا الخليفة ما يلي : « في ١٨ اكتوبر سنة ١٠٠٩م قام الملك الظاهر الملقب الحاكم بأمر الله باحراق كنيسة القيامة ليس لكونه سمع بأن عجيبة ظهور النور يوم السبت الذي يسبق عيد الفصح ليست حقيقية كما يذكرون ، لانه لم يكن يهمه هذا اذ بسبب هذه العجيبة فقد كان الاجتماع الذي يصير في وقت ظهوره بوصول الاف الحجاج والزوار الى القدس من سائر الانحاء ، كان الخليفة يملأ جيوبه بالذهب مما يجمع على شكل رسوم واثارات ، فيكون مصدراً وحيدا لثروة فعالة . انما السبب في احراق الكنيسة ونهبها هو أن الخليفة فيما كان ذاهبا لمحاربة سوريا استأسر شابا ابنا لاحد سراة المسيحيين وابقاه في القدس رهينة عند البطريرك ، لكن البطريرك فيما بعد اخلى سبيله رحمة به وشفقة على والديه وعندما طلب الخليفة من البطريرك ذلك الشاب في وقت لاحق ادعى البطريرك ان الشاب مرض ومات .

وبينما كان الشاب في طريقه الى والديه القى القبض عليه ثانية فغضب الحاكم بأمر الله وعند عودته الى القدس استدعى البطريرك وأمر بقطع رأسه فقط . أما باقي الاكليروس والرهبان فأمر بجلدهم ثم قطع السنتهم وقتلهم وأحرق كنيسة القيامة ونهب جميع الاواني الفضية والذهبية وكل ما وجده فيها ذات قيمة . وقد خجل المؤرخون العرب من ذكر هذه الحوادث في تاريخ الحاكم بأمرالله

وقد امتد غضبه حتى وصل اذاه الى ذيونيسيوس بطريرك الاسكندرية ، الذي كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد اتخذ اخته زوجة له . وفي رجوعه الى مصر كان يهدم جميع الكنائس والاديرة التي كانت تعترض طريقه . أما الرهبان فكان يقتلهم بعد عذابات فظيعة ، ويفيد التاريخ ان شر وحشية هذا الخليفة الطاغية قد عم انحاء فلسطين الى مصر الى البحر الاحمر حتى معظم انحاء سيناء .. !

وعلى نحو ما تقدم نهبت جميع الاواني المقدسة واتلفت وهدمت الكنائس وهلك خلق كثير من المسيحيين ، واصدر الحاكم بأمر الله أمره بابطال الاحتفال بأحد الشعانين الذي كان يقام قبل عيد الفصح بأسبوع ، من العيزرية حتى داخل القدس فى كل عام باحتفال مهيب . وكذلك منع كل الاحتفالات الدينية في القدس ، وهرب كثيرون من المسيحيين وشتتوا في القفار وفي جميع انحاء العالم ، ناشرين ما كان يقع عليهم من العنف والجور والاضطهاد .

- ولما علم الحاكم بأمر الله ان المسيحيين كانوا يرحلون الى بلاد اليونان هربا من الظلم ، وانهم كانوا يرشون المحافظين على الحدود ليسمحوا لهم

بالمرور . عندها اصدر امرا ملكيا سنة ٤٠٤هـ — ١٠١٣م . اطلق بموجبه الحرية لمن شاء من المسيحيين انه يهاجر مع عياله . ولم يكن يمنع المهاجرة حتى للمسيحيين الذين اسلموا وكانوا يخدمون لديه في قصره . وهذا الامر يسري على اليهود ايضا .

وبعد سنوات قليلة تغير شعور الحاكم بامر الله نحو المسيحيين فاخذ يعاملهم بروح التساهل واللطف ، فامر بارجاع جميع ما اغتصبه من أموال وأملاك وأوقاف للاديرة او للافراد من المسيحيين ، وأعطاهم حرية الديانة والعبادة وسمح لهم بالاحتفال بأعيادهم وقرع الاجراس فوق كنائسهم وباقامة الصلوات العمومية .

قتل الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٤١١هـ اي ١٠٢١م ، في ظروف غامضة وقد اختلفت الروايات حول من قتله وكيفية مقتله ، وان كانت القرائن تدين اخته ست الملك بالاشتراك مع شيخ قبيلة كتامة المغربية واسمه الحسن ابن دواس .

كانت ست الملك امراة ذكية ذات اطماع سياسية كبيرة ، وكانت تخشى على نفسها من بطش اخيها الحاكم خصوصا بعد أن هددها بالقتل واتهمها في اخلاقها وشدد عليها الرقابة . فقامت ست الملك باللجوء الى العناصر الناقمة على الملك ، ووقع اختيارها على زعيم قبيلة كتامة في مصر ، الذي كان ساخطا على الحاكم لانه اهمل جانب المغاربة واستمال جانب السودان .

وقد ساعد في تنفيذ المؤامرة ، كثرة خروج الحاكم اثناء الليل ، وطوافه بالمناطق المنعزلة في جنبات جبل المقطم خارج مدينة القاهرة لرصد النجوم ، وكان يصحبه في العادة رجل او اثنان من الركابية . وقد اختفت جثته اختفاء تاما مما جعل بعض الغلاة الذين الهوه يعتقدون انه رفع الى السماء وانه سيعود بعد اختفائه ليصلح العالم . ويضيف بعض المؤرخين أن ست الملك تخلصت من المتآمرين معها ، فدست من قتل ابن دواس بتهمة قتل الحاكم ، كما قتلت العبيد الذين اتهموا بقتل الحاكم ، وهكذا اختفى سر الجريمة مع مرتكبيها . ومع ذلك فان بعض المؤرخين امثال المقريزي والمسبحي ينفيان المسؤولية عن ست الملك ويلقيانها على عاتق بعض الفدائيين الذين كانوا يخالفون الحاكم في عقيدته الدينية ، وكانوا حاقدين عليه كثيرا ، ويتحينون الفرص للتخلص منه .

والواقع ان شخصية الحاكم بامر الله ، شخصية غامضة ومحيرة ، سواء في حياته او مماته . وقد اتهمه البعض بالجنون ، ووصفه البعض الاخر بالعبقرية ، والاكثرية تميل الى الاخذ بالراي الثاني القائل بعبقريته ، الا انه

كان في نفس الوقت مصابا بالمرض العقلي الذي تدل عليه بعض اعماله وتصرفاته . فهذا الحاكم كان من اولئك المرضى العباقرة الذين يثمر مرضهم العقلي العبقرية .

٤ــ الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن علي

لم يتول الخليفة الظاهر الحكم مباشرة بعد اختفاء ابيه ، بل ظلوا نحوا من شهر على أمل عودة الحاكم . فلما تحقق الناس من موته أقاموا ولده الظاهر وكان لا يزال صبيا عمره ١٦ سنة . فقامت عمته ست الملك بالوصاية عليه في أول عهده ، وأظهرت كفاءة ممتازة في ادارة شؤون الدولة والبلاد الى أن توفيت سنة ٤١٥ هـ أي ١٠٢٤ م .

بعد وفاة ست الملك انتقلت السلطة الى يد فئة من كبار رجال الدولة يتكون من الوزير الجرجرائي ، والشريف العجمي والقائد معضاد أمير الجيش . وبقي الخليفة في عزلة تامة عن رعيته وبعيدا عن الحكم ، لا يستطيع احد من رجال الدولة الوصول اليه غير هؤلاء الثلاثة . وأصبح الحكم بيد أقلية من رؤساء الادارة والجيش . وهذا الوضع يعد تمهيداً لما عرف بعد ذلك الحين بعصر الوزراء فى الدولة الفاطمية .

وهكذا كانت خلافة الظاهر خلافة ضعيفة كثر فيها المتغلبون على الحكم ، وهذا راجع الى صغر سنه من ناحية ، وضعف صحته من ناحية اخرى ، هذا بالاضافة الى تفشي الامراض والجفاف في عهده ، فسادت المجاعة في مصر .

وفي زمن هذا الخليفة انتهز البيزنطيون فرصة الاضطرابات التي سادت الشام ، فقاموا بعدة غارات على البلاد الشامية مما اضطر الخليفة المستنصر بالله الى ابرام هدنة مع الامبراطور قسطنطين الثامن سنة ٤١٨هـ ــ ١٠٢٧م تنص على اعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس التي كان الحاكم بأمر الله قد هدمها ، وترك الحرية لمن اعتنق الديانة الاسلامية في عهد الحاكم بالعودة الى دينهم القديم . وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بتجديد بناء جامع القسطنطينية واقامة الخطبة فيه للخليفة الفاطمي . ومن المعروف ان هذا المسجد بناه اول الامر مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ أي ٧١٤م في خلافة الوليد بن عبد الملك على اثر صلح بين البيزنطيين والعرب ، ينص على بناء مسجد في القسطنطينية ، كي يصلي فيه المسلمون من التجار وارباب الحرف وغيرهم ، المقيمين والمارين بالعاصمة البيزنطية ، ثم لم يلبث البيزنطيون بعد ذلك ان استغلوا هذا المسجد فى مساومتهم السياسية مع الدول الاسلامية المجاورة فتارة يخطبون فيه للعباسيين ، وتارة اخرى للفاطميين ، وتارة يعمدون الى

هدمه ، وتارة اخرى يعيدون بناءه . فكانت تصرفات البيزنطيين حسب الظروف والاحوال التي تمر بها رعايا المسيحيين ومؤسساتهم الدينية في البلاد الاسلامية .

وقد شغلت المشاكل الداخلية الدولة الفاطمية عن الاهتمام بمشاكلها الخارجية في ذلك العهد ، فاضطربت الحالة في الشام وخرج بعض الامراء عن طاعة الفاطميين واستقلوا عنهم وقد استطاع احد هؤلاء الامراء واسمه صالح بن مرداس ان يؤسس دولة مستقلة في حلب ، وهي الدولة المرادسية سنة ٤١٤ هـ أي ١٠٢٥م .

٥ — المستنصر بالله ابو تميم معد

وتوفي الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ أي ١٠٣٥م ، وخلفه ابنه المستنصر الذي كان هو الاخر طفلا في السابعة من عمره ، فتولت أمه السلطة باسمه في بادىء الامر ، ثم انتقلت السلطة بعد ذلك الى يد امير الجيوش بدر الجمالي ، نتيجة لازمات اقتصادية وسياسية خطيرة سادت الدولة الفاطمية ، في ذلك العهد . فجمع بدر الجمالي بين يديه سلطتي السيف والقلم ، أي رئاسة الجيوش والوزارة ، ثم اورثها لذريته من بعده ، فاثير بذلك عهد الوزراء العظام .

امتد عهد هذا الخليفة ستين سنة ، فهو اطول حكم عرف في التاريخ الاسلامي ، وقد قسم المؤرخون عهد المستنصر الى فترتين :

الاولى عهد عظمة الخلافة الفاطمية من سنة ٤٢٧هـ — ٤٥٠هـ أي ١٠٣٥م — ١٠٥٧م . وتمتاز هذه الفترة بعظمة الخلافة الفاطمية واستقرار الاحوال في مصر ، وتمتعها بكثير من الطمأنينة والرخاء ، واتساع نفوذها في الشرق الاسلامي . وامتازت هذه الفترة بمهارة الوزراء وحسن سياستهم .

والفترة الثانية : عرفت باسم فترة ضعف الخلافة الفاطمية وتمتد من سنة ٤٥٠ — ٤٨٧هـ أي ١٠٥٧ — ١٠٩٤م أي حتى نهاية خلافته . وفي هذه الفترة انتقلت السلطة من يد الخليفة وامه الى ايدي وزراء السيف ، بسبب عدة ازمات سياسية واقتصادية سادت البلاد في هذه الفترة .

وقد ساعد على تفاقم الحالة ضعف الحكومة وعدم وجود وزراء اقوياء مثل وزراء الفترة الاولى من خلافة المستنصر ومن ثم صاروا يعينون ويعزلون بعد أيام معدودات من توليهم الحكم بسبب ضعفهم . عندئذ اضطر الخليفة المستنصر الى الاستنجاد بوالي عكا امير الجيوش بدر الجمالي الارمني الاصل . فطلب منه القدوم الى مصر لتنظيم امورها واصلاح ما فسد فيها . ورحب بدر الجمالي بذلك ودخل مصر في جيش كبير من الارمن سنة ٤٦٦هـ أي ١٠٧٧م . فعين وزراء وقادة جددا ممن توسم فيهم المقدرة والاخلاص وقبض على زمام الامور بيد من حديد . كما

اعفى الفلاحين من الخراج ثلاث سنين بسبب القحط لكي تتحسن احوالهم . وقد خلع عليه الخليفة المستنصر خلعة الوزارة ، الى جانب أمرة الجيوش سنة ٤٦٨ هـ أي ١٠٧٧م . فصارت في يده كل أمور الدولة .

ومنذ ان تولى بدر الجمالي الامور ، حتى اخذت الوزارة معنى اخر غير معناها القديم ، اذ تحولت من وزارة تنفيذ الى وزارة تفويض ، بمعنى ان الخليفة فوض الى الوزير جميع سلطاته الدينية والحربية والتشريعية ، فأصبح الوزير بذلك هو الرئيس الاعلى والرئيس الفعلي للدولة ، بينما بقي الخليفة رمزا اسميا للخلافة .

كذلك تلقب وزراء هذه الفترة الثانية بالقاب الملك فلان ، والملك العادل فلان ، وهكذا ، وقد استمرت هذه الحالة بعد ذلك أيام الايوبيين والمماليك . وهكذا صار الوزير في اواخر العهد الفاطمي هو القوة المحركة لسياسة الدولة ، وبيده وحده أمور السلم والحرب ، بدون أي رجوع الى الخليفة او استشارته في أي شيء منها .

توفي بدر الجمالي سنة ٤٨٧ هـ أي ١٠٩٤م ، ثم توفي بعده بأشهر قليلة الخليفة المستنصر بالله . وخلف الاول في الوزارة ابنه القاسم شاهنشاه « أي ملك الملوك » الملقب بالافضل . وخلف الثاني في الخلافة ابنه المستعلي .

وفي أيام الافضل جاء الصليبيون في حملتهم الاولى التي اجتاحوا فيها بلاد الشام وفلسطين ، واسسوا فيها اماراتهم الصليبية المعروفة في انطاكية وطرابلس الشام والرها وبيت المقدس . وكانت بيت المقدس وقتئذ خاضعة لنفوذ الفاطميين الذين عجزوا عن انقاذها من هجمات الصليبيين فسقطت في أيديهم سنة ٤٩٢ هـ أي ١٠٩٩م .

وخرج الافضل من مصر لقتال الصليبيين ، فالتقى بهم عند مدينة عسقلان لكنه هزم أمامهم بهزيمة منكرة لتفوق عددهم وعتادهم . فارتد الافضل بجيوشه الى مصر ، وقد ارتبكت أحواله بعد هذه الهزيمة لدرجة ساورته الشكوك والمخاوف من جميع من كان حوله ، سواء من جنوده وقادتهم الذين خذلوه في القتال ، او من الخليفة المستعلي الذي بلغ الثامنة والعشرين من عمره ويريد التخلص من نفوذ الافضل وسيطرته ، ولذا عمد الافضل الى تغيير حرسه واستبداله بجنود جدد .

كذلك عمل الافضل على التخلص من الخليفة المستعلي ، فدس له من قتله بالسم سرا سنة ٤٩٥ هـ أي ١١٠٢م . وولى مكانه ابنه الامر باحكام الله الذي كان طفلا في الخامسة من عمره . وقد حكم هذا الخليفة من سنة ٤٩٥هـ — ٥٢٤هـ أي ١١٠٢ — ١١٣٠م . واستمرت المنازعات في الدولة الفاطمية حتى قيام الدولة الايوبية ، وسقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ أي ١١٧١م .

دولــــة السلجوقييــــن

السلجوقيون اخلاط من الترك ، انهم اصل الاتراك العثمانيين . كان في مقدمتهم رجل اسمه « دقاق » وهـــذا انجـــب « سلجوق » ، وقد اسلم وعاش في انحاء بخارى ، وكان يغزو الترك . ولمـــا توفى ترك ثلاثة اولاد : ارسلان ، مكائيـــل ، وموسى . وخلف ميكائيل بيغو وطغـــرل واينال وجفري وداود .

عظم أمر طغرل بك مـــن هـــؤلاء الامراء ، وكان محاربا شجاعا ، فملـــك جرجان وطبرستان وخوارزم وهمـــــذان والدينور . وقد هادنه ملك الروم ، فعمر مسجد القسطنطينية الذي سبق ذكـــــره في فصل سابق ، وأقام فيه الصـــــــلاة والخطبة لطغرل بـــك .

ثم دخل طغرل بك بغداد في سنــــة ٤٤٧هـ — ١٠٥٥م ، ولقب بالسلطان ركن الدين ابي طالب محمد طغرل بك بـــــن ميكائيل بن سلجوق . وكان في بغــــداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فأبقاه ، ولكنه قبض على الملك الرحيـــم ابي نصر وعلى قوآده ، وأزال دولة بنـــي بويـــــــــه .

ولما توفي السلطان ركن الدين محمد طغرل بك بن سلجوق تولى الملك من بعده ابن اخيه عضد الدولة أبو شجاع محمـــد الب ارسلان بن جفري بك ، ففتح هـــذا حلب ، وهزم الروم ، وكان جيشه لا يقل عن اربعمائة الف مقاتل . ثم استولى الب ارسلان على القدس والرملة سنـــــــة ٤٦٥هـ — ١٠٧٢م ، أخذهما من خلفـــاء مصر الفاطميين ، وخطب للخليفة للقائـــم بأمر الله العباسي . واتسع ملكه حتـــى امتد الى الصين شرقا والى أقصى اليمن في الجنـــــــوب .

ولما مات الب ارسلان تولى بعـــده ولده جلال الدولة ابو الفتح محمد ملـــك شاه ولقب بالسلطان العادل . وفي عهد هذا السلطان ثار أهـــل بيت المقـــدس على الوالي في سنة ٤٧٠هـ — ١٠٧٧م ، فأرسل اليهم لتأديبهم جيشا بقيادة قائده « اتسو بن أوق » الخوارزمي . فحاصـــر هذا بيت المقدس ، ففتحها عنوة ونهبهـــا وقتل اهلهـــا .

وكان هذا القائـــد اتســـو بن أوق الخوارزمي التركماني ظالما ، حتى خلـــت البلاد من قاطنيها ، فساد الجوع واشتد الغلاء ، ومنع الاذان « حيي على خـــير العمل » . وكان يعتقل الناس ويعذبهـــم فيفتدون انفسهم بمال يؤدونه له . وقـــد أدت افعاله هذه الى قيام ثورة ضده فـــي بلاد الشام ، ثم سرت الى فلسطين .

ومن عمال ملك شاه الذين تولوا اداره بيت المقدس الامير « ارتق بن اكسك » التركماني . فقد كان هذا الامير قبل ان يتولى ادارة القدس ، من مماليك ملك شاه ، عمل تحت امرته ، ثم سار الى تتش . وقيل انه كان زعيما للقبائل التركمانية التي أخرجها السلجوقيون من ضواحي بحر قزوين ، وساقوهم الى سوريا فانتشروا فيها وفي فلسطين . وقد استولى على بيت المقدس بحد السيف ، وأسس فيها دولة عرفت بدولة الارتقيين سنة ٤٧٠هـ — ١٠٧٧م في بيت المقدس وسائر فلسطين وفي قسم من البلاد الواقعة في غربي سوريا .

ولما توفي ملك شاه ، ضبطت زوجته « تركان خاتون » العسكر ، وكتمت موته ، ثم تمكنت من الحصول على مبايعة الجيش لولدها محمد ، فتولى الملك بعد أبيه . فقامت بينه وبين اخوته حروب لعدة سنوات .

وكان الملك شاه قبل موته ، قد اقطع اخاه تاج الدولة تتش بن السلطان الب ارسلان مدينة دمشق وأعمالها وطبريا وبيت المقدس وغيرها في سنة ٤٨٦هـ — ١٠٩٣م . ولكن هذا لم يهنأ بها كثيرا ، اذ ارسل الفاطميون جيشا بقيادة الافضل امير الجيوش من مصر الى القدس في سنة ٤٨٩هـ — ١٠٩٥م ، لتخليصها من الارتقيين . فحاصر القدس ونصب حولها المنجانيق وقاتلهم لمدة اربعين يوما ، الا انهم تملكوا بيت المقدس بالامان . وكان أهل القدس قد طلبوا منه الامان فأمنهم .

ظل النزاع قائما بين الفاطميين المتمسكين بالخلافة العلوية اي بنسل علي ابن ابي طالب وعقيدتهم المذهب الشيعي والسلجوقيين الذين يميلون الى الخلافة العباسية وعقيدتهم المذهب السني الى أن باغتهم الصليبيون فاحتلوا البلاد الشامية والفلسطينية وطردوا الفريقين منها .

دولـــة السلجوقييـــن

السلجوقيون اخلاط من الترك ، انهم اصل الاتراك العثمانيين . كان في مقدمتهم رجل اسمه « دقاق » وهـذا انجـب « سلجوق » ، وقد اسلم وعاش في انحاء بخارى ، وكان يغزو الترك . ولمـا توفى ترك ثلاثة اولاد : ارسلان ، مكائيـل ، وموسى . وخلف ميكائيل بيغو وطغـرل واينال وجفري وداود .

عظم أمر طغرل بك مـن هـؤلاء الامراء ، وكان محاربا شجاعا ، فملـك جرجان وطبرستان وخوارزم وهمـذان والدينور . وقد هادنه ملك الروم ، فعمر مسجد القسطنطينية الذي سبق ذكـره في فصل سابق ، وأقام فيه الصـلاة والخطبة لطغرل بـك .

ثم دخل طغرل بك بغداد في سنـة ٤٤٧هـ — ١٠٥٥م ، ولقب بالسلطان ركن الدين ابي طالب محمد طغرل بك بـن ميكائيل بن سلجوق . وكان في بغـداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فأبقاه ، ولكنه قبض على الملك الرحيـم ابي نصر وعلى قواده ، وأزال دولة بنـي بويـه .

ولما توفي السلطان ركن الدين محمد طغرل بك بن سلجوق تولى الملك من بعده ابن اخيه عضد الدولة ابو شجاع محمـد الب ارسلان بن جفري بك ، ففتح هـذا حلب ، وهزم الروم ، وكان جيشه لا يقل عن اربعمائة الف مقاتل . ثم استولى الب ارسلان على القدس والرملة سنـة ٤٦٥هـ — ١٠٧٢م ، أخذهما من خلفـاء مصر الفاطميين ، وخطب للخليفة للقائـم بأمر الله العباسي . واتسع ملكه حتـى امتد الى الصين شرقا والى اقصى اليمن في الجنـوب .

ولما مات الب ارسلان تولى بعـده ولده جلال الدولة ابو الفتح محمد ملـك شاه ولقب بالسلطان العادل . وفي عهد هذا السلطان ثار أهـل بيت المقـدس على الوالي في سنة ٤٧٠هـ — ١٠٧٧م ، فأرسل اليهم لتاديبهم جيشا بقيادة قائده « اتسو بن أوق » الخوارزمي . فحاصـر هذا بيت المقدس ، نفتحها عنوة ونهبهـا وقتل أهلهـا .

وكان هذا القائـد اتسـو بن أوق الخوارزمي التركماني ظالما ، حتى خلـت البلاد من قاطنيها ، فساد الجوع واشتد الغلاء ، ومنع الاذان « حيي على خـير العمل » . وكان يعتقل الناس ويعذبهـم فيفتدون انفسهم بمال يؤدونه له . وقـد أدت افعاله هذه الى قيام ثورة ضده فـي بلاد الشام ، ثم سرت الى فلسطين .

ومن عمال ملك شاه الذين تولوا ادارة بيت المقدس الامير « ارتق بن اكسك » التركماني . فقد كان هذا الامير قبل ان يتولى ادارة القدس ، من مماليك ملك شاه ، عمل تحت امرته ، ثم سار الى تتش . وقيل انه كان زعيما للقبائل التركمانية التي اخرجها السلجوقيون من ضواحي بحر قزوين ، وساقوهم الى سوريا فانتشروا فيها وفي فلسطين . وقد استولى على بيت المقدس بحد السيف ، وأسس فيها دولة عرفت بدولة الارتقيين سنة ٤٧٠هـ — ١٠٧٧م في بيت المقدس وسائر فلسطين وفي قسم من البلاد الواقعة في غربي سوريا .

ولما توفي ملك شاه ، ضبطت زوجته « تركان خاتون » العسكر ، وكتمت موته ، ثم تمكنت من الحصول على مبايعة الجيش لولدها محمد ، فتولى الملك بعد أبيه . فقامت بينه وبين اخوته حروب لعدة سنوات .

وكان الملك شاه قبل موته ، قد اقطع اخاه تاج الدولة تتش بن السلطان الب ارسلان مدينة دمشق وأعمالها وطبريا وبيت المقدس وغيرها في سنة ٤٨٦هـ — ١٠٩٣م . ولكن هذا لم يهنأ بها كثيرا ، اذ ارسل الفاطميون جيشا بقيادة الافضل امير الجيوش من مصر الى القدس في سنة ٤٨٩هـ — ١٠٩٥م ، لتخليصها من الارتقيين . فحاصر القدس ونصب حولها المنجانيق وقاتلهم لمدة اربعين يوما ، الا انهم تملكوا بيت المقدس بالامان . وكان أهل القدس قد طلبوا منه الامان فأمنهم .

ظل النزاع قائما بين الفاطميين المتمسكين بالخلافة العلوية أي بنسل علي ابن ابي طالب وعقيدتهم المذهب الشيعي والسلجوقيين الذين يميلون الى الخلافة العباسية وعقيدتهم المذهب السني الى ان باغتهم الصليبيون فاحتلوا البلاد الشامية والفلسطينية وطردوا الفريقين منها .

حياة المسيحيين بعد الفتوحات الاسلامية

عاش المسيحيون في فلسطين وبلاد الشام بكل طمأنينة وحرية عبادة ، في الفترة الواقعة من سنة ٦٣٨م حتى خمسين سنة لاحقة ، وخصوصا بعد اعطاء العهدة النبوية لرهبان طورسينا ، والعهدة العمرية للبطريرك صفرونيوس . وكان كل من لم يعتنق الديانة الاسلامية يدفع الجزية ويسمى ذميا ، ومن يرفض دفع الجزية يسجن أو يقتل على اعتبار انه عاصيا . ولكن هذه الحال لم تدم طويلا وجاء من الخلفاء من لم يراع هاتين العهدتين ، وبقيت الامور حسب مزاج كل منهم ، فكثيرون منهم اساءوا الى رعاياهم المسيحيين ، فكانوا يوعزون الى رعاياهم من المسلمين ، بالتضييق على المسيحيين وهدم كنائسهم .

ذكر سعيد البطريق الكثير من هذه الحالات فقال : في جمادى الاخرة سنة ٣١١ هـ — ٩٢٠ م ، ثار المسلمون في مدينة الرملة فهدموا كنيستين للملكيين وهما كنيسة مار مرياكوس وكنيسة ماركزماس ، وهدموا ايضا كنيستي عسقلان وقيصرية . فرفع النصارى ظلامتهم هذه الى الخليفة المقتدر ، فأمر بأن يبنى ما هدم لهم من الكنائس . وثار المسلمون بتنيس ، وهدموا للملكيين كنيسة في خارج الحصن بتنيس تسمى كنيسة « بوفور » في شهر رجب من نفس السنة . ثم أعاد النصارى بناء الكنيسة المهدومة ، وعندما قربوا من الانتهاء من بنائها ، عاد المسلمون وثاروا مرة ثانية ، وهدموا ما بني من الكنيسة واحرقوه بالنار . ولما علم السلطان بالامر أمر باعادة بناء الكنيسة وساعد النصاري بمبلغ من المال لهذه الغاية .

وثار المسلمون في دمشق وهدموا كنيسة المريمية « الكاتدرائية » وكانت من أعظم ما جادت به براعة فن العمارة والاتقان والعظمة ، وكان قد أنفق على بنائها مائتا الف دينار ، ونهب كل ما كان فيها من الاواني والجواهر الثمينة والستائر المطرزة وغيرها . ونهبت أديرة كثيرة ايضا ، منها دير النساء الذي كان بجانب الكنيسة ، وشعثوا كنائس كثيرة للملكيين . وهدموا للنساطرة دارا للكتب ضخمة ، وذلك في نصف رجب سنة ٣١٢هـ — ٩٢٣م .

ودخل علي بن عيسى الفسطاط في مستهل رجب سنة ٣١٣هـ — ٩٢٤م . فاستدعى الاساقفة والرهبان ، وطلب منهم الجزية ومن بقية الاديرة الرهبانية ، بصرف النظر عن ضعف الحال في أديرة مصر السفلى وأرض سعيد ومن رهبان طورسينا .

وجاء للمؤرخ ذاته في سجل اخر ما نصه :

« وفي يوم احد الشعانين قام المسلمون واحرقوا ابواب كنيسة مارقسطنطين القبلية ، ونصف الاسطوان وكسروا البلاط الذي حول المذبح ، ونهبوا كل ما صادفوه من النحاس والستائر ، وشعثوا ما قدروا عليه ، فكانت فتنة عظيمة جدا . وذلك في جمادى الاولى سنة ٣٢٥هـ — ٩٣٥م » .

فى زمن الخليفة الاموي معاوية بن سفيان مؤسس الدولة الاموية ، فان تصرفه مع النصارى كان حسنا ولطيفا شأنه في سياسته مع باقي رعاياه . وقد أعطى مرسوما يثبت فيه امتيازات الروم الملكيين في سلطتهم على الاماكن المقدسة في فلسطين . وعين في مصالح دولته كثيرين من النصارى ، ومنع دخول المسيحيين فى الاسلام . وكان ذلك دهاء منه لكي يبقى للدولة موارد للاموال التي كانت تحصل من الجزية المفروضة على الذميين الذين بدخولهم في الاسلام كانوا يعفون منها .

وفي زمن بطريرك القدس ثيوذوروس أراد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ان يبني له مسجدا في مكة ، وقرر أن ينقل الاعمدة التي في كنيسة الجسمانية التى مكة لهذه الغاية . فقام سرجيوس المحاسب العمومي « مثل وزير المالية فى وقتنا الحاضر » لوالي فلسطين « منصور » وكان صديقا لعبد الملك ، وبمساعدة رفيق له اسمه بطريريوس وجماعة من اصحاب النفوذ من مسيحيي فلسطين ، تمكنوا من اقناع الخليفة عبد الملك بالعدول عن رغبته ، ووعدوه انهم سيخبرون جوستنيانوس ملك القسطنطينية برغبته ، فيرسل له الاعمدة اللازمة لبناء المسجد ، فلبى جوستنيان هذا الطلب .

في سنة ٧٠٨م توفي عبد الملك بن مروان وتعين خلفه ابنه الوليد الذي لم يكفه ما اكتسبه من المجد بفتوحه اسبانيا والبرتغال ، بل سعى لان ينال حظوة وشهرة في أعين العالم الاسلامي ، فأنشأ مسجدا في دمشق فى مكان كنيسة ماريوحنا الشهيرة باتقان هندستها وجمال بنائها .

وفي زمن الوليد ، تعين اخوه سليمان واليا على فلسطين ، وهذا جعل مدينة الرملة المركز المدني والعسكري في البلاد . ومن أعماله انه أغتصب أعمدة الكنيسة المسيحية في اللد واستعملها فى بناء الجامع المشهور في الرملة . ومن الغريب في هذا الحادث ان الذي حرضه على عمله هذا ، كاتب له مسيحي أراد الانتقام من أهل اللد المسيحيين الذين ابوا أن يعطوه محلا لسكناه قرب الكنيسة .

وفي زمن ولاية الوليد عومل المسيحيون في سوريا وفلسطين بالقسوة

لعدم موافقتهم للامويين في الهجوم على القسطنطينية . ووضع الجزية على الرهبان .

في سنة ٧١٦م خلف الوليد اخوه سليمان ، وفي زمنه كان الجابي للاموال رجل شرس اسمه عصام بن زيد . هذا أجرى من الفظائع بالمسيحيين ما يفوق الوصف لاجل تحصيل الاموال منهم . فانه استنكافا من أن يقيد اسماءهم في دفتر الجباية ، كان يحمي الحديد ويرسم به على أيديهم اشارة معلومة تدل على المبالغ المطلوبة منهم . ومن منهم لم يكن متسما بهذه العلامة كان يقبض عليه ويسام مختلف العذابات . فهذه المعاملة دفعت الشعب الى هياج كاد ان يكون ثورة كبيرة .

ولما توفي الخليفة سليمان خلفه ابن عمه عمر الثاني بن عبد العزيز ، حول مجرى السياسة فخمدت الثورة وهدات الخواطر . وحالما تولى عمر كرسي الخلافة امر بعزل الجابي عصام المذكور وابعاده ، فزالت الشدائد واطمأنت القلوب . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز رجلا عادلا تقيا ورعا ، وكان يجري في كل أموره على خطة الخلفاء الراشدين ، حتى خيل للناس ان عصر الراشدين قد عاد مبعوثا .

لكن هذا الخليفة في اخر عهده جاء من سيطر عليه من حاشيته ، فعادت وساءت حالة المسيحيين ، فأصبحوا يضطهدون في جهات مختلفة من مملكته . وعلاوة على ذلك أصدر امرا بهدم جميع الكنائس التي بنيت بعد اعطاء العهدة للمسيحيين ، مدعيا انه لم يصرح ببناء كنائس جديدة ولا في عهدة منها . أما في البلاد التي سلمت بدون حرب فقد حفظت كنائسها . وقد امر عمر ايضا بأن لا يلبس المسيحيون البسة تشبه البسة المسلمين ، والا يكون أحد منهم في وظيفة الحكومة .

كان القديس يوحنا الدمشقي محبوبا من الخليفة هشام الذي خلف يزيدا . وكان مقربا من كثيرين من الولاة الذين امهاتهم مسيحيات ، وهذا ما كان يساعد المسيحيين ويدرأ عنهم شيئا من الوشايات الملفقة ضدهم . وادى الامر بالقديس يوحنا الدمشقي الى اظهار التذمر من هذه الحالة للولاة والخليفة . وبما أن يوحنا الدمشقي لم يكن تحت السلطة البيزنطية ، فلم يكن لخصومه ما يخولهم حق الانتقام منه . كثيرا ما كان يوبخ الملك بكل جراة غير وجل . ومما كتبه له مرة ما يأتي . ليس من صلاحية الملك ، ولا حق له ، في تنظيم قوانين كنائسية ، وليس له سلطة على ادارة الكنيسة التي هي من حقوق رعاتها ومعلميها .

من الطبيعي ان تعاليم القديس يوحنا الدمشقي ونفوذه لدى الخليفة لم تكن تروق لحساده ، الذين كان بينهم مسيحيون ومسلمون على السواء ، فأخذوا

يوغرون صدر الخليفة هشام عليه بالوشايات المختلفة . فقلدوا خطه مرة وحرروا باسمه مخابرة مع اليونان ضد العرب ، فساءته هذه التهمة الملفقة ضده ، فترك دمشق ورحل الى القدس ، ومنها دخل دير مارسابا المعروف شرقي بيت لحم ، منقطعا عن العالم وشروره وحساده . وفي دير مارسابا عاش هناك من جملة نزلائه من النساك ، وفي الدير نظم الكثير من الاناشيد الكنسية والترانيم الالهية ، التي دلت ليس فقط على موهبته الشعرية ، بل وعلى روح الاداب والدين والتقوى المنبعثة من صدره . ومعظم هذه المؤلفات ضمتها عدة كتب في العصور اللاحقة .

وقد كان ليوحنا الدمشقي ورفيقه قزما الاورشليمي الدرجة الاولى في وضع الاناشيد للكنيسة الاورشليمية . وجاء في ذكر حياة يوحنا الدمشقي ان هذين البارين اسسا مدرسة للترتيل الكنسي ، وقد فاق القديس يوحنا الملك داود مرنم المزامير الالهي ، في الضرب على القيثارة .

وفي اواخر حياته سيم كاهنا من البطريرك الاورشليمي . وتوفي في ٤ كانون أول سنة ٧٤٩م ، في دير مارسابا ، ودفن هناك . وهكذا انقضت حياة هذا القديس الذي كان للكنيسة نجما لامعا .

في سنة ٧٥٤م قام ابو مسلم الخرساني في وجه الدولة الاموية المضعضعة الاركان بسبب الخلافات الداخلية ، فدكها وأقام على انقاضها الدولة العباسية ، وجعل عاصمتها بغداد في العراق . وكان اول خليفة لها عبد الله ابن عباس الملقب بالسفاح . وقام بعده ابنه محمد المهدي سنة ٧٨٠م . وفي زمن هؤلاء الثلاثة لاقت منهم كنائس الشرق الكثير من الاضطهاد حتى تدخلوا فيمن يعين بطريركا او يعزل منهم .

وفي زمن الخليفة المهدي حصل تضييق على المسيحيين في الشرق ، تشفيا منهم ، لان جيوشه لم تفلح في هجماتها على القسطنطينية ، مع انهم كانوا قد عقدوا صلحا مع ملك الروم . فأمر بأن يبعد بطريرك القدس الياس الى بلاد الفرس . وامر بأن يسكن جميع المسيحيين في احياء مستقلة ، وحرض ولاته على مضايقتهم ، ففرضوا عليهم مبالغ طائلة عبارة عن فدية لارواحهم .

وفي زمن الخليفة هارون الرشيد عقدت المعاهدة المعروفة مع الامبراطور شارلمان الكبير ، فكان الرشيد على غير طباع والده المهدي . فأعطى الامان والمحافظة على رعاياه المسيحيين ، بالاضافة الى المحافظة على امن الزوار القادمين لزيارة الاماكن المقدسة ، وعلى اتفاق المصالح ومبادلة المنافع ، كما سبق ذكره عن هذه المعاهدة في الفصل السابق عن عهد العباسيين .

وفي مطلع القرن الثامن ميلادي ،زار فلسطين عدد من السياح القادمين من ايطاليا وغيرها ، وجاء في مذكراتهم ما ملخصه :

ان المقامات المقدسة في ذلك الزمن كانت سالمة وامنة ، وحرية الصلوات والعبادة متيسرة للجميع . واكثر الاديرة في خارج اورشليم لم يحدث فيها خراب ، كاديرة جبل الزيتون والجثمانية ونواحيها والاديرة في جهة نهر الاردن . ومن هذه الاديرة السالمة والعامرة بالنساك ذكروا دير خوجافا « الكلت » ودير القديس خاريطون ودير القديس افثيميوس ودير مارسابا ، ودير ثيوذوسيوس « دير ابن عبيد » ، ودير الرعوات قرب بيت لحم ، ودير فوق جبل طابور ، ودير بقرب طبريا ، ودير مارجريس بالرملة . وذكروا أن جميع هذه الاديرة كانت عامرة ومأهولة بعضها بالرهبان واخرى بالراهبات .

في سنة ٨٠٩م قامت حروب داخلية بين ولدي هارون الرشيد محمد الامين واخيه عبد الله المأمون ، وتنازعا على الخلافة وكل منهما تؤيده جماعة من الناس . فاضطرب حبل الامن في الولايات العباسية ، فاغتنمت هذه الحالة بعض القبائل البدوية . فقاموا بتعديات قاسية على الاديرة والكنائس ، فنهبوا ما نهبوا . ودمروا عدة كنائس ، وذبحوا عددا كبيرا من الرهبان والراهبات ممن وجدوهم في هذه الاديرة . أما في القدس داخل اسوار المدينة فلم تقع تعديات .

وانتهت الخلافات بين ولدي هارون الرشيد بأن بويع بالخلافة ابنه محمد الامين سنة ١٩٣هـ — ٨٠٩م . وبعد وفاته بويع بالخلافة اخوه عبدالله المأمون سنة ١٩٨هـ — ٨١٣م . ولاسباب بقيت مجهولة فان المأمون اضطهد رعاياه من المسيحيين ، رغم انهم كانوا قبل عهده حاصلين على جانب كبير من الراحة والامان . فقد كانوا أعضاء نافعين في الدولة ، وكانت مواهبهم ظاهرة في اعمالهم وتجارتهم التي كانت منتشرة في جميع انحاء الدولة العباسية ، وحتى في العاصمة بغداد . وكان من المسيحيين في خدمة الدولة العباسية جملة مأمورين في ادارات الالوية والاقضية ، يقومون بأعمالهم بأمانة واخلاص اقر لهم بها الخلفاء العباسيون . وقد ذكر بعض المؤرخين ان الخليفة محمد الامين بن الرشيد قال في هذا الصدد : « أولا ، بلاد الفرس لا يجوز تسليم ادارتها الا الى المسيحيين ، لما هم عليه من الامانة والصدق في الواجبات نحو عملهم ورؤسائهم » .

ما كاد المأمون ينتقل الى دار البقاء ، حتى اخذت مملكته المترامية الاطراف بالانقسام . وتولى الخلافة بعده اخوه المعتصم بن الرشيد سنة ٣٠٨هـ — ٨٣٣م . فلقب نفسه الخليفة المعتصم بالله . وفي عهده بدأ تتقهقر دولة العباسيين . وفضلا عن كونه أميا وضعيفا ، كان أول من جند الاتراك واستعان بهم في الحرب . وقدْ امر عامله في مصر ان يسقط من في ديوان مصر من العرب وان يقطع العطاء

عنهم . وراح العباسيون من بعده يرقون مواليهم من حارس ووصيف الى قائد وأمير . لم يحفظ هؤلاء الجميل ، فأنكروا حسن الولاء ، وسلبوا الخلفاء ابهة الملك وأصبحوا الات بأيدي مواليهم . وهكذا استمر التقهقر من خليفة لاخر حتى زالت دولة العباسيين . فانتقلت السلطة من يد العباسيين الى الطولونيين فالى الاخشيديين والفاطميين بمصر حتى جاءت الحروب الصليبية .

وفي سنة ٢٦٥هـ — ٨٧٨م كانت دولة الطاهرين « دولة مغارية كانت تحكم بلاد سيستان وخراسان في بلاد الفرس » أخذت فى غزو واغتصاب القسم الشرقي من الدولة العباسية . وفي تلك الاونة قام احمد بن طولون والي مصر من قبل الخليفة المهتدي بالله بن الواثق العباسي ، فساق جيشا الى الشام فاحتل دمشق وحمص وانطاكية وبقية الجهات الشمالية ، ثم افتتح القدس واصبحت البلاد من مصر وفلسطين والشام تحت حكمه .

ولما توفي ابن طولون اقيم ابنه خمارويه في مكانه سنة ٢٧٠هـ — ٨٨٣م . ولكن هذا رأى أنه من الحكمة أن يوطد علاقاته مع الخليفة العباسي المعتضد بالله فأرسل وفدا الى بغداد يحمل للخليفة الهدايا ويعلمه ان مصر ستؤدي له الخراج سنويا وقدره مائتا الف دينار فثبته الخليفة في أمارته حتى مات مقتولا سنة ٢٨٣هـ — ٨٩٥م .

وقد ذكر المؤرخون الكثير من الحوادث مما أصاب الكنائس والمسيحيين فى هذه المناطق التي بقيت عرضة للغزوات والهجمات الحربية والفتوحات . وكل قائد كان يتصرف حسب مزاجه وحسبما كان شعوره عميقا من التدين أو البطش . حينئذ لم يجد بطريرك القدس نيوذوسيوس بدا من الالتجاء الى القسطنطينية . فكتب تحريرين . الاول الى فوتيوس بطريرك القسطنطينية ، والاخر الى الملك باسيليوس ، شرح فيهما حالة الكنيسة والرعية التي في عهدته ، وما وصلت اليها حالتهما من الجور والاضطهاد ، وأرسل كتابية كل مع رسول خاص من كهنته الى القسطنطينية .

في سنة ٩٢٥م كان بطريرك القدس يدعى ليون ، وفي تلك السنة وقعت تعديات من مسلمى الرملة ، فهدموا كنائسها مع كنائس ماركرياكوس وكنائس عسقلان وقيصرية ، فرفع البطريرك ظلامته الى الخليفة جعفر المقتدر بالله ، فأمر بإعادة بناء ما تهدم ، وعدم التعرض للمسيحيين .

وحدث أن مرض البطريرك ليون مرضا شديدا أعجزه عن القيام بواجباته الدينية . فاستقال وخلفه البطريرك نيقولاوس . وفي زمن الاخير وفي يوم احد الشعانين ، قام المسلمون بتحريض من الوالى ، وهجموا على كنيسة القيامة

واحرقوها ، فاضرموا أولا النار فى بابي كنيسة القديس قسطنطين الجنوبية . وعندما بلغت النار سقف الكنيسة تذفوا بها الى الجلجلة والى كنيسة القيامة . فعاد البطريرك هذه المرة ورفع ظلامته الى الخليفة العباسي الراضي بالله محمد ابن المقتدر فتأثر جدا ، وأمر حالا ببناء ما حرق من البناء فكان ما نجدد من البناء اجمل وافخر من الاول .

غضب المسلمون من الخليفة الراضي بالله لسماحه باعادة بناء كنيسة القيامة ، فهجموا بعد حين على عسقلان وصبوا جام غضبهم عليها فنهبوها واحرقوا كنيسة العذراء مريم التي كانت هناك . وقد شاركهم في عملهم هذا اليهود الذين كانوا ناقمين على المسيحيين ولم يتركوا فرصة في السابق دون تحريض الولاة على المسيحيين . وقد سعى اسقف عسقلان باذلا قصارى جهده لاجل الحصول على أذن باعادة بناء كنيسة عسقلان فلم يتوفق ، فضلا عن ذلك لم يسمح له بالرجوع الى عسقلان وتوفي في مدينة الرملة مكان التجائه بعد حرق الكنيسة .

فى سنة ٩٤١م صار بطريركا على القدس خريستوذولوس العسقلاني ، وقد ساءت حالة الكنائس في عهده بسبب تعديات المسلمين المتكررة ، فلم تكن لتؤثر عليهم اوامر الخلفاء ولا نهيهم ، وخصوصا بعد أن ضعفوا ، واصبح الوالي في كل بلد هو الامر الناهي .

وكان الوالي في فلسطين كلما شعر أن اخلاص رعيته له في تقليص وابتعاد عنه ، فكر فى تحريض رعاياه من المسلمين على المسيحيين ، فكان الناس في ذلك الحين تعمهم الجهالة ، فينقادون الى طلب الوالي ، ناسين ابسط قواعد الدين الاسلامي وما جاء في القرآن الكريم ، وبذلك كانوا ينسون سيئات الوالي وظلاماته .

في سنة ٣٥٥هـ — ٩٦٥م ، خلف خريستوذولوس على الكرسي البطريركي الاورشليمي ، البطريرك يوحنا السابع . وفي زمنه حرض الوالي رعاياه المسلمين على التعدي على الكنائس ، فاعادوا الكرة على كنيسة القيامة واحرقوا أبوابها وقبة القبر المقدس ، ونهبوا كل ما طالته أياديهم من الكنوز والاواني المقدسة . ثم هجموا على صهيون وأحرقوا كنيستها بعد أن نهبوها ، ولم يكتفوا بما فعلوا فهجموا على دار البطريركية ، وذبحوا البطريرك يوحنا السابع ، مدعين انه كان يكاتب ملك القسطنطينية ليهجم على البلاد . فقام بعد البطريرك يوحنا ، البطريرك أغاثون ، وفى زمنه دخلت فلسطين وبلاد الشام تحت سلطة الفاطميين .

وقد ذكر المؤرخ الانطاكي « نسبة الى مدينة انطاكية » في كتابه « تاريخ الذيل » ج١ ص ١٢٥ هذه الحادثة :

وحدث في ايام كافور الاخشيدي ، ان كان له وال على القدس ، مغربي يدعى محمد بن اسماعيل الصنهاجي ، وفي عهد هذا الوالي في سنة ٣٥٥هـ — ٩٦٥م ، تقدم البطريرك يوحنا رئيس بطاركة بيت المقدس الى كنيسة القيامة ، واغلق ابوابها وتحصن فيها ، وركب الصنهاجي والي بيت المقدس فى الحال مع جموعه وقبض على تكين القائد الذي عينه ابن عبيد الله لحماية البطريرك ، وأخذ اليه ، وانفذ الى البطريرك يستدعي نزوله اليه وأعطاه الامان . فلم يثق البطريرك بالصنهاجي لما عرف عنه من النكث بالعهدة ، ولما تداخل البطريرك من الفزع ولم يرد على الرسول جوابا ، وهجم الصنهاجي وجموعه على الابواب ، فضربوا ابواب كنيسة مار قسطنطين بالنار ، ودخلوا منها الى كنيسة القيامة فوجدوها مغلقة . واحرقوا ابوابها وسقطت القبة ودخلوا الكنيسة ، ونهبوا ما ظفروا به . وتوجه الوالي ومن معه الى كنيسة صهيون واحرقوها ونهبوها في اليوم عينه ، وذلك يوم الاثنين قبل عيد العنصرة ٢٣ ايار سنة ٣٥٥هـ — ٩٦٥م ، وهدم اليهود وخربوا أكثر من المسلمين ، فلما كان يوم الثلاثاء تالي ذلك اليوم ، التقوا بالبطريرك مختفيا في جب من جباب الزيت في الكنيسة ، فقتلوه وجروه الى صحن كنيسة قسطنطين وأحرقوه .

وفي صباح اليوم التالي وجدوا على ابواب كنيسة القيامة مكتوبا على حجر مردوم : —

منع الكنائس ان تكن عبثت بها ايدي الحوادث او تغيير حال

فلطالما سجدت على أبوابها . شم الانوف جحاجح ابطال

صبرا على هذا المصاب فانه يوم بيوم والحروب سجال

اجمع معظم المؤرخين بأن الاعتداء على بطريرك القدس يوحنا السابع وجرّه علنا فى ساحة كنيسة القديس قسطنطين ، وتخريب كنيسة القيامة ، أجمعوا ان هذه الاعمال كانت من ابشع الاخطاء التي ارتكبها الاخشيديون في فلسطين عامة ومدينة بيت المقدس خاصة . وكان هذا الاعتداء من الاسباب الرئيسية لنشوب الحروب الصليبية فيما بعد . وتدسكت المؤرخون العرب عن ذكر هذا الحادث خجلا ، فقد كان هذا العمل شنيعا فعلا وسيئا للغاية . فقد كان عمل الصنهاجي هذا ، مخالفة بشعة جدا تخالف ابسط اصول الدين الاسلامي وتعاليمه السمحة ولا تتفق على الاطلاق على ما نصت عليه ايات القرآن الكريم ومخالفا على العموم للعهدة العمرية السمحة .

وقد ادرك بشاعة هذه الاعمـــال ،كافور الاخشيدي العبد الاسود ، حاكم مصر وفلسطين الذي وقعت الحادثة فــي زمنه ، وما علم بها حتى جاء مسرعــا الى بيت المقدس متلمسا نتائجها . ويقال انه ما اطلع بنفسه على ما جرى تألــم كثيرا واصيب بنوبة قلبية قضت عليــه ،ودفن عند اسياده بمقبرة باب الرحمـــة بالقدس الشــريف .

وتقول الروايات التاريخيـــة ان الرسل ذهبوا لتبليغ ملك الروم فـــي القسطنطينية ما حدث في بيت المقــدس ،فثار ملك الروم وحنق كثيرا . وأرســل كافور الى ملك الروم مبديا استعداده أن يعيد بناء ما حرق بأحسن منه ، فجاءه الجواب من ملك الروم « انا اردها بالسيف » . وبعدها خرج ملك الروم في طريقه الـــى فلسطين ، فكان أول من صادف في طريقه الدولة الحمدانية وعلى راسها سيـــف الدولة الحمداني ، فلاقاهم هذا المجاهــد المالي ، وبقيت الحروب بينه وبين ملــك الروم اكثر من ثلاثين سنة . والى سيف الدولة الحمداني يعزي المؤرخون تأخــير وصول الحروب الصليبية الى فلســطين اكثر من ثلاثين سنة .

ومما يدعو للعجب ان المؤرخــــين العرب لا يذكرون اسباب حروب سيــف الدولة مع جيوش الروم ، مكتفين بالاعجاب بشعر المتنبي في وصف سيف الدولـــة وبطولته ، فى رد جيوش الروم عـــن البلاد الشامية ، في وقت كان فيـــه الخليفة العباسي يلهو بين الجـــواري والحسان ، والاخشيديون في مصر علـــى شفا النهاية والخذلان .

في زمن الفاطميين تنفس المسيحيون الصعداء ، واصطلحت شؤونهم ، ورمموا كل ما دمر او هدم من الكنائس في المـــدة السابقة . الى ان جاء الى الحكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ابو علـــــي المنصور ، وجرى فى عهده ما جرى كمـــا ذكرنا في فصلنا عن الفاطميين .

وقد يتساءل القارىء الكريم مــــا شأن تاريخ الدول المتعاقبة على فلسطين مع عنوان كتابنا هذا الذي سميناه جولة في تاريخ بيت لحم . فالجواب عندمـــا قمت بجولة في بطون الكتب منقبا عـــن تاريخ بيت لحم ، وجدت تاريخ هـــذه المدينة جزءا لا يتجزأ من تاريخ ما حولهـــا من البلاد ، فكل ما أصاب البلاد التـــي حولها أصابها . ولما كان هذا الكتـــاب وضع في الدرجة الاولى للجيل الصاعد من ابناء وبنات وطني ، رايت انه من الفائدة الكبرى ان أوفر عليهم مجهود ومشقـــة البحث والتنقيب ، وان أحاول ان أضـــع بين أياديهم اوسع المعلومات وادقها ، لتكون منطلقا لهم فى دراساتهم في المستقبل .

ولسهولة المرجع وحسن التوضيح جعلت كل عهد في مقال منفصل ، ووضعت في اخر الكتاب فهرسا بالمراجع الاساسية مما وجدتها باللغة العربية ، وفهرسا اخر بالمراجع التي وجدتها باللغة الانجليزيـــة بالاضافة الى هذه الكتب طالعت كتـــب تاريخ وغيرها فلم أجد فيها ما يستحـــق ذكره كمرجع تاريخـــي .

الحـــــروب الصليبيـــــة

بدأ السلجوقيون يفكرون بالاستيلاء على الاقطار العربية منذ سنة ١٠٤٠ م ، وبقيت هذه الرغبة تتمخض حتى سنـــة ١٠٧١ م في عهد (الملكاشاه) جلال الدين ابو الفتح بن الب ارسلان ، الذي افتتـــح الكثير من ولايات الدولة الفاطمية وامتلكها ، ومن جملتها فلسطين والاماكن المقدسة . وقد لحق بيت المقدس الكثير من الخراب والدمار على يد السلجوقيين ، أكثر ممـــا كانت قد لاقته في حياتها منذ نشأتهـــا . فان السلجوقيين لم يتركوا فيها كنيســـة ولا بئرا الا وهدموه الى الحضيض ، حتى انهم في حالات كثيرة لم تسلم من اذاهـــم بعض المساجد الاسلاميـــة .

وظل بيت المقدس حين امتلكـــــوه من سنة ١٠٨٠م الى سنة ١٠٩٦م يقاسي تحت حكمهم الامرين . ولكن في سنـــــة ١٠٩٦م عاد الفاطميون واسترجعوا بيت المقدس من ايدي السلجوقيين . وفى سنة ١٠٨٠م توفي البطريرك صفرونيوســـــ الثاني ، وانتخب مكانه البطريرك مرقص الذي ادار بطريركية بيت المقدس لمـــــدة ١٣ سنة . ثم خلفه سنة ١٠٩٢م البطريرك سمعان الثاني ، وفي زمانه تم استـــرداد بيت المقدس من قبل الفاطميين .

في سنة ١٠٩٤م حضر الى القـــدس لزيارة الاماكن المقدسة راهب فرنســـي يدعى بطرس الناسك ، فراى ما يقاسيه مسيحيو الشرق من المظالم والمشقـــات والاضطهاد ، فاجتمع بالبطريرك سمعـــان واتفقا على أن يذهب الناسك بتفويض من البطريرك ويثير المسيحيين في الغـــرب ، ليبادروا الى خلاص الاماكن المقدســـة . وأخذ الناسك بطرس فى التنقل من بلـــد لاخر في جميع انحاء الغرب ، مثيرا عواطف الناس هناك ، ويدعوهم باسم الانسانية والديانة والشفقة لينهضوا ويخلصـــــوا اخوانهم في الشرق .

وقد كان رد فعل كبير من المسيحيين في الغرب لدعوة الناسك بطرس ، فانعقد مجمع لهذه الغاية في مدينة بلاسنجيـــــا فى اسبانيا ، ثم انعقد مجمع اخر فـــي مدينة كلارمنت في فرنسا في سنة ١٠٩٥م ، حضره البابا ادريانوس الخامس وكثيرون من امراء وأشراف الولايات الاوروبية . وقد كان لخطاب البابا التاثير الكبير فـــي القلوب . وللحال بادرت اوروبا بالتجنيد والاستعداد حتى صارت كانها كتلــــــة عسكرية واحدة . وسميت هذه الحروب بالحروب الصليبية ، لان الجنود كانـــــوا يضعون على ملابسهم صليبا من نسيـــج أحمر ، اتخذوه شعارا لهـــم .

وبعد فترة من الاستعدادات تحـــرك الجنود في سنة ١٠٩٧م ، وكان عددهـــم

أكثر من اربعمائة الف مقاتل ، تحت امرة غودفري دي بويون وأخويه غوستاف وبلدوين ، وأمير ايطاليا السفلى وجملة قواد اخرين . وساروا برا حتى وصلوا مدينة القسطنطينية ، ومنها مروا بنيقية وكيليكية ، ثم باديسا وانطاكية واللاذقية فمدينة طرابلس الشام . ومنها تابعوا تحركاتهم الى صيدا وصور حتى مدينة عكا ويافا وعمواس غربي مدينة القدس . وكانوا يستولون على المدن التى كانت تعترضهم في الطريق بتعب ومشقة عظيمين ، حيث كانت هذه المدن تقاومهم وتكبدهم الكثير من الارواح ، حتى وصلوا اخيرا أمام اسوار القدس .

ان المؤرخين الذين رافقوا الحملات الصليبية ، وصفوها قائلين : ان عدد الجنود والمرافقين للحملة الصليبية لايحصى ، انهم كرمل البحر . وذكر آخرون قائلين : انه ليس بالامكان تعيين عدد الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملات الصليبية بالضبط . فان قسما من الذين سجلوا اسماءهم في بادىء الامر قد تخلوا عن الحملة في الطريق ، وهناك اخرون التحقوا بالحملة ولم يسجلوا اسماءهم .

لم يكن لهذه الحملة قائد عام ، وانما كان لها قواد كثيرون ، ومن اشهرهم :

١ــ الراهب الفرنسي بطرس الناسك ، الذي قاد المتطوعين الفرنسيين ، وسار بهم عن طريق المانيا الى هنغاريا فالقسطنطينية .

٢ــ غودفري دي بويون ، أمير بلاد اللورين في فرنسا ، قاد عشرة الاف فارس ، واربعين الف رجل ، من المتطوعين الافرنسيين ، القاطنين حول نهر الرين في فرنسا .

٣ــ اويستاس غويتار ، فكانت طريقة الى الشرق عن طريق بلغاريا فالقسطنطينية

٤ــ الكاهن غوشالك ، قاد متطوعي النمسا ، وفى القسطنطينية التحق بجماعة الناسك بطرس .

٥ــ الكونت اميكون ، قاد متطوعي المانيا ، وكانت طريقه عبر البلاد البلغارية .

٦ــ بوهيموند تارنتوم ، قاد في بادىء الامر هو وابن عمه تنكريد ، عشرة الاف فارس وعشرين الفا من المشاة . وقد كان طويل القامة ، محبا للفخفخة ثم قاد الحملة كلها بعد ان استقال من قيادتها المدعو اسطفان .

٧ــ تنكريد ريموند اوف طولوز ، قاد مئة الف مقاتل بين فارس وراجل .

٨ــ اوسطاكيوس قاد متطوعي بولونيا .

٩ــ بلدوين ــ اسم جرماني معناه المبارز والقوي .

١٠ــ جرارد .

١١ـ غرنيـــــل .

١٢ـ روبرت الملقب بـ « تورت هاوز » وهو حاكم ولاية نورمانديا ، وهو الابـــن الاكبر لغليوم القاهـــر .

١٣ـ الكونت روبرت فلاندرس ، والـــي مقاطعة فلاندرة ، وكان يلقب بحربـــة المسيحيـــين .

١٤ـ الكونت روبـــرت اف نورمانـــدي اسطفان ، والي مقاطعة بلواز وقد قاد الحملة مدة بعد وفاة ممثل البابـــا ايديجار ، ثم آستقال .

١٥ـ كاتريز ، وكان مستشار الحملـــة الحربـــي .

١٦ـ ريكاردوس أمير سالارنوس .

١٧ـ رانولـــــف .

١٨ـ روبرت دوهـــوس .

١٩ـ روبرت دوسوردفال هرتل دوبوليناك

٢٠ـ غولياقوس ديوسوريار .

٢١ـ اديمار دومونتيل ، وكان يمثـــــل البابا ، وقد اقامه هذا ، رئيسا روحيـــا للحملة ، مات في انطاكية ولم يصل القدس .

٢٢ـ سمعان بطريرك بيت المقدس .

٢٣ـ كليرمونـــت .

٢٤ـ الكونت سان جيـــل .

٢٥ـ روجار دو قواكس غرليامولس .

٢٦ـ رامبرت دو اورانـــج .

٢٧ـ هرمفروا دومنتيـــك .

٢٨ـ ايزارد دوديـــا .

وغيرهم كثيرون شملتهم الكتـــب التاريخية التي كتبت بمختلف اللغات الحية ، عن الحروب الصليبية ، وهذه الكتـــب قليلة ونادرة جدا باللغة العربية . وقـــد بحثت كثيرا في مكتبات القدس عن اي كتب عن الحروب الصليبية فلم اتوفق بواحـــد منهـــا

ولما اجتازت جيوش الصليبيـــين الاناضول قاتلهم (قيلج ارسلان) قتـــالا

شديدا . غير انهم عبروا بعدئذ مدن انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا والرملة . اي كانت مسيرتهم بمحاذاة شواطىء سوريا ولبنان وفلسطين الواقعة على البحر الابيض المتوسط فوصلوا اسوار القدس في حزيران سنة ١٠٩٩م فحاصروها بجيش كان عدده من اربعين الى خمسين الف مقاتل .

بدأ حصار جيوش الصليبيين مدينة بيت المقدس في اليوم السابع من شهر حزيران سنة ١٠٩٩م ، ودام نيفا واربعين يوما ، عانوا خلالها انواع المحن لقلة الماء الكافي لهذه الجيوش الكبيرة . ونفاذ الذخيرة ، وفقدان لوازم الحصار من خشب وأدوات اخرى ضرورية . ولم يحل هذه الازمة الا بعد وصول المراكب من جينوا محملة بالذخيرة والمؤن الى عكا ويافا ، ومنها نقلت الى القدس . وقد قطعوا الاشجار اللازمة لالات الحصار من غابة كانت تقع بين سبسطية ونابلس ، فشيدوا ثلاثة ابراج عالية يطلون منها داخل اسوار القدس .

وكان في القدس عند وصول الجيوش الصليبية اليها ، الوالي افتخار الدولة يديرها باسم الخليفة الفاطمي (المستكفي بالله) ، وكان هذا الوالي قد ابعد المسيحيين عن القدس ، وابقى فيها المسلمين واليهود فقط . وحشد داخل المدينة العدد الذي اعتقد انه كاف للدفاع عنها من الجنود المصريين . وكان المدافعون يتألفون من اربعين الف مقاتل يساندهم السكان المدنيون وعددهم يومئذ يربو على عشرين الفا . وقد حصنها وادخر في عنابرها مقادير كبيرة جدا من الذخيرة والمؤن ، وكان الوالي قبل بدء الحصار قد أمر بتخريب جميع الحقول التي حول المدينة لئلا يستغلها المهاجمون ، وردم آبار الماء التي في البر ، حتى لا يجد المهاجمون ماء .

وطال أمد الحصار دون أن يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على المدينة بسبب شدة مقاومة المدافعين عنها . عندئذ عقد رؤساء الجيوش المحاصرة مجلس شورى لتعيين خطة للهجوم الشامل وتعيين يوم له . فقرروا استبدال خططهم السابقة ، فقاموا اثناء الليل ونقلوا البرج الخشبي المركب على دواليب مع سائر الاعمال والالات ، الى جهة شرقي المدينة ثم نصبوا المنجنيقات والات الحرب الاخرى بين باب الساهرة وباب دمشق أي باب العامود .

وفي يوم الخميس الموافق ١٤ من شهر تموز سنة ١٠٩٩م ، ومنذ شروق الشمس امر جميع رؤساء القواد وجنودهم بالهجوم العام على اسوار مدينة القدس من جميع جهاتها . ولم يكن أمر الحرب بيد واحد من القواد حين المعركة ، بل كان كل واحد من الامراء والحكام في الموقع الذي يقوم عليه ، يرتب عساكره ويدير امورهم كما يجده مناسبا للهجوم .

وقد استعمل المدافعون عن بيت المقدس المواد الملتهبة والكباير المشتعلة بالزيت والنشب القوية . وكان لديهم اربع عشرة الة حربية كبيرة جدا مركبة على الاسوار ، ابلوا في ذلك اليوم بلاء حسنا في الدفاع عن مدينتهم . ودام القتال اكثر من اثنتي عشرة ساعة حتى حل الظلام .

وفي اليوم التالي الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩م ، استؤنف القتال باشد ضراوة من اليوم السابق . وحوالي ساعة الظهر قامت الجيوش الصليبية بهجوم عنيف من سائر الانحاء . وتمكنوا من دك البرج الكبير ، فاجتاز الدوق دي لورين من فوق الردم وادرك السور ، وأمر غودفري بمد الجسر المرتفع ، فمد ومر عنه غودفري ، وتبعه جنوده فدخلوا المدينة .

واقدم قائد يدعى (لتولدس) وهو من اشراف مقاطعة فلانديريا ، فارتقى السور تحت وابل من السهام ، ووضع فوقه راية الصليبيين ، الامر الذي اثار حمية المهاجمين ، فقاموا بهجماتهم الاخيرة ، وكانت شديدة للغاية ، ففتحت المدينة . وكان أول من دخلها غودفري دو بويون الافرنسي . ثم خلع جنود تنكريد ، وجنود غودفري ، باب اسطفانوس في سور القدس بضرب الفؤوس والمعاول ، ففتحوه ودخلت المدينة باقي جيوش الصليبيين ، في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة الموافق الخامس عشر من تموز سنة ١٠٩٩م ، الموافق ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢م .

وكان سكان المدينة المقدسة حين دخلها الصليبيون عشرين الفا ، منهم ثلاثة الاف يهودي ، والف مسيحي عربي على المذهب الشرقي ، والبقية الباقية مسلمون . وكان قد لجأ الى مدينة القدس عشرات الالوف من مسلمي عسقلان ويافا والرملة وغيرها ، هربا من وجه الجيوش الصليبية فوقع الجميع في قبضة الجيوش الصليبية الفاتحين للقدس . وكان من سوء حظ اليهود أن دخول الجنود الصليبيين الى القدس كان من باب النبي داود ، اي من جهة حارتهم ، فتلقوا مر الضربة الاولى ، فقد جمعوا في كنيسهم وأبيدوا . وهكذا خلت المدينة المقدسة من اليهود وأبيحت حارتهم ، وظلت كذلك طيلة حوالي مائة سنة ، وهي المدة التي ظل فيها الصليبيون في المدينة المقدسة . وقد ذكر هذه المذابح مؤرخو عصر الحروب الصليبية ، والجميع ذمها كثيرا لبشاعتها .

ان الجنود الصليبيين قد سكروا بخمرة الانتصار ، فاستيقظت فيهم روح الاستعمار والغلبة التي لا بد لها فى تلك الايام ان تقترن بسفك الدماء والقتل والانتقام والتشفي ، الى غير ذلك من عوامل النفس الظافرة بالغاية التي لاجلها يحاربون . جهلوا او تجاهلوا ان المدينة التي يفتحونها هي اورشليم المقدسة ، فدخلوها كمن سبقهم من فاتحي اورشليم الجهلة العتاة السفاكين ، مثل نبوخذ

نصر والرومان والسلاجقة وغيرهـم ،فعاثوا في المدينة قتلا ونهبا . آن الفـوز اسكرهم وبهر اعينهم ، واعمى بصائرهم ،حتى انهم لم ينتبهوا ولم يتذكروا زيـارة المقدسات الا بعد أن شفوا نفوسهم بالقتل وسفك الدماء . ويشهد المؤرخون ان قائد حملة الصليبيين غودفري كان رجـلا انقيا وشهما كريما ، وان جميع ما جـرى من المآسي لم يكن بارادته ، فقد كانت هناك انقسامات بالرأي بين القادة ، وكل سار على هـواه .

وكان أول عمل قام به الصليبيـون عندما احتلوا مدينة القدس ، ان دخلـوا كنيسة القيامة دخلوها حفاة ، وقدمـوا صلوات الشكر لله . ثم بعد ذلك وجهوا اهتمامهم الكبير الى تعمير كنيسة القيامة وما حولها وتصليح ما هدم من كنائس .

وقد ذكر أسقف صور (غوليملس)وهو مؤرخ ايضا ، ان الصليبيين حافظوا قدر الامكان على ما كان قائما في الكنيسة من بنيان . الا انهم جمعوا المعابد المتفرقة في كنيسة واحدة هي مبنى كنيسة القيامة الحالية ، جمعوها تحت سقف واحد ومتين . وزادوا على ذلك بأن بنوا الى الشرق من القبر المقدس كنيسة لها ثلاث حنايا مـن جهة الشرق ، وهي المعروفة في وقتنـا الحاضر بكنيسة نصف الدنيا . ثم شادوا قبة نحيفة لكنيسة الصليب . وبنوا في محل الشهادة ديرا صغيرا هو الان بيد الاقباط . وأضافوا اليها صحنا وأسعا ، وهيكـلا للكهنة ، وبهذه الزيادات المختلفة أصبحت كنيسة القيامة الاصلية في المركز ، ومـن حولها الابنية الكنسية العديدة ، متصلـة بكنيسة الجلجلة ، في مجموعة من الكنائس المتداخلة بعضها ببعض من جميع الجهات .

ورفع الصليبيون فوق الزاوية الجنوبية الغربية برجا للاجراس كان ذا ثلاثـة طوابق ، هدم منها بفعل الزلزال طابقان هما العلويان وبقي الطابق السفلي كمـا كان . والبابان الكبيران اللذان نراهما في واجهة كنيسة القيامة من الناحية الجنوبية ، هما من عمل الصليبيين ، وقد سد احدهما فيا بعـد .

المملكة اللاتينية في القدس

بعد فتح القدس أسس الصليبيون فيها مملكة لاتينية صغيرة ، واختاروا القائد غودفري دو بويون أميرا عليها . فاخذوه الى كنيسة القيامة وتوجوه فيها . ولكنه توفي بعد سنة ودفن في كنيسة القيامة ، في أول غرفة عن يمين الداخل الى الكنيسة تحت الجلجلة .

وبعد وفاة غودفري ، توج ملكا مكانه بلدوين الاول ، وكان تتويجه في يوم عيد الميلاد ٢٥ كانون أول سنة ١١٠٠م ، فوق مغارة المهد ، ولكنه ابى أن يلبس التاج الملكي الذهبي ، بل اكتفى بوضع اكليك من الشوك على رأسه ، كما فعل اليهود بالمسيح قبل صلبه عندما هزئوا به ولقبوه ملك اليهود ووضعوا اكليلا من الشوك على رأسه .

وفي يوم خميس الصعود سنة ١١١٨م احتفل بتتويج بلدوين الثاني ملكا على المملكة اللاتينية في القدس . وكان الاحتفال بالتتويج مكان تتويج سلفه بلدوين الاول ، اي في كنيسة المهد في بيت لحم وفوق مغارة المهد ، وقد أبى بلدوين الثاني أن يضع التاج الملوكي الذهبي فوق رأسه ... بل اكتفى بوضع اكليل من الشوك ، كما فعل سلفه من قبله .

وقد اتسعت المملكة اللاتينية في القدس حتى اصبحت تشمل منطقة طولها اكثر من الف ميل وغرضها نحو الخمسين ، وتشتمل من شاطىء البحر الابيض المتوسط على البقعة الممتدة من انطاكية الى يافا وغزة حتى العريش ، وفي شرقها مدينة الكرك وشرقي الاردن وفي جنوبها ميناء العقبة ، وكانت هذه المنطقة ذات اهمية كبيرة جدا من الناحيتين السياسية والتجارية ، اذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التي تربط الشام بمصر ، ولكنها في نفس الوقت كانت محاطة بمدن كبيرة ، ترابط فيها جيوش المسلمين ومنها الشام وحلب . ومن هذه المدن كانت تخرج من حين لاخر هجمات وغزوات متكررة ، تفاجىء جيوش الصليبيين هنا وهناك .

وكانت واردات الدولة اللاتينية ، عبارة عن رسوم تجبى من القوافل مقابل مرورها من اراضي هذه المملكة ، وعوائد اخرى كانت تجبى في المرافىء وهي تشبه العوائد الجمركية في وقتنا الحاضر . وأرباح كانت تستوفى من مواد حصرت تجارتها في فئة من الناس ، ورسوم المحاكم ، وضرائب شخصية تجبى من

المسلمين واليهود ، والجزية . ولكن لم يكن ثمة نظام مالي ، ولا كانت هناك أنظمة معينة لجباية هذه الرسوم والعوائد .

وكانت الادارة في ذلك العهد لامركزية ، بل تقوم على أساس الحكم الاقطاعي . وكان الامراء الثلاثة في الشمال نوعا ما مستقلين : فقد كانوا يعقدون المعاهدات المنفردة مع من شاءوا ، ويصدرون القرارات التي تنفعهم وتؤيد مصالحهم الشخصية ، دون أن يستشيروا الملك في القدس . ولم يكن للملك سلطة واسعة تخوله حق مطالبة هؤلاء الامراء بالاذعان لاوامره . وكل أمير يقيم له حصنا منيعا يتحصن فيه ويسعى لتوسيع حدوده غير عابىء بالملك ورغائبه . وقد حارب بعضهم بعضا ، ونسي معظمهم المصلحة العامة ، ونسوا ايضا الغاية الدينية التي حاربوا في سبيلها ، وهبطوا البلاد من أجلها .

لم تؤثر الحملات الصليبية على البلاد من حيث اللغة ، اذ ظل العرب عربا يتكلمون العربية ويخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة التراجمة ، ولم يحاول الصليبيون ان يراعوا عوائد البلاد ، او يلبسوا الثياب التي يلبسها السكان ، بل ظلوا متمسكين بعوائدهم ، وراحوا يؤثرون الثياب الفخمة التي لا تلائم الوسط الذي يعيشون فيه . واعتبر بعض المؤرخين ان عملهم هذا كان سببا رئيسيا من أسباب انكسارهم فيما بعد . لم تستفد البلاد من الحملات الصليبية كثيرا ، وانما كانت البلاد مصدر غنائم وفوائد للصليبيين أنفسهم ، فقد نقلوا الكثير من المعارف والصنائع الموجودة في بلاد الشرق ، فادخلوها الى البلاد التي جاءوا منها في أوروبا ، فنقلوا الى أوروبا شتى العلوم الطبية والتاريخية والجغرافية وغير ذلك . ونقلوا الى أوروبا الكثير من أنواع اشجار الفاكهة والخضروات وفي طليعتها ، نبات قصب السكر .

كانت أوروبا قبل الحروب الصليبية ، تسير في معاملاتها التجارية على أساس « التبادل العيني » ، وما كانت تكترث بالنقد الا قليلا . وفي خلال الحملات الصليبية ، اضطر الصليبيون الى ابتياع حاجاتهم الضرورية بالنقد ، وقد ظل هذا النوع من التعامل بالنقد سائدا بعد تلك الحروب .

وبعد الاحتلال الصليبي زار القدس عدد من السياح وكان بعضهم يسرون مشاهداته واليك امثلة منها :ـ

١ـ زار القدس بعد بضعة سنوات ١١٠٢م . الرحالة سيولف الولشي . وقد ذكر في كتابه انه قضى في الطريق بين يافا والقدس يومين . وقد وصف وعورة الطريق واخطارها . فهي وعرة لانها جبلية وخطرة لان بعض السكان يرابطون في الطريق . هذا فضلا عن انه يوجد ثمة كثير من الحيوانات المفترسة . وويل

الذين يقتلون على الطريق ، فانهم لا يجدون من يجرؤ على دفنهم . اذ ان من بتأخر عن القافلة ليدفن رفيقه يعرض نفسه لخطر القتل والاغتيال من العرب الذين اصبحوا يكرهون المسيحيين كرها شديدا ، بسبب ما فعله الصليبيون بهم في بيت المقدس .

٢ـ وزارها سنة ١١٠٦م راهب روسي يدعى « دانيال » ، وكتب عنها وعن كنائسها الشيء الكثير . ومما قاله ان القدس مدينة كبيرة ، تحيط بها اسوار منيعة عالية ، وان اسوارها بنيت بشكل مربع اضلاعه متساوية . ومع ذلك فان الحكم اللاتيني لم يكن موطد الاركان الا في داخلها . واما خارج الاسوار ، فقد كان حبل الامن مضطربا ، وان الثوار العرب كانوا منتشرين في جميع انحاء البلاد . وان التلال والاودية الكائنة بين القدس ووادي الاردن ، كانت مسرحا للنمور والضباع والاسود ووحوش الفلا . وان المدينة محاطة بعدد من الاودية القاحلة والجبال الجرداء . وانه لا نهر فيها ، ولا عينا جارية ، خلا بركة سلوان . وليس لدى السكان ما يشربونه او يسقون به دوابهم سوى مياه الامطار . ومما قاله دانيال : ان زراعة الحبوب ناجحة في تلك الاراضي الصخرية رغم ندرة الامطار . وانه لمن فضل الله على سكان القدس ان تعطي الحبة التي يزرعونها ، قمحا كانت أم شعيرا ، مئة وتسعين حبة ، مع أن الحبة الواحدة لا تثمر في انحاء فلسطين الاخرى اكثر من خمسة وعشرين ضعفا . الى ان قال انه يوجد حول القدس مساحات واسعة من الكروم التي تزرع فيها اشجار العنب والتين والجميز والخروب والزيتون وما الى ذلك من الفواكه الاخرى .

٣ـ وقد زار القدس سنة ١١٧٢م الرحالة الالماني ثيودوريتش فقال عنها : انها مدينة جبلية ، لكن صخورها جميلة ، فيها الابيض والاحمر والرخام المتعدد الالوان . وكلها صالحة لاخذ حجارة البناء . أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور فتنمو جميع انواع الفواكه ، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والتين والزيتون .

واما الاودية فتملاها الحبوب والبساتين . اكثر شوارعها مبلطة بالواح كبيرة من الحجارة . وهي مسقوفة بعقود حجرية . فيها نوافذ يدخل منها النور . وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش . واسطحتها مستوية . وليس لديهم اي ماء سوى ماء المطر الذي يجمعونه في ابار محفورة لهذه الغاية . والخشب غالي الثمن في القدس لانه يأتيها من مكان بعيد الا وهو لبنان .

ملــــوك المملكــة الصليبيــة

وقد تعاقب على الدولة اللاتينية في القدس الملوك التالية اسماؤهم ، نذكرهم لفائدة الناشيء في دراسته ، وقد تكــون مرجعا مفيدا له . وهم حسب تاريــــخ حكمهـــم : —

١ــ غودفري دوبويون ١٠٩٩ــ١١٠٠م	1 — Goodfrey de Bouillon
٢ــ بلدوين الاول ١١٠٠ــ١١١٨م	2 — Baldwin I.
٣ــ بلدوين الثاني ١١١٨ــ١١٣١م	3 — Baldwin II.
٤ــ ميليسنده وفولك انجو ١١٣١ــ١١٤٤م	4 — Melisende & Fulk of Anjou
٥ــ ميليسنــدة وبلدوين الثالــث ١١٤٤ — ١١٥٢م	5 — Melisende & Baldwin III .
٦ــ بلدوين الثالث « وحده » ١١٥٢ — ١١٦٢م	6 — Baldwin III .
٧ــ اموري الاول ١١٦٢ــ١١٧٣م	7 — Amaury I .
٨ــ بلدوين الرابع ١١٧٣ــ١١٨٥م	8 — Baldwin IV .
٩ــ بلدوين الخامس ١١٨٥ــ١١٨٦م	9 — Baldwin V .
١٠ــ سيبل وغاي دو الوزغنان ١١٨٦ — ١١٩٠م	10 — Sybil & Guy de lusignan
١١ــ غاي دولوزغنان « وحده » ١١٩٠ — ١١٩٢م	11 — Guy de lusignan
١٢ــ ايزبلا وهنري اوف شامبان ١١٩٢ — ١١٩٧م	12 — Isabella & Henry of Champagne
١٣ــ ايزابلا واموري الثاني ١١٩٧ — ١٢٠٥م	13 — Isabella & Amaury II .
١٤ــ ايزبــلا « وحدهــا » ١٢٠٥م	14 — Isabella .
١٥ــ مـــــاري ١٢٠٥ــ١٢١٠م	15 — Mary .
١٦ــ ماري وجون دوبرين ١٢١٠ــ١٢١٢م	16 — Mary & John de Brienne .

17 — Yulande & John de Brienne .	١٧ــ يولانده وجون دوبريـــــن ١٢١٢ ــ ١٢٢٥م
18 — Yulande & Fredrick .	١٨ــ يولانــــده وفريدريــــــك ١٢٢٥ ــ ١٢٢٨م
19 — Conrad & Fredrick .	١٩ــ قوانراد وفريديك ١٢٢٨ــ١٢٤٣م
20 — Conrad .	٢٠ــ قونراد « وحده » ١٢٤٣ــ١٢٥٤م
21 — Conradin .	٢١ــ قوناردين ١٢٥٤ــ١٢٦٨م
22 — Hugh .	٢٢ــ هـــــوغ ١٢٦٩ــ١٢٧٧م
23 — Charles of Anjou .	٢٣ــ شارل اوف انجو «يطالب بالعرش» ١٢٧٧ ــ ١٢٨٤م
24 — John .	٢٤ــ جـــــون ١٢٨٤ــ١٢٨٥م
25 — Henry .	٢٥ــ هنــــري ١٢٨٥ــ١٢٩١م

احتلال الصليبيين لبيت لحم

ذكرنا في الفصول السابقة ان حملة الصليبيين جاءت عبر بلغاريا وهنغاريا الي القسطنطينية ، ومنها سارت مع ساحل البحر المتوسط محتلة انطاكية وطرابلس والمدن التي تليها حتى احتلت مدينة يافا . ثم اتجهت شرقا الى داخل البلاد فستولت على مدينة الرملة مركز الحكم العربي في فلسطين ، صباح الثالث من حزيران سنة ١٠٩٩م . وكان سكانهاقد هجروها والتجأوا الى القدس طلبا للامان . بعد ان دمروا كنيسة القديس جريس الشهيرة ، انتقاما من الهاجمين الصليبيين . وبعد سقوط الرملة أعاد الصليبيون تنظيم صفوفهم وتابعوا مسيرتهم الى الشرق فاحتلوا عرطوف وعمواس في طريقهم الى بيت المقدس . وأمر قائد الصليبيين باعادة بناء الكنيسة الشهيرة واسسوا اسقفية اللد والرملة ، معينين الكاهن النورماندي روبرت الروني اسقفا عليها ، وتركوا حامية صغيرة تحت أمرة هذا الاسقف في الرملة ،واتجهوا شرقا صاعدين الجبال في اتجاه القدس فاقترب منها طليعتهم من جهة النبي صموئيل .

وكذلك حشد العرب قواهم لحماية القدس في المناطق المحيطة بالمدينة ، مما اخاف أهالي بيت لحم خوفا شديدا على أقدس ما لديهم ، كنيسة المهد ، التي كثيرا ما نجت من الهدم بدفع فدية باهظة في كل مرة . فاتفقوا على أن يرسلوا وفدا منهم الى الصليبيين ، يطلبون النجدة منهم ، قبل ان يهاجمهم المسلمون انتقاما من الصليبيين ، كما فعلوا في الرملة واللد . وتسلل وفد أهالي بيت لحم الى عمواس عن طريق بيت جالا وعين كارم ، تحت جنح الظلام ، وطلبوا النجدة السريعة من قائد الصليبيين لتخليصهم مع كنيستهم من الخطر المحتوم .

فاختار القائد الدوق غودفري مائة فارس من الشجعان وارسلهم تحت امرة قائديه تنكريد وبلدوين دي لي بورج ، مع وفد بيت لحم بعد غروب الشمس ، مارين فوق الجبال والاودية حتى دخلوا بيت لحم حوالي منتصف الليل . فدب الرعب في قلوب الاهلين معتقدين أن المهاجمين هم جيش مصر المرسل الى القدس للوقوف في وجه الصليبيين . وما أن بزغ فجر السادس من حزيران سنة ١٠٩٩م وعرفت هوية الفرسان حتى خرجت المدينة بكامل سكانها ، يتقدمهم رجال الدين بحللهم الكهنوتية من كنيسة المهد لاستقبال المنقذين . وساروا يحتفون بهم حتى دخلوا الكنيسة ومنها الى مغارة المهد حيث اقاموا صلاة الشكر للباري على هذه النجاة للاهالي وكنيستهم . ثم رفع الفرسان علم تنكريد فوق مدخل الكنيسة ، فاعتبر النورمانديون كنيسة المهد ملكا لهم .

وبدأ النزاع بين الامراء والقـــواد الصليبيين على الحكم في بيت لحم والقدس فادعى تنكريد ملكيته على بيت لحم وهـــو الذي احتلها ، وعارض رجال الديـــن اذ رفضوا أن تكون الاماكن المقدسة ملكـــا للسلطة الزمنية من الحكام والاســـياد . لكن تنكريد أصر على ادعائه ، رغـــم المعارضة الشديدة من رجـــال الديـــن . وأخيرا ترك الامر بدون حل ، ليبدأ النزاع على حكم وملكية القـــدس بعد احتلالها . فثار رجال الدين قائلين هل من ملـــك أرضي يحكم المكان الذي عاش وتألـــم وصلب فيه السيد المسيح عليه السلام .

وانتخب غودفري ملكا على المملكة اللاتينية في القدس ، لكنه رفض لبقـــواه لبس التاج الذهبي ، ورفض لقب الملـــك ودعى نفسه ، حامي وبارون القبـــــر المقدس . وامتدت سلطته من سهـــــل جزيل شمالا حتى النقب جنوب مدينـــة حبرون « الخليل » وحصن الفرنج هـــذه المدينة ليحفظوا الامن والسيطرة في هـــذه المنطقة التي معظم سكانها عرب مسلمون .

اسقفيـة بيـت لحـم

وفي سنة ١١٠٩م كتب الملـك بالدوين الاول الى البابا روما حاثا اياه أن يجعل بيت لحم مركزا اسقفيا ، فأجابه الى ذلك في العام اللاحق ، ضاما منطقة عسقلان تحت السلطة الدينية لاسقف بيت لحم وانتخب الراهب انسلين أسقفا لاتينيا على بيت لحم . وانتشرت أملاك هذا الكرسي الاسقفي في كل انحاء فلسطين وفي فرنسا وايطاليا واسبانيا واسكتلندا ،جاءت كلها تبرعات من الامراء والاثرياء فى تلك البلاد .

وتفيد كتب التاريخ أنه قد تعاقب على منصب اسقف بيت لحم ، الاشخاص التالية اسمائهم :

١ــ الاسقف انسلين ١١١٠ــ١١٢٨م . ANSELINE

٢ــ الاسقف انسلموس ١١٢٨ــ١١٤٣م ANSELMUS

٣ــ الاسقف جيرارد الاول ١١٤٨ــ١١٥٢ GIRARDI

وهذا أخذ ترابا من مغارة الحليب في بيت لحم وجعله على شكل سبيكة ، واهداها الى الملك بالدوين الثالث (بركة) أثناء حصاره مدينة عسقلان .

٤ــ الاسقف رؤول ١١٥٥ــ١١٥٦ حتى سنة ١١٧٤م RAOUL

وقد اشتهر هذا الاسقف في كتب التاريخ بقامته المديدة ، وغزارة علمه وحكمته .

والاسقف رؤول هو انكليزي نورماني ، ومستشار المملكة اللاتينية . ووصفه وليم من ثابر قائلا : يأخذ هذا المستشار الملكي الكلمة بمعناها وحذافيرها وله حكمة عالية . انكليزي الجنس حر ولطيف ،جميل المنظر وله مكانة عالية لدى الملك والملكة والحاشية والكهنة . وبفضل الاسقف رؤول توثقت العلاقات بين تانكريد النورماني والاماكن المقدسة .فكان للاسقف رؤول الفضل في تمكين الاول حلفا من العلاقات الطيبة بين كنيسة المهد في بيت لحم وانكلترا النورمانية .

٥ــ الاسقف البرتوس ١١٧٦ــ١١٨٦م . ALBERTUS

ثم اصبح بطريرك القدس فى سنة ١١٨١م ، وفي عهد الصليبيين اسندت

إدارة الكنيسة في القدس وبيت لحم الى رئيس ديني ويساعده فريق من الرهبان من أتباع نظام رهبنة القديس أغسطين . وهذا النظام بأن يبنى دير له عدة غرف ، كل غرفة تتسع لنوم عدد من الرهبان ، وقاعة طعام وكنيسة صغيرة لاقامة الصلوات ، ويقع هذا الدير حول ساحة مربعة مفتوحة ، تحيط بها من جهاتها الاربعة ممرات مسقوفة تحيطها الاعمدة المزدوجة ذات الرؤوس الجميلة . وقد عرف الدير الذي بناه الصليبيون في بيت لحم باسم دير القديس اغسطين ، الذي قامت مكانه فيما بعد كنيسة القديسة كاترينا . وعرف الرواق في وسط الدير باسم رواق القديس جيروم .

وقد سبق فى فصل سابق وصف كنيسة القديسة كاترينا ورواق القديس جيروم بقدر ما تيسر لي من المعلومات من مختلف الكتب ، بينما أحجم الكهنة ورجال الدين الذين بمكنهم ان يمدوني بالمعلومات التي يعرفونها عن هذه الاماكن ، سامحهم الله ، والهمهم حب الخير وتقديم المعرفة للاهالي .

وفي سنة ١١٠٢ — ١١٠٣م زار بيت لحم حاج من أوروبا يدعى سيولف فقال : وجدت القرية المسماة بيت لحم مردومة حيث دمرها العرب كباقي البلدان في الارض المقدسة خارج أسوار اورشليم ، عدا كنيسة مريم العذراء التي كانت فخمة وجميلة . وكانت كنيسة المهد تعرف في حينه بهذا الاسم .

ودام احتلال الصليبيين لبيت لحم مدة ثمانية وثمانين عاما ، جرى خلالها اعادة اعمار البيوت المهدمة ، وانتعشت فيها بيت لحم اقتصاديا وتوسعت ، وزاد عدد سكانها من الحجاج القادمين مع عائلاتهم من الشرق والغرب ، الذين سكنوا بيت لحم وتزاوجوا مع سكانها السابقين . كذلك زاد عدد الحجاج من كل بقعة من الارض حاملين الهدايا للكنيسة معهم ، ومبتاعين الهدايا التذكارية من التجار التلاحمة والغرباء الذين كانت متاجرهم عبارة عن بسطات على الارض أمام مدخل الكنيسة . وقد شيد الصليبيون سورا مع برج حول الكنيسة لحمايتها من العدوان .

وفي سنة ١١٠٦ — ١١٠٧م جاء في وصف الاسقف الروسي دانيال لزيارته الى بيت لحم قال : يحيط بكنيسة المهد الواقعة فى بقعة متروكة غير مأهولة سور . كما يحيط بالبلدة بيت لحم سور أيضا . وكانت بيت لحم القديمة بعيدة عن الكنيسة قليلا الى الغرب .

وقد لفتت شهرة بيت لحم النامية والمتزايدة انظار المسكونة الى الكنيسة المتهاوية فيها . وصادف لحسن الحظ اتفاق وتفاهم في هذه الفترة ، بسبب تصاهر بين الملكين ، اذ اقترن بالدوين الثالث ملك أورشليم من ثيودورا ابنة اخ

الامبراطور البيزنطي مانويل كومينيوس ،والتقى العاهلان لقاء وديا في معسكر الامبراطور في انطاكية ، ويغلب الظن ان يكون اسقف بيت لحم رؤول ، قد حضر هذا اللقاء بحكم منصبه مستشارا ملكيا ،شرح لهما وضع كنيسة المهد وحاجتها الى الترميم .

فقام الامبراطور البيزنطي مانويل كومينوس بتقديم الاموال والمهندسين ، فكان ترميما شاملا للكنيسة الكبرى والمغارة والجدران والسقف ، فنزع البلاط العادي ليحل مكانه بلاط رخامي ملون ، وغطيت جدران الكنيسة بالرخام المصقول حتى مستوى راس الاعمدة ، ومافوق ذلك نقش فسيفساء مذهبة وملونة من الزجاج والصدف . أما السقف فقد كانت دعاماته من خشب أرز لبنان الضخم ، غطي من الاعلى بصفائح رصاصية . كما شيد برج الجرسية ، وهيكل داخلي مصقول لزاوية الكنيسة الجنوبية الشرقية ،يعرف اليوم باسم كنيسة مار جريس واستعملت بعض الكهوف الواقعة تحت الحنية الجنوبية لكنيسة المهد ، مقبرة مشتركة حتى سنوات طويلة بعد عهد الصليبيين . وبقيت هذه المقابر مدفونة حتى اكتشفت في حفريات سنة ١٩٣٤م . فأقام دير الروم فى بيت لحم بناية مناسبة على مدخل هذه المقابر . وفي ذلك الحين تسنى لي الدخول الى هذه المغاور وشاهدت عددا من الجماجم البشرية لا تزال فيها .

عهـد صلاح الدين الايوبـي

كان العالم الاسلامي ، قبل الفتح الصليبي ، يتخبط في دياجير الفوضى والانقسام ، وكان الفاطميون من ناحية ، والسلجوقيون من ناحية اخرى ، ينازعون العباسيين السلطة ، فراحت البلاد نهبا مقسما بين هؤلاء وهؤلاء .

في تلك الفترة من الزمن قام بنو زنكي من مماليك السلاجقة ، فاقتطعوا ولاية الموصل في شمالي العراق ، بقيادة نور الدين ، الذي اشتهر بمناهضته الفرنج ، فامتد الى سوريا واحتل دمشق سنة ٥٤٩هـ — ١١٥٤م . فاختار اسد الدين شيركوه ، الذي هو عم صلاح الدين الايوبي ، قائدا عاما لجنده . فقام هذا القائد بغزو مصر ثلاث مرات ، وجرى بينه وبين الصليبين وقائع كثيرة ، أبلى فيها بلاء حسنا فولاه العاضد الوزارة ولقبه الملك المنصور .

ولما توفي أسد الدين شيركوه ، اختار العاضد ، بطلب من أمراء الجند ، ابن اخيه يوسف صلاح الدين للوزارة . وقد اتفق اهل التاريخ على أن اباه وأهله من « دوين » من أعمال اذربيجان ، ومن قبيلة كردية . ولد سنة ٥٣٢هـ — ١١٣٧م بقلعة تكريت في العراق .

ناوأ صلاح الدين الصليبيين مناواة شديدة ، وأغار عليهم في الكرك وعسقلان والرملة وغزة فأزعجهم ، ثم فتح العقبة ، وتوغل في السودان وضمه الى مصر . وارسل أخاه شمس الدولة الى اليمن ففتحها . وفي سنة ٥٦٧هـ — ١١٧١م : وبناء على طلب نور الدين ، أمر صلاح الدين بلبس الملابس السوداء شعار العباسيين ، وخطب في الجوامع للخليفة المستضيء ، وقطع خطبة الفاطميين . وفي سنة ٥٧١هـ — ١١٧٥م ولاه الخليفة حكم مصر والنوبة والمغرب وسوريا وفلسطين .

كان الصليبيون قد أسسوا بعد احتلالهم القدس ، اربع مقاطعات : الاولى في القدس ، والثانية في الرها وأرفا ، والثالثة في طرابلس الشام ، والرابعة في انطاكية . وكان هم صلاح الدين في الدرجة الاولى ، كسر شوكة الصليبيين واخراجهم من البلاد التي يسيطرون عليها . فرأى بعين ثاقبة ان ذلك لن يتم له آلا اذا احتل القدس التي كانت السبب في مجيئهم الى هذه البلاد . فلم ينقطع عن بث الارصاد وارسال الفدائيين الى بيت المقدس وما حولها من بلاد ، ليجوسوا خلال الديار ، ليعرفوا كيف ومن أين يمكن مهاجمتها واسترجاعها . ولذلك كان يرسل جنده من حين لاخر للاغارة على القرى الواقعة تحت حكم الصليبيين ، فيخرجون من دمشق ويعودون اليها .

واستمر صلاح الدين يغير على مواقع الصليبيين حتى سنحت له الفرصة . ولكن اهمها كان المعركة الفاصلة التي وقعت في حطين (٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ — ١١٨٧م) بينه وبين جيوش الصليبيين ، كان النصر فيها حليفه . وكان انتصاره هذا مقدمة لمهاجمة بيت المقدس .

اثبت صلاح الدين بتصرفاته انه أمهر قائد نزل الى ميادين الحروب خلال القرون الوسطى ، فانه قبل أن يحاصر القدس ، أرسل الى قائده لؤلؤ رسالة ، أمره فيها ان يراقب الشواطيء اثناء حصاره بيت المقدس ، لئلا يأتي للصليبيين مدد من أوروبا . وأمره بالاستيلاء على أي موكب أو سفينة لاتينية يراها تبحر في البحر . ولم يهاجم بيت المقدس الا بعد أن استولى على عسقلان وبيت جبرين من الجنوب ، وبعد أن طهر وادي الاردن من الشرق .

في ٢٠ ايلول ١١٨٧م ، شوهدت طلائع جيش صلاح الدين تقترب من اسوار بيت المقدس ، اتية من الجنوب من جهة الخليل . وكانوا مزيجا من العرب والكرد والاتراك . فعسكروا في النيقيفوريه (الواقعة بين محطة القطار ومأمن الله حاليا) . ولكن سرعان ما ظهر لصلاح الدين ان هذا المكن ليس بمناسب لاجل الشروع فى عمليات الحصار ، وان الصليبيين المحاصرين قد يستغلونه لصلحتهم ، لان سور بيت المقدس من جهة الغرب مشيد على اكمة مرتفعة وعلى السور في تلك الضاحية ابراج تسيطر على المواقع التي احتلها ، فلا يستطيع بناء الابراج التي كان لا بد من بنائها لضرب المدينة بالمنجنيقات . فان طبيعة الارض التي عسكر عليها لا تسمح لهذه العمليات ، وبالاضافة الى هذا فان الشمس التي تشرق من الشرق ، ستكون دوما معاكسة للجيش الذي يأتي من الغرب طوال النهار ، من ساعة اشراقها حتى حين مغيبها ، فلا يستطيع المهاجم ان يحارب خلال تلك المدة .

ارسل صلاح الدين طلائعه ليستكشف الجهات الاخرى من اسوار بيت المقدس . ولما تم له ذلك ، قام في اليوم الخامس بنقل جيشه الى الناحية الشمالية من المدينة . فالارض هناك واسعة ومنبسطة وتتسع لنزول الجيش عليها براحة وسهولة . واهم شيء انه بامكانه في هذا المكان ان يقترب كثيرا من السور اذ لا اكام ولا هضاب . أضف الى ذلك ان السور من الناحية الشمالية كان أضعف من الجهات الاخرى واكثرها انخفاضا . وكانت هناك طريق موازية لاستقامة السور . ومع ذلك فقد قضى صلاح الدين في هذه الناحية عشرين يوما ، قبل ان يتمكن من احتلال المدينة ، ذلك لانه كان يحتاج الى بعض الوقت لتركيب الات الحصار .

فالمدينة كان فيها يومئذ ستون الف مقاتل ، وكانت محاطة بسور منيع مرتفع

يشرف على كل المناطق المحيطة خلفــه . فلم يكن من السهل احتلال هذه المدينـــة قبل ان يعد جميع المعدات التي يلزمــــه للهجـــوم .

عندما أتم صلاح الدين ترتيباتـــه ، وركب الات الحصار ، وأصبح قادرا على اقتحام الاسوار ، بعث في طلب اشـراف المدينة وخاطبهم بقوله :

« انني احترم مدينه بيت المقدس ، ولا أرغب فى انهاك حرمتها باراقة الدماء فيها ، ولهذا انصحكم بتـرك المدينـــة ، وأتعهد من جهتي بأن أعوضكم عن أموالكم بالاموال والاراضي » .

ولما رفض أهل المدينة الاذعــــان لطلبه ، أخذ يضربها بالمنجنيقات ، فقـــام قتال عنيف بين الفريقين ، مات فيه خلق كثير من الجانبين . ولكن دفة جيوشـــ صلا ح الدين كانت هي الراجحة ، فالابراج قد تهدمت والسور قد انثلم من ناحيـــة وادي جهنم . فيئس الصليبيون وارسلوا رسولهم الى صلاح الدين ، باليان بـــن نيرزان صاحب مدينة الرملة ، فعرضـــ عليه الاستسلام ، فرفض صلاح الديـن في بادىء الامر ، قائلا :

« انه لم يمنحهم الشروط الطيبة التي منحها لغيرهم ، ولا بد من دخول بيـــت المقدس كما دخلها الصليبيـــون قبـــل ٨٨ عاما ، عندئذ استولى الخوف على سكان المدينـــة .

وبعد أيام قلائل عادوا فارسلـــوا باليان ليفاوض صلاح الدين . وقد طلـــب الرسول من صلاح الدين الصلح باسم اله البشر اجمعين . ومما قاله بليان الـــى صلاح الدين ، انهم لن يسلموا المدينـــة بسهولة ، سوف يذبحون نساءهم وأطفالهم لئلا يقعوا في أيدي صلاح الدين . وانهـم سوف يضطرون الى هدم مسجدي الصخرة والاقصى ، ويقتلون الاسرى الذين عندهم في داخل الاسوار ، وعددهم خمسة الاف أسير ، ثم يحاربون حرب الابطال حتـى أخـــر رمـــق .

استشار صلاح الدين قواده ورجاله ، وبناء على مشورتهم منح الصليبيين مـــا يطلبون ، وأتاح لهم مغادرة المدينة لقـــاء الجزية ، خلال ٤٠ يوما . ووضع علـــى أبواب المدينة أمناء ليحصلوا له الجزية . فابتدأ خروج المحاصرين فى اليوم الثاني من اكتوبر . وفي ذلك اليوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ — ١١٨٧م ، احتلت جيوش صلاح الدين بيت المقدس ، وكان ذلك بعد بزوغ الشمس بثلاث ساعات .

أظهر صلاح الدين الكثير من التسامح في معاملته مع الصليبيين ، فانه رغم انـــه حدد الفدية بعشرة دنانير شامية عن كـــل رجل ، وخمسة دنانير عن كل امــرأة ،

ودينار واحد عن كل طفل ، وحصل عن هذه الطريق ما يقرب من مائة الاف دينار . فانه عفا عن كثيرين منهم لضيق حالهم . فلم يدفعهم الجزية . ويقول المؤرخون ان صلاح الدين ، افتدى هو وحده عشرة الاف شخص من العجزة والفقراء ، وأطلق اخوه سيف الدين ابو بكر ، الملقب العادل سراح سبعة الاف شخص .

ومن أعمال صلاح الدين بعد دخوله بيت المقدس انه :—

١— سمح لجميع الجنود الصليبيين بأن يغادروا المدينة خلال أربعين يوما ، وضمن لهم سلامة الرحيل الى صور وطرابلس .

٢— أمر بتوزيع الصدقات على الفقراء والمرضى والارامل واليتامى والمقعدين ، وأن يزودوا بالدواء .

٣— استأذنته الملكة « ايزابيلا » بالسفر فأذن لها ولرهط كبير من النساء اللواتي كن معها . ولم يكتف بذلك ، بل أمر برد الاسيرات الى أقاربهن .

٤— سمح لرجال الصحة رغم انهم اشتركوا في قتاله ، بأن يواصلوا اسعاف الجرحى ومعالجة المرضى .

٥— سمح لنصارى بيت المقدس من اهل البلاد ، بأن يبقوا فيها ، فلا يخرجون ، وأن يؤمنوا على ارواحهم وأموالهم ، ولا يزعجون ، وأقام في بيت المقدس وما حولها الالوف منهم .

٦— سمح للفرنج باخلاء البيوت ، وبيع ما كان بحوزتهم من الاثاث والقوت ، وامهلهم حتى باعوا كل ما لديهم .

كتب عماد الدين ، بوصفه كاتب صلاح الدين ، ٧٠ كتابا الى الولاة والامراء فى سائر انحاء البلاد ، يخبرهم بفتح بيت المقدس . ومما جاء في كتبه ما يلي :

« اجتمع في القدس كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمتعتها كل قريب منهم وبعيد . وظنوا انها من الله مانعتهم ، وان كنيستها الى الله شافعتهم . فلما تركها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت . فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته . فنازل البلد من جانب : فاذا أودية عميقة ، ولجج ووعر عميقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وابرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل الى جهة اخرى كان للمطالع عليها معرج ، وللدخيل فيها متولج ، فنزل عليها ، وأحاط بها ، وقرب منها ، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وحاجزها ثم ناجزها ، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فاذا هم لا يصبرون على عبودية الحد من عنق الصفح . فراسلوه ببذل قطيعة الى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة

وانتظار النجدة . فعرفهم الخادم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول . وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عقبها وحبالها ، وأوتر لهم التي نرمي ولا تفارقها سهامها ولا تفارق سهامها نصالها . وقدم النصر بشيرا من المنجنيق يخلد اخلاده الى الارض ، ويعلو علوه السمـــاك . فحينئذ يئس الكفار من أصحـــاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ... » .

بعد احتلال القدس انتشر جنود صلاح الدين في شوراع المدينة وأحيائها ، يحفظون الامن والنظام . ويحولون دون الفوضـــى والسرقات . فلا نهب ولا نزاع ، ولا هـــم يحزنون . وقد رفعت الاعلام الاسلاميـــة على أسوار بيت المقدس ، ونصب صلاح الدين مخيمه خارج السور ، ليتمكن مـــن استقبال الوفود الكثـــيرة التي جـــاءت لتهنئته . ويقول ابن الجوزي أن عـــدد المشايخ والرؤساء الذين جاءوا لتهنئته ، زاد عن الالـــف .

ثم وزع العطايا والهبات على قواد جيشه وامرائه . واقام الولائم ، وأطعـــم الاسرى من المسلمين الذين كانوا بيـــد الصليبيين . وبعد أن كرمهم وكساهـــم ، ارجعهم الى بلادهم . وقد احســـــن صلاح الدين الى عدد كبير من العلماء .

وأما كنيسة القيامة ، فقد فكـــر صلاح الدين ، في بادىء الامر أن يأمـــر باغلاقها ، ولما استشار اصحابه ، اشار بعضهم بهدمها ، خشية أن يلجأ اليهـــا الصليبيون ويتحصنوا فيها ... اما باقي أصحابه فقد نصحوه الا يفعل ذلـــك وأن يعامل خصومه بالحسنى ، أسوة بالخليفة عمر بن الخطاب ، فعمل بنصحهم ولـــم يهدمها ، ولكنه اكتفى باغلاقها مؤقتـــا ، ريثما ينتهي القتال . وعندما استتب لـــه الامر ، عاد فأمر بفتحها ، ففتحت . وقد سمح للمسيحيين بحرية العبادة فيهـــا ، على أن يدفع كل شخص يغشاها مـــن الفرنج قطعة يؤديهـــا عنـــد الدخول ، واستثنى من ذلك النصاري من أهـــل البـــلاد .

رحل الصليبيون الذين غـــادروا بيت المقدس الى انطاكية ، وطرابلـــس وصور ، فتجمع منهم في هذه الثغور خلق كثير . وراح هؤلاء يتلقون النجدات التي اخذت بعد ذلك ترد اليهم تباعا عن طريق البحر . ولم يكن صلاح الدين بغافل عما فعله الصليبيون ، فقد أتى بعدد مـــن القبائل العربية الى فلسطين واقطعها لهم . فتوطنت في القدس قبائل من بني حارث ، وكانت منازلهم عند الطلعة خارج المدينة . ومن بني مرة من جهة الغرب الشمالي الى سوق الفخر « خان الزيـــت حاليـــا » ، وحارة السعدية لبني سعد ، وكانت لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه بيدهـــم . ويلي عتبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بني زيد . وحارة الجراعنة « ســـــوق القطانين » ثم وزعهم على البلدان .

وقد زاد صلاح الدين في حذره من الافرنج بأن رتب الاعياد والمواسم في بلادنا ، بحيث تأتي هذه المواسم وقت عيد الفصح عند المسيحيين ، الذي يأتي فيه الاوروبيون لزيارة القدس وللحج . والسبب في عمله هذا ان الصليبيين كانوا نكثوا العهد مرارا ، فخشي صلاح الدين ان هم دخلوا القدس زوارا ، ان ينقلبوا جنودا ، فيحتلون المدينة . فلذلك رتب « موسم زيارة النبي موسى » الواقع على طريق القدس — اريحا ، لاهل القدس وأعمالها . فيأتي الجميع للزيارة معهم علمهم ، وكان يسميه الناس البيرق ، وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين ، اي في اول يوم لاهالي جبل القدس وثاني يوم يأتي فيه أهالي جبل الخليل ، وثالث يوم لاهالي جبل نابلس ويكون حضور كل جماعة الى القدس مع أسلحتهم ومؤنهم وذخائرهم استعدادا للطوارىء . ثم يتجهون الى مقام سيدنا موسى المعروف حتى يومنا هذا ، ويقيمون خيامهم ومضاربهم هناك ورتب « موسم النبي صالح » لاهالي مدينة الرملة واعمالها . و « موسم الداروم » لغزة وأعمالها ، وكذلك « موسم المنطار » وموسم « الحسين لعسقلان وأعمالها » و « موسم ابي عبيدة الجراح » لعرب المساعيد والمشالخة والصقر . و « موسم النبي روبين » لمدينة يافا وأعمالها . و « موسم ابي العيون » لبني صعب والشعراوية . وكذلك « موسم علي بن عليم » ، وغير ذلك كثير . وبقيت زيارات هذه المواسم منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا .

قبل ان يغادر القدس ، عهد صلاح الدين بادارتها الى أخيه الملك العادل « ابو بكر سيف الدين » . فاتخذ هذا دير القديسة مريم على جبل صهيون دارا للحكم ، ونزلها هو وجنده . ولما رحل صلاح الدين عن القدس رحل معه اخوه الملك العادل ، فتولى ادارة القدس أحد امرائه الامير حسام الدين ساروج التركي . واستمر هذا الامير على ولاية القدس الى زمن وقوع الهدنة بين السلطان والافرنج سنة ٥٨٨هـ — ١١٩٢م فتولاها بعد الهدنة الامير عز الدين جرديك .

زار صلاح الدين القدس مرة ثانية بعد الفتح وكان ذلك في ثامن ذي الحجة سنة ٥٨٤هـ — ١١٨٨م . ونزل في هذه المرة في دار القسس المجاورة لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، وقد اتخذها مسجدا ورباطا للصلحاء الصوفية ، وهو المعروف في وقتنا الحاضر بمسجد الخانقاة الصلاحية . وكان تاريخ الوقف في الخامس من شهر رمضان ٥٨٥هـ — ١١٨٩م . وفي زمن المماليك انشأ على هذه الدار منارة ، انشأها الشيخ برهان الدين بن غانم شيخ الخانقاة حوالي سنة ٨٢٠هـ — ١٤١٧م

رحل السلطان صلاح الدين عن القدس الى مدينة عكا ، فاتته فيها رسل الملوك لتهنئته بفتح بيت المقدس : من الروم والعراق وخراسان وغيرها .
وارسل الى الدولة البيزنطية القائد « اسحق الثاني » ليخبره بما تم على يديه من فتوحات ، وليسلم اليه مائة وتسعين رجلا من رعايا الدولة البيزنطية ، كانوا

قد وقعوا في يده اثناء حروبه ضـــد الصليبيين . ونتج عن هذا البحث أن عقد الامبراطور البيزنطي والسلطان صلاح الدين حلفا في سنة ٥٨٥هـ ــ ١١٨٩م . وكـان من آثار الهدنة عداء عواهل دول غـرب أوروبا للدولة البيزنطية .

اهتم صلاح الدين بتعمير السـور ، وتجديد ما تهدم منه ، اهتماما كبـيرا . وجدد أبراجا حربية من باب العمود الى باب الخليل . وحفر حول السـور الخنادق ، لئلا يسهل الدنو منه . وكـان يعمل بيده في ذلك ويشارك العمال فى نقل الحجارة ، والصناع في أعمال البنـاء . كذلك قل عن أولاده وعن اخيه العـادل وامرائه . وبعض الحجارة التي كانـوا يقطعونها من الخندق كانوا يبنونها فـي السـور .

وذكر مجير الدين ج١ ص ٣٣٨ ، ان الفين من العمال الذين اشتغلوا في حفر الخندق وبناء السور مع صلاح الديـن ، كانوا أسرى الفرنجة ، وبعضهم مـن الموصل ، وان صاحب الموصل أرسلهم مع بعض حجابه . وقد حملهم مقدارآ مـن المال لينفق في بناء السور ، وان العمـل استمر نصف سنـة .

ولقد وصف الرحالة الذائع الصيت « موفق الدين عبد اللطيف البغدادي » ، الذي زار بيت المقدس خصيصا ليـرى صلاح الدين ، ذلك السلطان الذي عمـت شهرته الافاق بعد احتلاله هذه المدينـة ودحر الصليبيين عنها وعن باقي المناطق . فوصف اهتمام صلاح الدين ببناء السـور بقولـه :

« وكان صلاح الدين مهتما فى بنـاء سور بيت المقدس ، وحفر خندقـه ، ويتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة علـى عاتقه . ويتأس به جميع الناس ، الفقراء والاغنياء ، الضعفاء والاقوياء ، حتـى العماد الكاتب والقاضي الفاضل . ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر . ويأتي داره ويعيد الطعام ، ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المشاعـل ، ويصرف الليل في تدبير ما يعمل نهاراً .

مات صلاح الدين في دمشق سنـة ٥٨٩ هـ ــ ١١٩٣م . ودفن في تربـة بنيت له بجوار جامع بني أميـة . وكان عمره لما مات نحوا من سبع وخمسـين سنة . وترك من الاولاد سبعة عشـر ذكرا وبنتا واحدة صغيرة . ولم يخلـف فى خزائنه سوى سبعة واربعين درهما ، ولم يترك دارا ولا عقارا . وكان رحمه الله كثير التواضع ، قريبا من الناس ، كثـير الاحتمال ، شديد المداراة ، محبا للفقهاء واهل الدين والخير ، مائلا الى الفضائل ، يستحسن الشعر الجيد ويردده فـي مجلسه . شديـد التمسك بالشـريعة ، كريما ، ورعا ، وعادلا . والاهم من هـذا كله أنه كان شجاعا ومقداما في الحروب ، حمل جنده وقادته على مجاراته كثيرا فـي شجاعته واقدامه . فلا عجب اذا أتـى صلاح الدين ببطولاته الشهيرة ، ولـه ما تقدم من الصفات الشخصية .

عهد خلفاء صلاح الدين

بعد وفاه صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ ـ ١١٩٢م . انقسمت امبراطوريه المترامية الاطراف الى عدة ممالك : ـ

١ـ الشام وفلسطين ـ لابنه علي الملقب بالملك الافضل ، اي الحسن نور الدين .

٢ـ مصر ـ لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز « ابي الفتح عماد الدين » .

٣ـ حلب ـ لابنه غازي الملقب بالملك الظاهر « غياث الدين » .

٤ـ الكرك والشوبك وقسم من الجزيرة العربية وما بين النهرين في العراق ـ لاخيه العادل « أبي بكر سيف الدين » .

٥ـ حمص ـ لابن عمه شيركوه .

٦ـ اليمن ـ لاخيه الثاني طغتكين بن ايوب « سيف الاسلام » . والملاحظ ان معظم ملوك اليمن حتى يومنا هذا لا يزالون يلقبون بسيف الاسلام .

وكانت مدينة القدس مضافة للافضل وهو اكبر اخوة صلاح الدين ، وهو الذي انشأ المدرسة الافضلية بحارة المغاربة وتعرف قديما بالقبة . وهو الذي اعاد بناء المسجد الكائن الى الجنوب من كنيسة القيامة ، والذي يعرف حاليا باسم « جامع عمر بن الخطاب » . وكان البناء على أساس بناء جامع قديم ، وكان ذلك في سنة ٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م .

كان من مشاهير رجال صلاح الدين ، أمير شجاع يدعى علي بن احمد الامير سيف الدين أمين المشطوب ملك الهكارية ، وهي ناحية من نواحي الموصل في العراق ، يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية . دخل هذا الامير مصر مع أسد الدين شيركوه ، وعاد بعد سلطنة صلاح الدين الى البلاد الشامية . وفي اثناء زيارته لبيت المقدس ، في سنة ٥٨٨هـ ـ ١١٩٢م . توفي وصلي عليه بالجامع الاقصى ، ودفن فيه .

ارسل الافضل سلطان الشام وفلسطين ، كتابا الى اخيه العزيز سلطان مصر ، تنازل له فيه عن القدس ، ووافق على الحاقها بمصر ، وكان تنازله هذا بتدبير من وزيره ابن الاثير ، لانها كانت تحتاج الى مال ورجال لدفع عادية الافرنج عنها ، فسر العزيز بذلك . وأرسل مع عز الدين جورديك بن عبد الله النوري ، الذي ولاه صلاح الدين نيابة القدس ، ارسل معه عشرة الاف دينار لينفقها على

عسكر القدس ، فخطب له بها ، ثم ارسل اليها جندا آخرين لتقوية عسكر القدس ، خشية أن ينقض الافرنج الهدنة .

وبعد حين بدا للافضل ، أن يتراجع عما تنازل به لاخيه ، واسترجاع ولاية بيت المقدس لحكمه . ورجع فعلا ، وتنافر الاخوان ، وزاد في تنافرهما تدخل الامراء في سنة ٥٩٠هـ — ١١٩٤م فساءت الاحوال وتنافرت القلوب . وخرج العزيز من مصر بجيش كبير ، يريد لقاء اخيه الافضل ، وانتزاع الشام منه . وكان في جيش العزيز عسكر من الصلاحية والاسلامية والاكراد وغيرهم ، وكاد ان ينتزع الشام منه ، لولا أن توسط باقي الاخوة والاعمام واصلحوا ما بينهما .

ولكن الفساد ، عاد فاشتد بين الاخوين باغراء من عمهما العادل ، فأخذ العزيز القدس والشام من يد أخيه الافضل ، وأصبح الحاكم المطلق في مصر والشام معا . ولما استتب له الامر ، زار القدس في شهر رمضان من سنة ٥٩٢هـ — ١١٩٥م ، فأقال « أبا الهيجاء السمين » ، الذي تولى نيابة القدس بعد اقالة الامير عز الدين جرديك ، واقام بدلا منه « الامير شمس الدين سنكر الكبير » .

كان الامير عثمان الملقب بالملك العزيز وصاحب مصر ، كريما وعادلا ورحيما ، فقد أبطل بعض الضرائب والرسوم التي كانت تجبى من الناس في عهده . ولما توفي الملك العزيز في « ٢٧ محرم سنة ٥٩٥هـ — ١١٩٨م » انتقل ملكه الى ولده محمد ، ولقب بالسلطان الملك المنصور ناصر الدين ، الا انه كان صغيرا ، فأقيم الامير بهاء الدين قراقوش الاسيدي ، بناء على توصية أبيه اتابكا ، وهي كلمة تركية مؤلفة من كلمتين : « أتا » بمعنى الاب « بك » بمعنى الامير . وهي هنا بمعنى الوصي على العرش وقائد الجيش .

ويظهر ان الامير قراقوش هذا كان مكروها لسبب ما ، وكان بين الامراء من كان يطمع في منصبه هذا . فذكر التاريخ كثيرا عن مؤامرات هؤلاء الامراء . فكاتبوا الملك العادل وكان يومئذ في دمشق يستدعونه « لاتابكية » الملك المنصور . ولكن الملك الافضل احبط هذه المؤامرة ، وسار الى مصر ، فاستولى على أمور الدولة ، ولم يبق للمنصور غير الاسم . وقبض على فريق من المتآمرين ، وفر الاخرون خارج البلاد . فانقسمت البلاد الى قسمين : قسم « بمصر » يؤيد الملك المنصور بوصاية الملك الافضل ، وقسم « بدمشق » يؤيد الملك العادل .

ظل الافضل وعمه العادل يتحاربان ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، الى أن تغلب العادل . فدخل مصر ، وأقام على اتابكية الملك المنصور « ٥٩٦ هـ —

١١٩٩م » . ثم خلعه في السنة نفسها ،وتولى السلطنة بدلا منه . فأصبح ملك مصر والشام ، وسمي « السلطان الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب » .

اتسعت مملكة العادل ، وخوفا من وقوع الانقسام والقتال بين أولاده ، قسمها قبل وفاته بينهم على النحو التالي :

١ـ مصر ـ الى الملك الكامل ناصرالدين محمد .

٢ـ الشرق ـ الى الملك الاشرف مظفر الدين موسى .

٣ـ خلاط وميافارقين ـ الى الملك الاوحد نجم الدين ايوب .

٤ـ من العريش الى حمص ـ الى الملك المعظم شرف الدين عيسى .

وكان للملك العادل ابن اخر يدعى الملك الامجد حسن ، وقد توفي في حياة ابيه ، ودفن بالقدس فى مدفن بني على اسمه . وقد جاء في السلوك للمقريزي ص ٦٢٧ ان الملك العادل كان حميد السيره ، حسن العقيدة ، كثير السياسة ، حنكته التجارب . وكان اكثر ميولا الى المكائد والخدع منه الى الحروب ، صبورا حليما ، مهابا عظيما ، دينا ، وكان أكولا نهما ، وكان يصيف بدمشق ويشتي في مصر .

توفي الملك العادل سنة ٦١٥ هـ ـ ١٢١٨م ، وترك فى خزانته سبعمائة الف دينار ، استولى عليها ابنه الملك المعظم ،وكانت القدس من اعماله ، وكان يديرها بالنيابة عنه الامير عز الدين عمر بن يغمور المعظمي ٦١٠هـ ـ ١٢١٣م . وكان يلقب بالمتولي . ثم أدارها الامير بدر الدين الهكاري ، وتوفي على جبل الطور ، ونقلت رفاته الى القدس ودفن في مقبرة مأمن الله « ماملا » .

ذكر المؤرخون ان الملك المعظم عيسى كان يحب القدس كثيرا ، ولطالما نزلها متفقدا احوالها . حتى انه عندما التقى بالفرنج في الساحل ، وقاتلهم وانتصر عليهم ، رأى أن يبعث بالاسرى الى بيت المقدس ، فأرسلهم اليها منكسي الاعلام .

ان للملك المعظم شرف الدين عيسى آثارا جمة فى مدينة القدس ، ومنها :

١ـ الاروقة التي أمام المسجد الاقصى من الشمال والمؤلفة من سبعة اقواس . وكذلك الابواب الخشبية الواقعة عند مدخل الاقصى من الشمال التي أقامها سنة ٦٣٤هـ ـ ١٢٣٦م .

٢ـ المدرسة المعظمية : ويقال لها « الحنيفة » واقعة على طريق ستنا مزيم وللشمال منها ، مقابل الزقاق المؤدي الى باب الحرم المسمى باب العتم .

٣ــ البرج القائم في وسط القلعة ببـــاب الخليل ، بالقرب من الجامع الى القبلـــة ، ٦١٠هـ ــ ١٢١٣م .

٤ــ سبيل الشعلان ــ وهو واقع شمالي الحرم بالقرب من الرواق الذي بنـــاه الملـــك المعظـــم .

٥ــ المدرسة البدرية ــ الكائنة في وسط المدينة القديمة ، وفي الناحية الغربية من شارع « القرمي » الذي كان بين شـــارع السلسلة وشارع السرايا . وقد اندثـــرت ولم يبق منها الا بعض الاثار دمجـــت بالابنية الحديثة . وبالاضافة الى ما تقدم توجد آثار كثيره انشأها الملك المعظـــم شرف الدين عيسى في القدس وغيرها .

ولكن هذا الملك الذي عمر القدس ،وجد فيها كثيرا من الاثار ، عاد فأمـــر بتخريبها سنة ٦١٦هـ ــ ١٢١٩م خشيـــة ان يستولى عليها الافرنج ، وجاء في النجوم الزاهرة ص ٢٤٤ ما يلي :

« بلغ الملك المعظـــم ان الفرنـــج اعتزموا اخذ القدس ، فاستشار الامراء في تخريبها ، فأشاروا بتخريبها قائلين : قـــد خلا الشام من العساكر . فلو أخـــذ الفرنج القدس حكموا على الشام جميعه . وكان بالقدس اخوه العزيز عثمان وعـــز الدين ايبك استادار . فكتب اليهمـــا المعظم بخرابه . فتوقفا وقالا : نحـــن نحفظه . فكتب اليهما ثانية وقال : لـــو اخذوه لقتلوا كل من فيه ، وحكموا علـــى الشام وبلاد الاسلام . فشرعوا في خراب السور أول يوم من محرم سنة ٦١٦ هـ ــ ١٢١٩م . وخربت اسوار المدينة وأبراجها كلها . خلا برج داود ، وكان غربي البلد ، فانه ابقاه . ووقع في المدينة ضجـــة عظيمة . وخرج النســـاء والمخـــدرات والبنات والشيوخ وغيرهم الى الصخـــرة والاقصى ، فقطعوا شعورهم ومزقـــوا ثيابهم . ثم خرجوا هاربين ، وتركـــوا اموالهم ، وامتلات بهم الطرقات ، فتوجه بعضهم الى مصر . وبعضهم الى الكرك . وبعضهم الى دمشـــق » .

ونقل المعظم ما كان في القدس من اسلحة والات قتال ، فشق ذلك علـــى المسلمين ، وذموا عمله ، وقد هجـــاه القاضي محمد الدين محمد بن عبد اللـــه الحنفي ، قاضي الطور بقصيدة لاذعـــة . ومن الذين ذموه أيضا أسامة بن المنقـــذ الكنانـــي .

عندما مات الملك المعظم عيســـى سنة ٦٢٤هـ ــ ١٢٢٦م صار ملكـــه بدمشق والقدس والسواحل ، لولـــده الملك ناصر الدين داود . ولما كـــان هذا صغيرا وعاجزا عن تدبير شـــؤون الدولة ، فقد هاجمه عمه الملك الكامـــل ، واخذ منه اكثر البلاد التي كانت تابعـــة له ، ومنها نابلس والقدس ، سنة ٦٢٥هـ ــ ١٢٢٧م .

في سنة ٦٢٥هـ — ١٢٢٧م قـــدم الامبراطور فردريك ملك الفرنج الى عكا ، وكان قد استدعاه الملك الكامل قبـــل موت أخيه الملك المعظم . وبعد مفاوضات عديدة تولاها من جانب الملك الكامـــل ، الامير فخر الدين ابن شيخ الشيـــوخ ، والشريف شمس الدين الارموي قاضـــي العسكر ، وقع الاتفاق بين الملك الكامـــل وبين الامبراطور فردريك ملك الفرنـــج ينص على ما يلـــي :

١ــ ان يأخذ ملك الفرنج القـــدس ، وان يبقيها على ما هي من الخراب ، ولا يجدد ســـورها .

٢ــ آن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنـــج .

٣ــ أن يكون الحرم — بما حواه مـــن الصخرة والمسجد الاقصى ، بيد المسلمين لا يدخله الفرنج الا للزيارة فقط ، فيتـــولاه قوام من المسلمين ، ويقيمون فيه الاذان والصـــلاة .

٤ــ وان تكون القرى التي بين عكا ويافا ، وبين اللد والقدس ، بأيدي الافرنج ، دون ما عداها من قرى القـــدس .

وعقدت الهدنة بينهما مدة عشـــر سنوات وخمسة أشهر واربعين يومـــا . أولها الثامن عشر من شهر ربيـــع الاول سنة ٦٢٦هـ — ١٢٣٨م وأقسم الملكان : ملك الفرنج فردريك والملك الكامل ، على الحفاظ على ما تقرر في هذه المعاهدة .

ظل الملك الكامل يطمح في الاستيلاء على دمشق فحاصرها . وبعد قليل تمكن من الاستيلاء عليها . وعقد حلفا مع ابـــن اخيه الملك الناصر سنة ٦٢٦هـ — ١٢٢٨م فاعطى الناصر الكرك وأعمالها والسلـــط والبلقاء ونابلس وأعمال القدس وبيـــت جبريل « بيت جبرين » بدلا من دمشق . فصار للملك الكامل فضـــلا عن مصـــر ودمشق ، الشوبك والجليل وطبريا وغزة وعسقلان والرملة واللد ، وما بأيـــدي المسلمين من الساحل .

وفي سنة ٦٣٦هـ — ١٢٣٨م مـــات الملك الكامل ، وتولى الملك بعده ولـــده الصالح نجم الدين أيـــوب بن الكامـــل ، فاستولى هذا على اكثر البلاد التي كانت بيد الملك الناصر ، وفيها اعمال القدس . ولكن الملك الناصر داود ، عاد فتمكن من ابن عمه الملك الصالح ، فسجنه ، واسترد هذه البـــلاد منه .

وفيما كان ملوك بني أيوب ، خلفاء صلاح الدين يقتتلون ، كان الفرنـــج يستعدون لقتالهم . وقد أشاد الفرنج في القدس قلعة ، وجعلوا برج داود احـــد ابراجها ، كان قد ترك لما دمر الملـــك المعظم أسوار القدس . فلما بلغ الناصر

داود بناء هذه القلعة ، سار الى القدس ، وظل يرميها بالمنجنيق ، حتى أخذها بعد واحد وعشرين يوما ، فى ٩ جمادى الاولى ٦٣٧هـ — ١٢٣٩م ، أخذها عنوة ممن معه من عسكر مصر . وقد تحصن الفرنج في قلعة داود الى الخامس عشر من جمادى الاولى ، فعقد صلحا بينه وبين الفرنج آمنهم على انفسهم دون أموالهم . هدم الناصر برج داود واستولى على القدس بأجمعها ، وأخرج منها الافرنج فساروا الى بلادهم .

وفي نفس السنة ٦٣٧هـ — ١٢٣٩م افرج الملك داود عن الملك الصالح نجم الدين ، وسارا معا الى القدس ، على أن يقسم كل منهما على الصخرة المقدسة ، بأن يخلص كل منهما للاخر . ولكنهما بعد حين عادا فاختلفا ، وراح الناصر داود « صاحب الكرك » يتفق مع الصالح اسماعيل « صاحب دمشق » لمحاربة الملك الصالح نجم الدين . ولكي ينجحا في محاربتهما له ، وافقا الفرنج بتسليم القدس ، على أن يكونوا عونا لهما على الملك الصالح نجم الدين . وسلماهم بالفعل طبريا وعسقلان ، فأشاد الفرنج قلعتيهما وحصونهما .

الخوارزمية

غادر الملك نجم الدين أيوب القاهرة واستدعى الخوارزمية الى ديار مصر لمحاربة أهل الشام . فقطع هؤلاء الفرات في طريقهم الى الشام ، سنة ٦٤٣ هـ — ١٢٤٤ م . وهم زيادة على عشرة الاف فارس ، وانضموا الى العساكر المصرية .

والخوارزمية ينتسبون الى بلاد خوارزم شرقي بحر قزوين ، وهم تتر ، وعندما هاجمهم المغول وابادوا حكومتهم ، هاموا فى البلاد يقتلون وينهبون . وظل جنكيز خان يطاردهم ، وهم ينهزمون من أمامه حتى وصلوا العراق . فسمع بهم الملك الصالح أيوب ، واستدعاهم لمحاربة الفرنج وبني عمه . فاتفقوا معه على شريطة أن تعطى لهم الاقطاعات ويسكنون البلدان .

وهجموا على القدس وعلى رأسهم مقاومهم الامير حسام الدين بركة خان ، وخان بردى وصاروخان ، وكشلوخان . وقاتلوا الفرنج وعساكر الشام ، فاحتلوا القدس . وكان الجيش الذي زحف على القدس بقيادة ركن الدين بيبرس ، فاعمل السيف في سبعة الاف من سكانها من النصارى حتى افنوا الرجال ، وسبوا النساء والاولاد . وهدموا المباني التي في كنيسة القيامة ، ونبشوا قبور النصارى ، وأحرقوا ما أحرقوا .

ومن القدس ساروا الى غزة فنزلوها ، فأرسل اليهم الملك الصالح نجم الدين أيوب يأمرهم بالاقامة في غزة ، ووعدهم ببلاد الشام . وفي غزة التقى

الجمعان ، عسكر دمشق ومعهم الفرنج ، وعسكر مصر ومعهم الخوارزمية . فكن النصر حليف الخوارزمية وعسكر مصر . وقتل من الفرنج وأهل الشام ما يربو على الثلاثين الفا . وكانت هذه المعركة في سنة ٦٤٣هـ — ١٢٤٥م . وعادت القدس من أملاك الملك الصالح نجم الدين ، ثم استولى لاحقا على الخليل وغزة والسواحل .

زار الملك الصالح نجم الدين القدس سنة ٦٤٤هـ — ١٢٤٦م . فتصدق على فقرائها بألفي دينار . وأمر بذرع سورها ، فجاء بستة الاف ذراع بالهاشمي ، فأمر والي القدس بعمارة السور ، وان احتاج الى زيادة في المال يرسل اليه من مصر .

يفيد المؤرخون ان الخوارزميين لم يبقوا على حال ، لقد حالفوا الملك الصالح أيوب أولا ، وأعانوه على فتح القدس . ثم قلبوا له ظهر المجن ، وراحوا يؤيدون الناصر داود صاحب الكرك ، والصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وذلك لان الملك الصالح أيوب لم يف لهم بوعده ، ولم يعطهم الشام . ومهما يكن من أمر الخوارزميين ، فان الامير حسام الدين اشترك معهم في جميع المعارك التي خاضوا غمارها ، وظل يحارب حتى قتل في معركة حمص . فنقل رأسه الى حلب وجسده الى القدس . وكانت وفاته يوم الجمعة ١ محرم ٦٤٤هـ — ١٩ أيار ١٢٤٦م .

ان انهزام الصليبيين في موقعه غزة سنة ٦٤٢هـ — ١٢٤٤م واستيلاء المسلمين على القدس ، أثار غضب الصليبيين ، وفزع ملوك أوروبا كلهم . فرتبوا الحملة الصليبية السابعة . فوصلت هذه الحملة الى جزيرة قبرص ٦٤٦هـ — ١٢٤٨م . وبعد انقضاء فصل الشتاء نزلوا في سواحل فلسطين . وكان على رأسهم ريدا فرنس الملقب « لويس التاسع » ، وكان هذا من أعظم ملوك الفرنجة واشدهم بأسا . وكانت الغاية من هذه الحملة اعادة احتلال بيت المقدس مرة ثانية .

عندما نزلت الحملة الصليبية السابعة على شواطىء فلسطين ، ارسل قائدها وزعيمها لويس التاسع كتابا فى سنة ٦٤٧هـ — ١٢٤٩م ، الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب طالبا منه تسليم القدس له ، ويهدده بشر المعارك ، فلما وصل الكتاب الى السلطان وقرىء عليه ، رد عليه بكتاب أشد منه وتحديا .

دارت المعارك بين الفريقين في مصر ، وفي هذه الاثناء مات الملك الصالح نجم الدين غياث الدين نورانشاه . ولكن هذا الملك لم يحسن الادارة . فأهمل الامراء والاكابر وأبعد غلمان ابيه وقدم عليهم الاراذل . وأساء الى المماليك وتوعدهم ، وانهمك في الفساد ، فنفرت منه قلوب المماليك البحرية ، فتآمروا عليه وقتلوه في سنة ٦٤٨هـ — ١٢٥٠م . وبمقتله انقرضت دولة بني أيوب فى مصر .

عهـــد المماليـــك

لما قتل الملك المعظم غياث الديـن نورانشاه ، اجتمع امراء المماليك علـى اثر ذلك الحادث ، واتفقوا على اقامـة « شجرة الدر » ملكة على مملكة مصـر ، فأصبحت هذه سيدة البلاد والامرة الناهية فيها . واقاموا « الامير عز الدين آيبك » التركماني قائدا عاما لجيشها .

وشجرة الدر هذه هي في الاصـل جارية تركية ، وعلى قول بعض المؤرخين انها ارمنية ، اشتراها الملك الصالـح نجم الدين أيوب ، فنالت عنده الحظـوة الكبرى ، فسماها عصمت الدين ، ولقبت بام خليل وشجرة الدر . انها وان كانـت تتمتع بهذه المكانة الممتازة في قصر الملـك الصالح ، الا انها ما كانت لتحلم انهـا ستصبح الامرة الناهية في البلاد ، لـولا مقتل الملك توانشا . وبعد مدة قصـيرة من آختيارها أمرة البلاد ، تزوجت قائـد جيشها الامير عز الدين ايبك . وتنازلـت له عن الملك ، فأصبح ملكا ودعي باسـم « الملك المعز عز الدين ايبك الجاشنكـير التركماني » . ولكن هذه الامور لم ترضـى الشام ولا بغداد . . وقد استنكرها الخليفة العباسي المعتصم باللـه .

أسس ايبك العائلة المملوكية الاولى سنة ٦٤٨هـ — ١٢٥٠م . وعرف بلقـب المعـز . واختلف مع الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن غازي بن السلطـان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ملك دمشق وكان الخلاف يحوم حول سوريا . فـراح الفريقان يقتتلان : مماليك مصر من ناحية والامراء الايوبيون في دمشق من الناحيـة الاخرى . وبقيت الحرب سجالا بينهما الى ان اصطلحا فى سنة ٦٥١هـ — ١٢٥٣م . وكان الاتفاق أن يكون للمصريين بلاد مصر والاردن ، وللناصـر ما وراء ذلـك ، وان يدخل في حكم المصريين ، غزة والقـدس ونابلس والساحل كلـه .

بعد مقتل الملك المعز ايبك ، تولـى الملك ابنه المنصور علي بن ايبك التركماني سنة ٦٥٥هـ — ١٢٥٧م . وكان هذا صغير السن وضعيفا ، فاستغل رجال الشـام ضعفه ، فخرجوا في حـروب جديـدة . فاحتلوا القدس وساروا الى غزة ومصر ، وفي مصر وقعت الحـرب بين الفريقين في منطقة الصالحية ، فكان النصر حليـف المصرييـن .

لما هزم جيش الشام آرتد راجعـا من حيث اتى ، اعتقد المماليك ان خصومهم ما كانوا ليجرأوا على التحرش بهم ، رغم الاتفاق السابق ، لولا ضعف ملكهـم .

فخلعوه في سنة ٦٥٧هـ — ١٢٥٩م ،واقاموا مكانه الامير سيف الدين قطز المعزي ، وهو أحد مماليك المعز ايبك ،ولقبوه بالملك المظفر ، وقد عرف هذا بالشدة والصرامة والاقدام .

وبعد عام قتل الملك المظفر على يدقائد جيشه بيبرس . وقيل ان السبب في ذلك هو ان الملك وعده بولاية حلب تم استرد وعده ، فاضمر له الشر . فقتله وتولى الملك بعده في ١٩ ذي القعدة ٦٥٨هـ — ١٢٦٠م . ولقب بالملك الظاهر بيبرس . وهو تركي الاصل اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ورقي في مناصب الدولة حتى أصبح ملكا .

كان أول عمل قام به الملك الظاهر بيبرس بعد ان تولى الملك . الغاء جميع الضرائب التي أحدثها سلفه ،وتعمير البلاد التي دخلت تحت حوزته . وقد حكم فلسطين حكما عادلا ، وطارد من بقي فيها حتى ذلك الحين من الصليبيين . وقاوم جيوش التتار ، وصدهم عن فلسطين واهتم بالاماكن المقدسة وعمرها . وكانت زيارته الى بيت المقدس يوم الجمعة ١٧ جمادى الاخرة سنة ٦٦١ هـ — ١٢٦٢م ، ونادى في القدس الا ينزل احد في زرع ، وكل من خالف كان يسجن .

ولقد زار الملك الظاهر بيبرس القدس مرة ثانية في شعبان من سنة ٦٦٤هـ — ١٢٦٥م . وقد اقام عدة تعميرات في القدس في زيارته هذه . ومن صفات الظاهر أنه كان يشجع العلم ، ويكرم العلماء ، فكانت القدس في عهده مأوى العلماء .

مات الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ — ١٢٧٧م ، بعد أن ملك مصر والشام سبع عشرة سنة . كان يحب القدس كثيرا ، وقد نزلها . وكان عدد عسكره اثني عشر الفا انتقاهم من اشجع الرجال وأمهرهم في القتال ، وزع ثلثهم بدمشق وثلثهم في حلب . وقد كان هذا الملك كثير السفر ، خفيف الحركة ، لا تفوته كبيرة ولا صغيرة من أمور رعيته وبابه مفتوح لكل شكوى .

تولى الملك ، بعد الملك الظاهر ،ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد سنة ٦٧٦هـ — ١٢٧٧م ، ثم ابنه الثاني الملك العادل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٦هـ — ١٢٧٩م . ولم يذكر التاريخ انهما قاما بعمل يذكر في القدس . وقد ترك الملك كلاهما خلفا ، فتولاه من بعدهما الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٩هـ — ١٢٨٠م وكان يلقب بالصالحي الالفي .

في يوم الخميس ، الخامس من شهر ربيع الاول من سنة ٦٨٣هـ — ٣ يوليو (تموز) ١٢٨٣م ، قامت هدنة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين

الفرنج بعك . وكانت عكا وعتليت في ذلك الحين ، من بقايا المملكة اللاتينية في القدس وملكها فى تلك السنة شارلس أوف انجو Charles of Anjou وكانت مدة تلك الهدنة : عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات . على أن يكون للسلطان الملك المنصور وولده البلاد التالية :

« مملكة الديار المصرية ، والبلاد الحجازية ، وثغر غزة المحروس وما معها من الموانىء والبلاد ، والمملكة الكركية « نسبة الى الكرك » والشوبكية والسلط وبصرى ، ومملكة القدس الشريف ، وعسقلان وأعمالها وموانيها وسواحلها . ومملكة يافا والرملة وقيصرية وبيت جبريل « بيت جبرين » ومملكة نابلس واعمالها ، ومملكة اللطرون واعمالها ، وأرسوف ، وقاقون واللد والعوجا وما معها من الملاحة ، وبيسان والطور واللجون واعمالها ، وجنين وعين جالوت ، والمملكة الصفدية ، والنصف لملكة عكا ، والمملكة الدمشقية ، ومملكة حمص ومملكة حماة ، والمملكة الحلبية . وأما القسم الباقي من البلاد ، فاما أن يكون قد ترك للفرنج كله ، أو تقاسمه الفرنج مع السلطان » .

بعد وفاة الملك المنصور قلاوون تولى الملك ابنه السلطان الملك الاشرف صلاح الدين خليل ، سنة ٦٨٩هـ — ١٢٩٠م ثم ابنه الثاني السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، سنة ٦٩٣هـ — ١٢٩٤م ثم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير ، سنة ٦٩٦هـ — ١٢٩٦م . وبعد مقتل الملك المنصور لاجين ، تولى الملك للمرة الثانية ، الملك الناصر محمد بن قلاوون ، سنة ٦٩٨هـ — ١٢٩٨م ، ثم تسلط الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكيري المنصوري ، سنة ٧٠٨هـ — ١٣٠٨م . ثم عاد الملك الناصر بن قلاوون للمرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ — ١٣٠٩م . ودامت سلطته في هذه المرة حتى سنة ٧٤١هـ — ١٣٤١م .

لم يخل عهد الملك الناصر ، على ما وصل اليه من عز ، من فتن داخلية ، ذكرتها كتب التاريخ . وفى عهده تقويت شوكة التتر ، واخذ قائدهم « غازان » يعيث في البلاد فسادا ، وراح جنوده في القدس وفي الكرك وغيرها ينهبون ويعتدون على الاعراض ، وحتى الاماكن المقدسة لم تسلم من اذاهم .

بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، تسلط بعده ثمانية من اولاده خلال عشرين سنة من ٧٤١هـ — ٧٦٢ هـ ١٣٤١م — ١٣٦١م . فلم يأت واحد من هؤلاء باي عمل يذكر ، لا في القدس ولا فى غيرها من البلدان . اذ ما كان الواحد منهم ليتولى الملك ، حتى يقدم اخوه عليه او احد اقاربه ، فيقتله أو يقيله او ينفيه ، وينتزع السلطة من يده .

كذلك الحال في عهد المماليك الذين تسلطنوا بعدهم من سنة ٧٦٢هـ — ١٣٦٠م حتى سنة ٧٨٣هـ — ١٣٨١م وكان الملك الصالح حاجي بن شعبان هو اخر من حكم دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية والتركمانية .

دولـــة المماليـــك الثانيـــة

ان مؤسس دولة المماليك الثانيـة « ويسمونهم المماليــــك الابـــراج او الشراكسـة » ، وهو الملك الظاهر برقوق ، بعد أن قضى هذا على دولة المماليـــك الاولى « البحرية » . والشراكسة كانـت منازلهم في سيبيرية حول بحيرة « بايقال » فهجروها . واستوطنوا بلاد القفقاس اولا وبلاد الشركس . ثم استقدمهم الملـــوك . واكثر من استخدمهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية ، فتقووا عليهم وقضوا على سلطانهـــم .

تولى الملك الظاهر برقوق الحكم في سنة ٧٨٤هـ ـــ ١٣٨٢م ، فأقره الخليفـة المتوكل على الله . ودام فى دست الحكم سبعة عشر عاما ، تمكن خلالها من ايقاف قائد التتر المشهور تيمورلنك عند حده . وتسلـم بعـــــده خلفائه من سنـــــة ٨٠١هـ ـــ ٨٢٥هـ / ١٣٩٨م ـــ ١٤٢٢م . وفي عهدهم لم يقع شيء يذكر بالنسبـــة للقدس وما حولهـــا .

اما الملك آشرف برسبلي ، الـــذي بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالـــح محمد سنة ٨٢٥هـ ـــ ١٤٢٢م ، فقد دام على سرير الملك ستة عشر عاما ، قـــام خلالها بانشاءات عديـدة في القـــدس . وخلفه الملك العزيز يوسف بن برسبـــاي سنة ٨٤١هـ ـــ ١٤٣٧م ، ثم خلفــــــه الملك الظاهر جقمق سنة ٨٤٢هـ ـــ ١٤٣٨م وقد ذكر عنه الانســ الجليل ، الحـــادث التالـــي :

« آرسل الى القدس ، يطلب مـــن الشيخ محمد المشمر أحد جماعة الشيخ شهاب الدين بن ارسلان خاسكيا اسمه « أينال باي » ، وزوده بأمر ملكى لكـــي يكشف على الديورة « ويعني بهذه الكلمة الاديـــرة جمـــع ديـــر » ، فهــــــدم ما استجد بدير صهيون وغيره . وانتزع قبر داود من أيدي النصارى ، ونبشـــت عظام الرهبان المدفونين بالقرب من النبي داود . وكان ذلك في يوم الاثنين الموافـــق ١٢ جمادى الاخرة سنة ٨٥٦هـ ـــ ١٤٥٠م وفي تلك السنة وقع البطش فى النصارى ، واخرج المسجد من دير السريان ، وسلـم للشيخ محمد المشمر ، وصـــار زاويـــة . وهدم البناء المستجد في بيت لحم ، وقلـــع الدرابزين المستجد بالقمامة ، وأخـــــذ الى المسجد الاقصى بالتهليل والتكبيـر ، وهدم كل ما استجد من بناء في أديــــرة النصـــــارى » .

تولى بعد الملك الظاهر جقمق الملوك الاتية اسماؤهـــم : ـــ

١ ـــ ابنه الملك المنصور عثمان سنـــــة ٨٥٧هـ ـــ ١٤٥٣م .

٢ ـــ الملك اشرف اينال سنة ٨٥٧هـ ـــ ١٤٥٣م .

٣ـ الملك المؤيد احمد بن اينيل سنة ٨٦٥هـ ـ ١٤٦٠م .

٤ـ الملك الظاهر خومشقدم سنة ٨٦٥هـ ـ ١٤٦٠م . وعلى عهد هذا الملك بدىء بتعمير « قناة السبيل » التي تصل ماء العروب الى القدس في سنة ٨٦٧هـ ـ ١٤٦٢م ، وليكنه مات قبل ان يتم تعميرها . وأمر بابطال المظالم في القدس ، ونقش بذلك رخامتين الصقتا على حائط المسجد الاقصى من جهة الغرب

٥ـ الملك الظاهر يلباي ، سنة ٨٧٢هـ ـ ١٤٦٧م ، فأراد هذا ان يتم مشروع مد قناة ماء عين العروب ، الذي بدأ به الملك الظاهر خوشقدم ، لكنه لم ينجح .

٦ـ الملك الظاهر تمريغا ، سنة ٨٧٢هـ ـ ١٤٦٧م ، فأراد أن يتم مشروع قناة العروب ايضا ، ولكنه ما لبث أن عزل .

٧ـ السلطان الملك الاشرف قايتباي سنة ٨٧٢هـ ـ ١٤٦٧م ، ودام في الملك قرابة ثلاثين عاما . وكان هذا من مماليك الاشرف برسباي ، ثم انتقل الى خدمة الملك الظاهر جقمق فاعتقه ، « أي اصبح حرا وليس عبدا بعد » . وقد بويع له بالسلطنة بحضرة امير المؤمنين المستنجد بالله ابي المظفر يوسف بن محمد العباسي ، ولقب بالملك الإشرف بسيف الدين ابو النصر قايتباي بن عبد الله الظاهري . وكان يلقب بخادم الحرمين الشريفين ، المسجد الاقصى بالقدس والمسجد الابراهيمي في الخليل ، كان يحب القدس كثيرا ، وله فيها أصدقاء ، ذلك انه قضى فيها قبل أن يتولى السلطنة ، زهاء خمسة اعوام ، قضاها منفيا مغضوبا عليه من السلطان ، حيث كانت القدس في ذلك الحين منفى لكل من غضب عليه سلطان أو ملك . وكان رفيقه في النفي الامير يشبك الفقيه . وقد حظر عليه يومئذ ركوب الخيل ، والاختلاط بالمسلمين .

زار السلطان قايتباي القدس في يوم الاثنين « ١٧ رجب سنة ٨٨٠ هـ ـ ١٤٧٥م . فشكا اليه اهل القدس ما يلاقون من ظلم وجور من نائبه فيها ، الامير جارقطلي الظاهري ، فانصفهم وأمر بأن يرد اليهم كل ما أخذوه منهم ، سواء عن طريق الرشوة او غير ذلك . كذلك شكوا اليه أيضا من القاضي غرس الدين خليل ، فنفاه من القدس .

وفي سنة ٨٨١هـ ـ ١٤٧٦م ، امر السلطان بالقبض على الرهبان المقيمين في أديرة صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة ، فأرسلوا الى مصر ، وأمروا بالاقامة الجبرية فيها ، ذلك ان الافرنج اسروا أربعة أشخاص من مسلمي الاسكندرية ، وأخذوهم الى بلادهم .

لم يكن الوضع الدولي افضل من الوضع الداخلي في تلك الايام . فقد حدثنا التاريخ ان صلات المماليك بالحكومات المجاورة كانت عند مطلع القرن

العاشر للهجرة سيئة للغاية . ولا سيما صلتهم مع الاتراك العثمانيين . فقد بدأ الخلاف بين الدولتين في سنة ٨٨٩هـ ــ ١٤٨٤م . فراحت كل واحدة منهما تحشد جيشها على حدودها ، لقتال جارتها : هنا السلطان الملك الاشرف قايتباي ، وهناك السلطان بايزيد خان . وكان المقدم على عسكر السلطان قايتباي ، أمير السلاح الامير تموراز . وقد انضم اليه امير جانم .

لم تجر أية مناوشة بين الفريقين لا في تلك السنة ، ولا في السنين الاربع التي تلتها . حتى اذا ما حلت سنة ٨٩٣هـ ــ ١٤٨٧م ، ورأى السلطان قايتباي أن الاحوال توترت ، اعتزم الدخول في حرب مع الاتراك فبعث الرسل وبذل الاموال الوفيرة لاقناع الناس ، ولكن اذ لم يتطوع من سكان البلاد سوى عدد ضئيل . حتى انه قرر أن يسترجع من الناس ما انفقه في هذا السبيل . واستعمل من اجل ذلك منتهى الشدة والصرامة .

وفي سنة ٨٩٥هـ ــ ١٤٨٩م اشتدت الازمة بين البلدين ، حتى أضطر السلطان قايتباي أن يصدر أمره لقادة جيشه أن يكونوا على أهبة الهجوم . ولكن الامور هدأت والمياه عادت الى مجاريها في سنة ٨٩٦هـ ــ ١٤٩٠م . واصطلح الفريقان .

عاش الملك قايتباي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات . ولما توفي في سنة ٩٠١هـ ــ ١٤٩٥م ، سادت الفوضى البلاد ، ودامت خمس سنوات . فلا يكاد يعتلي العرش ملك ، حتى يثور ضده مماليكه واعوانه ، ليخلعوه او يقتلوه .

وكان اخر ملوك دولة المماليك الثانية الملك الاشرف قنسوه الغوري « قنسوه الرابع » الملقب بالغوري استلم السلطة ، سنة ٩٠٦هـ ــ ١٥٠٠م ، ودامت سلطنته ١٥ عاما ويزيد . الا انه اقترف خطأ بأن رحب بـ « قورقود » . شقيق السلطان سليم بن يزيد سلطان بني عثمان في تركيا . وكان هذا الشقيق قد اختلف مع أخيه السلطان سليم من أجل الملك ، ففر منه والتجأ الى مصر ، على الطريقة التي نسميها في وقتنا الحاضر « باللجوء السياسي لبلد ما » لم يكتف قنسوه الغوري بالترحيب « بقورقورد » ، بل جهزه بعشرين بارجة بحرية ، لافتتاح القسطنطينية . هذا الامر اغضب السلطان سليم ، وجعله يفكر في افتتاح مصر لينتقم من أخيه ومن السلطان قنسوه . فجهز حملته في سنة ٩٣٢هـ ــ ١٥١٦م . فسار الى مصر . وكانت أول معركة في برج دابق قرب حلب هزم فيها المماليك وقتل سلطانهم قنسوه الغوري .

عندما وصلت هذه الانباء الى مصر ، بايع المماليك الامير طومان باي بالملك ، ولقبوه بالملك الاشرف . وحاول هذا الملك أن ينقذ البلاد من غزوة الاتراك

العثمانيين ، الا انه فشل فاحتل هــؤلاء مصر ، بقيادة السلطان سليم الاول سنة ٩٢٣هـ ــ ١٥١٧م ، فوقع الملك طومان باي في يد السلطان سليم وشنقه في مصـــر . وبذلك أنتهت دولة المماليك الشراكســــة او البرجية ، وحلت مكانها دولة الاتـــراك العثمانيــــين .

وهكذا انسعت دولـــة الاتـــــراك العثمانيين وشملت سوريا ولبنان وفلسطين ومصر منذ تلك السنة . واستمرت الدولة العثمانية في توسع وأصبحت صاحبــــة الخلافة للمسلمين ، وآستمرت في تلـــك البلاد لمدة أربعة قرون ، حتى نهايـــة الحرب العالمية الاولى ســـنة ١٩١٨م .

وعليه سيكون بداية الجزء الثاني مــــن كتابنا هذا عن العهد العثماني بسيئاتـــه وحسناته وانعكاساته على وطننا .

مصـــادر الكتـــاب

اهـــم المصـــادر العربيـــة

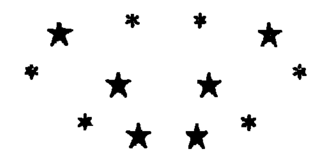
١ ــ التوراة ــ العهدان القديم والجديد

٢ ــ كتاب تاريخ الكنيسة الارثوذكسية
تأليف خليـل ابراهيم قزاقيـا
طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنـة ١٩٢٤ م .

٣ ــ كتاب المفصل في تاريخ القدس ــ الجـزء الاول
تأليـف عـارف العـارف
مطبعة المعارف ــ القدس ــ سنة ١٩٦١ م .

٤ ــ كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي
تأليف الدكتور احمد مختار العبادي
استاذ التاريخ الاسلامي بجامعتـي الاسكندرية وبيروت العربية
مطبعة النهضة ــ بيروت ــ سنة ١٩٧١

٥ ــ كتاب الى جبل الرب ... الى جبل سينـاء ...
تأليف الاب الفرنسيسكاني ــ جبرائيـل بريـر
طبع بمطبعة الاباء الفرنسيسكان ــ القـدس ــ سنة ١٩٧٥



اهـم المصـادر الانكليزيـة :

1 — Structual Survey of the Holy - Land Church of Nativity Bethlehem
1935 — University Press
London - Hamphecy - Milford .

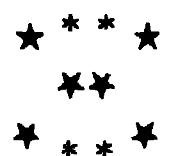
2 — Costodia Di Terra Santa
Francescan Press — Jerusalem - 1951 .

3 — The Francescan in Bethlehem
1347 — 1947
Francescan Press — Jerusalem — 1947

4 — Bethlehem
By Maria Teresa Peltrouzi
Francescan Press — Jerusalem — 1971

5 — Chronological Work Through Bethlehem .
Francescan Press — Jerusalem — 1981

6 — Custody of the Hody - land
Francescan Press — Jerusalem — 1981



بيـــان مواضيـع الجـزء الثانـي مـن هـذا الكتـاب

يحتوي الجزء الثاني من كتابنا هذا على تفصيلات واسعة واخبار لم تنشـر قط في اللغة العربية ، ومعظمها ينشر لاول مرة ، عن المواضيع التالية :

١ ـ تاريخ الاباء الفرنسيسكان في فلسطين من سنة ١٣٤٢م حتى يومنا هذا، وما لحقهم من اضطهاد ومضايقات في عهد المماليك وسلاطين بني عثمان . وقـد جاء ذكر هؤلاء الاباء في فرمانات السلاطين باسم (رهبان الحبل) ، وما اسسوه من دور لنزول الحجاج ، فكانت نواة فنادق السياحة في بلادنا ، بالاضافة الى العيادات لمعالجة المرضى والمدارس والميانم .

٢ ـ تاريخ الاباء الفرنسيسكان في بيت لحم من سنة ١٣٤٧ م حتى يومنـا هذا ، وما اسسوه فيها للاولاد والبنات ، وفي طليعتها مدرسة الاولاد التي كانـت تعلم العربية واللغتين الايطالية والفرنسية في وقت كانت الامية منتشرة في سائـر الشرق . وكيف تطورت تلك المدرسـة الابتدائية حتى اصبحت حاليا ما يعـرف باسم كلية نراسنطة . هذا بالاضافة الى بعض العيادات الطبية المجانية . ومـا ادخلوه الى البلاد من صناعة الصـدف وخشب الزيتون وغيرها التي نراهـا مزدهرة في يومنا هذا في بلادنا .

٣ ـ عهد سلاطين بني عثمان في بلادنا من سنة ١٥١٧ ـ ١٩١٨ م ، وما جرى في عهد كل منهم في بلادنا ، وكيف كانت تدار البلاد من قبل الحكام الاتراك ومظالمهم للشعب واغتصابهم ونهبهـم لخيرات بلادنا واقوات الناس .

٤ ـ عهد نابليون بونابرت فـي بلادنا او حصاره الى عكا وارتداده عنها. ولماذا لم يحتل القدس كما توقعت ذلـك تركيـا .

٥ ـ عهد نابليون الشرق ، ابراهيم باشا ، من سنة ١٨٣١ ـ ١٨٤١ ، ابن محمد علي باشا والي مصر . ذلك القائد المحارب الذي قاد جنودا لا يقيمون للموت وزنا ، ولا يقف في طريقهم اشجع الجنود ولا القلاع والحصون . فهزم الجيوشـ التركية ودحرهم من فلسطين والشـام وطاردهم حتى حدود بلادهم « الاناضول» فعبرها وراح يحتل مدنهم الواحدة تلـو الاخرى واسر قائد الجيش التركي المدعو سعيـد باشـا .

هذا الاكتساح الذي حققه ابراهيم باشا ، ازعج كافة دول اوروبا وعلـى

راسهم انكلترا تلك الدولة التي كان يلقب كل ملك او ملكة جلس على عرشها ، بلقب ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند، والبلاد التي لا تغيب الشمس عن مستعمراتها . فكانت مستعمرات بريطانيا العظمى ، تشمل القارة الهندية باكملها واستراليا وكندا وغيرها من المستعمرات في افريقيا . وقد تقلصت هذه الامبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية الى ما هي عليه اليوم ، واصبح ارتباطها بمستعمراتها ارتباطا اسميا ، يسمى برابطة الشعوب البريطانية .

وقد وقفت انكلترا علنا وبكل قوانها واساطيلها الى جانب تركيا في نضالها ضد محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا، لانها كانت تخشى توسع سلطانهم وامتداده الى العراق وبلاد العرب الاخرى وبلاد فارس ، فيهدد المستعمرات والمصالح البريطانية . فعملت انكلترا جاهزة حتى استمالت بروسيا (المانيا) والنمسا الى جانبيها . وكانت كل من هاتين الدولتين في ذلك الزمان ، دولة عظمى لها وزنها الكبير على الصعيد الدولي . ثم انضمت الى هذا التحالف دولة فرنسا ، فارسل الجميع انذارا مشتركا الى ابراهيم باشا لاخلاء سوريا وفينيقية « لبنان » وفلسطين وارجاعها الى السلطان العثماني ،فرجعت بلادنا تحت حكم الاتراك، وتعرض الاهالي لشتى صنوف الاضطهاد والظلم حتى نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩١٨.

حاول ابراهيم باشا ، في باديء الامر، الا يكترث الى هذا التهديد ، لكنه بعد انعام النظر من كل الجوانب ، راى انه لا فائدة ترجى من مقاومته هذه الدول الكبرى مجتمعة ، وخصوصا ان هذه القوى التي تالبت ضده من البر والبحر كبيرة جدا ، والبلاد التي تخضع لحكمه واسعة وممتدة الاطراف ، ولها من السواحل البحرية امتداد طويل جدا ،يصعب الدفاع عنها امام هذه الاساطيل الضخمة . واخيرا تم الصلح بين محمدعلي باشا والي مصر والدولة العثمانية في ٢٥نيسان سنة ١٨٣٢م. على ان تكون البلاد الواقعة من مدينة اطنة على حدود الاناضول وجنوبا حتى حدود ولاية غزة ، تابعا ولاية مصر . وبهذا دخلت فلسطين تحت حكم البيت العلوي حتى سنة ١٨٤١ م .

ثم تقرأ جولات واسعة عن اعمال ابراهيم باشا في بلادنا والثورات التي قامت ضده بتحريض من الخارج من جهة ، ومن رؤساء العائلات الاقطاعية والعشائر من الداخل ، الذين تقلص نفوذهم وسيطرتهم على الناس بموجب قوانين المساواة التي سنها ابراهيم باشا في فلسطين . واخيرا كيف اضطر ابراهيم باشا للانسحاب الى مصر في عام ١٨٤١ م.

٦ ــ الارساليات الاجنبية في بلادنا مع فصل عن كل منها :

الارسالية الانجليزية ، الالمانية ، البروسية ومنشاتها من مدارس وملاجيء ايتام وغيرها .

٧ — تاريخ تأسيس القنصليات الاجنبية فى القدس : القنصلية البريطانية والقنصلية الفرنسية والقنصلية النمساوية والقنصلية الامريكية ، والقنصلية الالمانية.

٨ — دير ابينا انطون ، ابي اليتامى في بيت لحم :—

هو الاب انطون بلوني الذي قدم الى القدس في سنة ١٨٥٩ م ، فانضم الى سلك كهنة البطريركية اللاتينية في القدس ، وعين لتدريس الكتاب المقدس وعلم اللاهوت ، فى المدرسة الاكليريكية في بيت جالا وكان عمره ٢٨ سنة . وتوفي ودفن فى بيت لحم في ٩—٨—١٩٠٣ ، عن عمر يناهز ٧٢ عاما ، تضى منها ٤٦ عاما كاهنا ، و ٤٤ سنة مقيما في فلسطين .

لما شاهد حالة الفقر والبؤس والجهل الذي يعم الناس في بلادنا . فكر في العناية ببعض الايتام ، واتسع به الامر حتى تضاعف عدد ايتامه خلال سنوات قليلة . فجال اوروبا وامريكا طلبا للاحسان واشاد الميتم المعروف باسمه في بيت لحم . واتسع هذا الميتم مع مرور السنين حتى صار يضم اول مدرسة صناعية فى الشرق بالاضافة الى فرقة موسيقية وفرقة تمثيل كانت هي ايضا الاولى من نوعها في الشرق . واشترى اراضي واسعة في بيت جمال وبنى فيه دير بيت الجمال واصبحت او مدرسة زراعية في الشرق .

وفي سنة ١٩٠٣ لما انتقل الى رحمته تعالى كان قد اسس ديره الحالي فى بيت لحم على مساحة ارض تساوي نصف مساحة مدينة بيت لحم في ذلك الحين . بالاضافة الى دير كريمزان في بيت جالا ومصنع النبيذ المشهور حتى يومنا هذا منذ سنة ١٨٨٢ م . ودير بيت الجمال ومدرسته الزراعية الشهيرة . ومدرسته الصناعية في بيت لحم التي استمرت في تطور حتى اصبحت في يومنا هذا من ارقى واشهر مدارس الصناعة لتعليم الكهرباء والخراطة والحدادة والنجارة وغيرها . فاخرجت هذه المدرسة خير المهنيين في عهد حكومة الانتداب على فلسطين ، بالاضافة الى افواج متعددة من المهنيين تخرجوا خلال الثلاثين سنة الماضية ، اشغلوا ادق المراكز المهنية فى شركات البترول والمشاريع الاخرى في سائر اقطار الخليج العربي والبلاد العربية .

ان تاريخ هذا الاب الفاضل منذ قدومه الى فلسطين حتى وفاته ، قطعة كاملة لتاريخ بيت لحم وحالة اهلنا في النصف الاخير من القرن الماضي . وقد توفرت لدينا الكثير من هذه الاخبار المهمة. اشغلت عشرات الصفحات من الجزء الثاني من كتابنا هذا .

وكذلك اسس اول النوادي للعمال والطلاب في بيت لحم ،واول الملاعب العامة لتسلية الشبيبة ، التي خرجت طليعة الرياضيين في بلادنا . وكان لنشوب

الحرب العالمية الاولى السبب المباشر لهجرة هذه النخبة الفاخرة من شبابنا الى الديار الامريكية .

٩ — تاريخ دير الكرمل في بيت لحم — ومؤسسته الراهبة العربية الفلسطينية الامية ، مريم جورج البواردي ابنة قرية عبلين ، قضاء عكا . تلك الاعجوبة التي فاقت كل اسطورة ، فرسمها البابا بعد انقضاء مائة عام على وفاتها في بيت لحم ، قديسة بتاريخ ١٣—١١—١٩٨٤م . اقتطفت تاريخ حياتها عن كتاب بالافرنسية مؤلفه مرشدها الروحي الاب بوزي . فشمل ذلك الكتاب أدق اسرار حياة تلك المتعبدة البارة .

١٠ — تاريخ كنيسة الروم الكاثوليك في بيت لحم ، تلك الكنيسة التي كان مصدرها خلاف بين عائلة من طائفة الروم الارثوذكس في بيت لحم مع البطريرك في القدس عندما وعد بأن يكون المختار منهم ، ثم جاء التعيين لمختار من عائلة ثانية .

١١ — فصل عن كنيسة السريان الارثوذكس وكنيسة السريان الكاثوليك في بيت لحم .

١٢ — المستشفى الافرنسي في بيت لحم او مستشفى راهبات المحبة كما كان يسمى في حينه حتى منتصف القرن الحالي ، واقامة الجنرال ويجول فيه سنة ١٩٤١ م .

١٣ — دير ارطاس وراعيه الاب البندك الصديق الحميم لجمال باشا قائد الجيوش التركية في فلسطين والشام ، الذي اتخذ من بساتين قرية ارطاس قرب بيت لحم مستجما له لسنوات طويلة . وكيف وكل اهالي ارطاس الاب عيسى بندك ليقيم دعوى باسمهم ضد حكومة فلسطين ، عندما قررت سحب مياه عين ارطاس الى القدس ، وكيف استأنف الحكم الى مجلس الملكة في لندن .

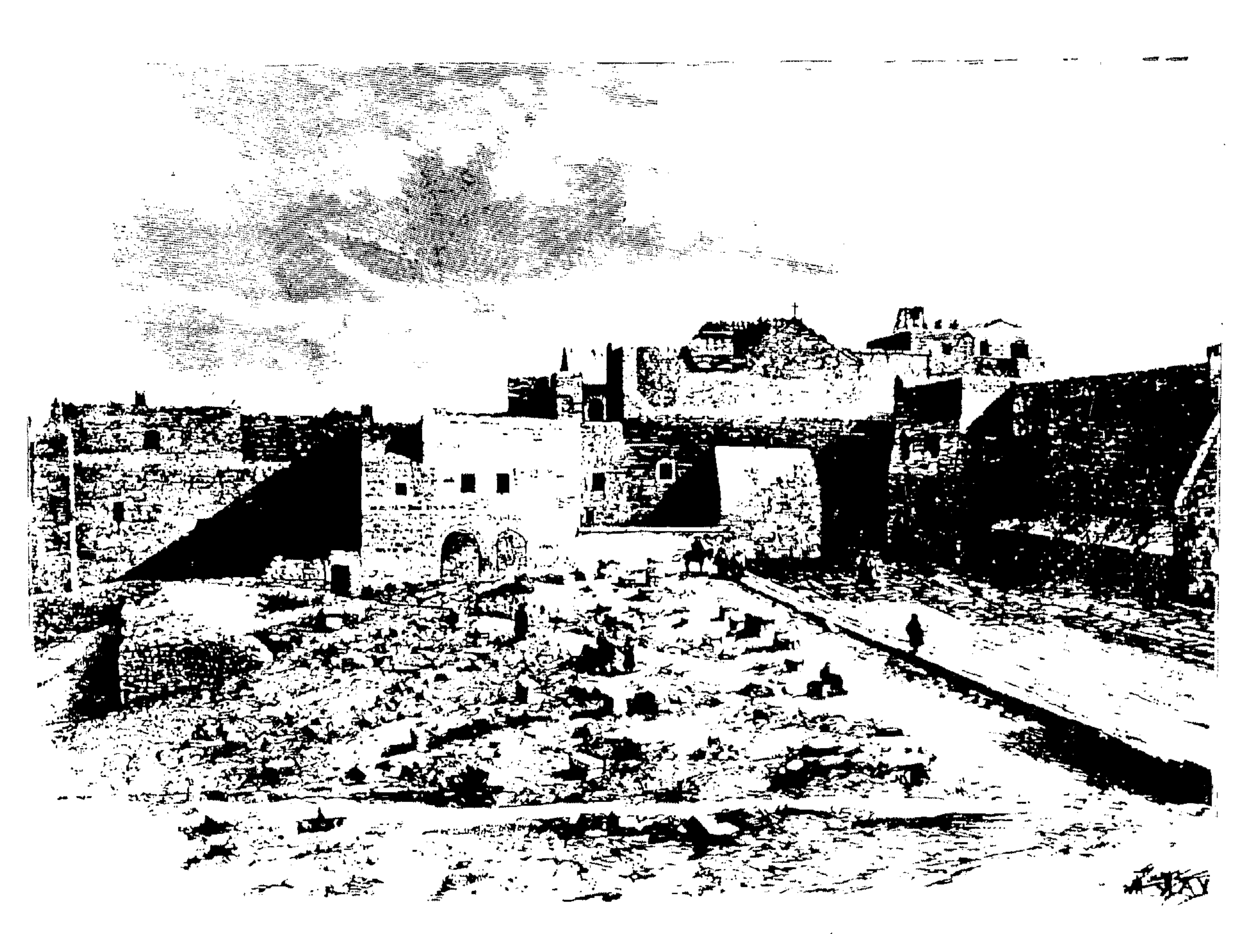
١٤ — اخوة المدارس المسيحية « الفرير » في فلسطين ومدارسهم فيها .

١٥ — جامعة بيت لحم ، كيف تأسست وكيف شقت طريقها رغم تنكر المسؤولين العرب لها سنوات طويلة ، قبل ان استجابوا للاعتراف بها قبل سنتين فقط . ومواضيع اخرى كثيرة سنقدمها للقراء الكرام في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، بمشيئة المولى وتوفيقه .

الفهرس

الفصل الرابع

الفصـــل الخامـــس



كنيسة المهد في سنــة ١٧٠٠ ميلادية